روايات عالمية روايات عالمية



تأليف : إميل لودفيج

ترجمة : مصطفى لبيب عبد الغنى

الثمن ٣٥ قرشًا

سلسلة

روايات عالمية

تصدر عن :

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

اهداءات ٢٠٠٢

أ.د/ مصطفى الصاوي الجويني

الاسكندرية



روايات عالمية

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

نقلت إلى العربية كاملة عن

رواية

CLEOPATRA

Geschichte einer Königen

von

Emil Ludwig

روايات عالمية

العدد ٥٠٤

من الأدب الألمانى

كليوباترا

تأليف : اميل لودفيج

ترجمة : مصطفى لبيب عبد الغنى

المقدمة بقلم المؤلف

التقيت بها ، آخر مرة ، على ضفاف النيل ، بيد أن ذهنها كان مستغرقا فى الشمال ، فلم تكن مصر ، فى أغلب الأمر ، سوى بلد غريب • أما وطنها فهو حوض البحر المتوسط كله ، هنالك حيث تخفق رياحه عبر تاريخها •

وتتميز هذه السيرة ، من بين كل ما كتبت ، بخلوها تماما من الأسانيد • فالوثائق الشخصية ، وأعنى بها الرسائل والخطب والمذكريات ، تلك التى جمعتها فى حالات أخرى لتفصح عن صاحبها من خلال عباراته أو عبارات أصدقائه وأعدائه ، هذه الوثائق نفتقدها هنا تماما • فلقد ضاعت رسائل كليوباترا الغرامية ومعظم الأوراق الخاصة بأنطونيوس وبقيصر ، ولم يتبق لدينا سوى عبارات ثلاث من احدى رسائل أنطونيوس • غير أن الحياة العامة للملكة قد سجلت لنا تسجيلا باقيا ، فيما عدا فترات وجيزة غير معروفة لنا ، فالرومان الثلاثة الذين ارتبطت حياتهم بحياتها ارتباطا وثيقا هم بحق رجال لهم فى تاريخ العالم مكانة مرموقة •

ومثل هذه الصفات المميزة التى سجلها ستة من قدامى الكتاب ، ممن كتبوا فى السنوات التى تلت حكمها مباشرة ، تضعك، برغم ذلك ، أمام صورة نابضة بالحياة ، وهو ما يؤكده ، على أقل قدير ، واحد من تماثيلها النصفية الصادقة ، ومن دون المؤرخين

جميعا بوسعى أن أتتبع خطى أستاذى « بلوتارك » ، ومع أننى أنتمى بحكم جنسى وحياتى وثقافتى الى البحر المتوسط ، فاننى لم أصور حتى الآن شخصيات اغريقيـــة الا باعتبارها شخصيات درامية دون أن أتناولها مطلقا تناولا تاريخيا ٠

وقد بدا لى ما كتبه المحـدثون من نافـــلة القول ؛ بالنظر الى التسجيلات السهلة الممتنعة التى خلفها لنا القدماء ، ولكننى انتفعت بقراءة تاريخ الرومان الكبير لـ « فيريرو » وكذلك كتاب «ستاهر » والدراسات الطريفة لـ « فيجال » عن كليوباترة (١٨٦٤ و١٩٢٧)٠ وانه وان لم يكن بلوتارك أكثر حداثة من كل الكتاب التحليليين فى عصرنا ، فلسوف يظل مع ذلك أقرب الى موضوعاته ، فهـو حينمـا يكتب عن جده « أنه تعلم سر الشواء من رئيس طهاة أنطونيوس فى الاسكندرية » يكون لهذه الشهادة عندى أثر أبلغ من أية مساجلة بين اثنين من الباحثين المعاصرين يتهم فيهـــا أحـــدهما الآخر بأنه يولى « سويتنيوس » ثقته الغالية دون مبرر ، بينما لا يثق فى « ابيان » الا نادرا ٠

ولعل غياب الوثائق النفسية يمنحنى مزيدا من الحرية لتعمق حالات الذهن والنجوى ، أكثر مما لو كانت مصادرى أكثر وفرة ٠٠ ولقد أبحت أن أناجى نفسى من وقت لآخر ، عندما بدأت فى كتابى عن « جوته » لونا جديدا من السيرة ، وأيضا فى كتابى عن « نابليون » ؛ غير أنى لم أســلك هذا المسلك فى كتبى اللاحقة ٠ واننى لواجد نفسى هنا ، فى حالة غياب المصادر النفسيـــة تماما ، مضطـرا الى استخدام « المونولوج » وذلك لأن فى الحدث ضمانا كافيـــا ، وحتى « بلوتارك » نفسه لم يكن بوسعه غير استنباط المشاعر ٠ ومع ذلك فلم تعد بعد معارك تلك الأيام ولا الخصومات الحزبيـــة ولا أى من المقاطعات الرومانية بذات مغزى لنا ٠ المشاعر وحدها هى الأزليـــة والباقية ولها نفس طبيعة مشاعرنا ، وفى ضوئها ، فحسب ، نستطيع

أن ندرك موجودا بشريا ، مثلنا تماما ، فى هذه الشخصية التاريخية أو تلك •

ومع أننا نبلغ هنا حد الرواية التاريخية فاننا لن نتجاوزه أصلا • ولقد استغنيت هنا ، كما فى مواضع أخرى ، عن مئات المحاورات التى تبدلها أشكال التاريخ عادة وهى تنساب فى مسامع ملاحظ متحمس لها • ويمكن أن نجد العبارات القليلة التى قيلت بحق فيما اعتمدت عليه من المصادر •

على هذا النحو تختص هذه السيرة القلقة ، كلية بالحياة النفسية للبطلة وبالرومان الثلاثة الذين لعبوا الدور الرئيسى فى حياتها ••

ولن يلقى القارىء هنا روح العاشقة الكبرى grande amoureuse التى رسمتها الأسطورة لكليوباترا ، لكنه سيلقاها ، وبرغم كل المصادر ، عاشقة وأماً ومحاربة وملكة • وبعيدا عن المسائل الشكلية كلها أرجو أن يتقبل القراء هذا التمثل منى كاسهام فى تاريخ القلب الانسانى ، ذلك التاريخ الذى يشغلنى منذ ثلاثين عاما •

اميل لودفيج

يناير ١٩٣٧

شخصيات الرواية

كليوباترا	Cleopatra
قيصر	Caesar
مارك أنطونيوس	Mark Antony
أوكتافيا	Octavia
بطليموس أوليتس	Ptolemy Auletes
قيصر أغسطس	Caesar Augustus
أوكتافيوس	Octavian
ليبيديوس	Lepidus
كاسيوس	Cassius

الفصل الأول

أفروديت

« عندما تكتسب المرأة بعضاً من صفات الرجل فلابد لها أن تنتصر ، وهى اذ تضيف الى مآثرها علو الهمة تصبح كاملة كأشد ما يكون الكمال تصوراً » ٠

جوته

- ١ -

هى أميرة صغيرة ، تقف فى ظل الأعمدة محدقة فى البحر من كوة احدى النوافذ المفتوحة ٠ كانت تبلغ من عمرها أحد عشر عاما ٠ والآن تجلس القرفصاء ، ويداها معقودتان قليلا خلف رأسها بين شعرها الأسمر والحائط الرخامى ، جلسة طفلية ، والنسيم الهادىء يهفهف قميصها الحريرى الأصفر حول نهديها الصغيرين البارزين٠ وهى تبدو امرأة يقدر عمرها فى الشمال بخمس عشرة سنة ، لكننا

هنا فى حوض البحر المتوسط وفى قصر بالاسكندرية على الشاطىء الافريقى •

لم تكن طويلة ولكنها رقيقة الخطو بصورة تدعو الى الاعجاب ، حتى انها اذا ما رغبت فى أن تقفز من مكانها فلن يكون بوسع الخصى الجالس القرفصاء ، على الأرض بجوارها ، أن يخف لمساعدتها فى الوقت المناسب • بامكانه أن يرقبها من ركنه المظلم متخيلا أنها لا تلحظه ، غير أن الأميرة الصغيرة الرشيقة على وعى بما يدور حولها ، فبينما تتابع بنظرتها العسلية الحلوة الشراع الكبير يعبر المنارة لتوه تتنبه للعبد الرابض فى أحد الأركان وتلمح عيونه الندية وتسمع حفيف قميصه الحريرى يحك به ظهره الأسود • لم يكن أمره يعنيها فى شىء ، ألم يكن مجرد عبد ، حيوان ، بل انه ليس برجل ؟ وهى اذ تشم فى نفس الوقت رائحة قطران تدرك أن الحبال ، التى ربط بها يختها الصغير الليلة الماضية معلقة بالممر تحت نافذتها لتجف ••

وتستقر نظرة العبد الذليلة على الأميرة ، فى شكاية صامتة • حقا هو يراها بيضاء ويرى أختها بيرنيكى صفراء على حين أن أباها الملك أسمر تقريبا فى واقع الأمر ، بيد أنها لن تبقى هكذا على الدوام فسرعان ما سيصبغها الحب والخمر • لكن لماذا يختلج أنفها ؟ لا ريب انها لا تزال تلتمس الوسيلة لتسرع فتقتل أختها بالسم • فلو أنها تثق بى لأنجزت لها هذا العمل دون ما ابطاء ، يكفى صوتها وحده ليصيب المرء بالهوس والجنون • كان أبى هو قاتل أخ لجدها • وفى النهاية قطع رأسه . ولكن من منا لا يموت يوما ما . ويظل العبد محملقا فى الأميرة بينما تجلس هنالك ، بلا حراك ، شاخصة الى البحر ، ويداها معقودتان قليلا خلف رأسها ، تترقب رؤية شراع أبيها وتترقب نهاية أسرها ! لكن من يدرى ! فلربما قتل من زمن ، فى روما أو فى مكان آخر من البحر • وغدا تأتى سفينة لاتينية الى الميناء

بروماني ، بقميصه وسيفه القصيرين وبملامحه الصارمة الفظة ليضع حداً لشرور الأخت ويحرر كليوباترا باسم أبيها ٠

وتستغرق الأميرة في أفكارها ، من روما يأتي كل خير وكل شر ٠ ولماذا من روما ؟ ألا يحمل نصف محصول البلاد كل ربيع في السفن الطويلة الى موانى ايطاليا ؟ ألا تجلب الأقمشة الفاخرة وأحجار الياقوت الرائعة بما تنطوى عليه من سر ديونيزوس والعنبر الذهبي والعطور والبخور ـ الى الميناء هنا بثمن غال وحالما ترسل فى الغالب فى السفن الطويلة فحسب الى روما ؟ وماذا يدفع الرومان ثمنا لذلك كله ؟ وكل بضع سنين يرسل والدها فى السفن سبائك الذهب ، وزيادة على ذلك يدفع ألف طالنت (١) الى روما ٠ وكلما ازداد ما يشترونه منا ازداد ما ندفعه لهم ! فلماذا ؟ لماذا ؟

ومازال أبى يقيم منذ عامين فى فيلا بومبى بايطاليا ، يساوم على تاجه ٠ فمن هم اذن هؤلاء الرومان ، الذين يطلبون على الدوام ويهددون على الدوام ؟ ان بومبى العظيم يبدو على العملات رجلا عاميا وعاديا الى حد كبير ، ومع أن قيصر يبدو أفضل منه مظهرا الا أنه لاتوجد حتى الآن عملات تحمل رسمه ٠ هم جميعا ليسوا الا مجموعة من التجار المجتهدين والمحاربين ! فهل يجب علينا ، نحن المنحدرين من سلالة الاسكندر ، وأصحاب الدم الملكى منذ قرون ثلاثة ، نحن نسل الآلهة وممثلوهم على الأرض ، هل يليق بنا أن نتسول فى روما ليتفضلوا علينا بالبقاء فى قصورنا ؟ حتى الآن هنالك سفينة غلال أخرى تبحر الى روما ـ ومرة أخرى لن يدفعوا شيئا ثمنا لما تحمله ٠

---

(١) وحدة نقدية اغريقية ، كانت تعتبر مساوية فى العادة لـ ٦٠٠ دينار أو ٢٤٠٠٠ سستريسيس (انظر كتاب كوديل : شيشرون والامبراطورية الرومانية ص ٩٤) المترجم ٠

وفجأة تدرك الأميرة السبب • وتسترجع رؤية أبيها ، بوجهه المنتفخ ، وسلوكه غير الملكى فى عاصمته ، وكيف اعتـــاد مجالسة الموسيقيين والعزف بمزماره فى شوارع المدينة وحمله العبيد على أن يرقصوا على أنغامه • هل هنالك طفل فى المدينة لايطلق على مليكه اسم « اوليتس الزمار » ؟ وهل هنالك من النبلاء من لم يره يترنح سكرا فى شوارعها ؟ وكم من النساء ضربنه على أصابعه وقد لمس نهودهن ؟ لا عجب أن يعزل فجأة • وينادى ببيرنيكى ملكة ــ بيرنيكى هذه ، أكبر الأولاد والتى أنجبها ــ سفاحا ــ ذات يوم من احـــدى عبيده الزنجيات •

اذن لتقتل بيرنيكى بالسم ! هذا ما كانت تفكر فيه الأميرة •• وليكن فى ذلك نهايتها ، كما سم أحد البطالمة أمه ! وكمـــا خنق بطليموس الرابع أخاه وأخته ، فدائما مايتحدث معلمهـا عن الموت المفاجىء لأحد أفراد أسرتها ، ويسجل التاريخ المؤامرة • هى تعرف ذلك ، ولها مصادرها الأخرى • وتواصل كليوباترا التفكير ، اختفت أمها ولا يعرف أحد من كانت ، وأبوها رجل مشعوذ ، ولهـــا أخت داعرة وملكة •• فهل كان يمكن أن يظل العبيد والناس على اعتقادهم بأن الملك هو الصورة الحية للاله « آمون » ، والمصطفى من الاله « بتاح » وهو يندفع فى زيه الأرجوانى الى المعبد وصورة الحية الملكية على جبينه ؟ وهل يمكن أن يظل الكتاب على تعظيمهم له بعد أن هـــدد الحكيم الشهير « ديميتريوس » بالموت اذا لم يسكر فى عرض الطريق ؟

هنالك أتى ديمتريوس ، ولكم أحنى جبينه الوضاء حتى لمس الأرض أو كاد • لقد كان أفضل من يتكلم اليونانية فى المدينة ، ويعرف الكثير عن الآلهة والعناصر ، وهو اذ يحاضر بصوته العذب فى تلاميذه •• كانت تسائل نفسها ــ كما علمها الفيلسوف اليهودى ــ أمن الممكن حقا ألا يكون الذهن أكثر من التاج قيمة وأغلى ثمنا ؟ ولكنها تبتسم اذ ذاك ، ولا تصدقه •

غير أنه يجب على المرء أن يتعلم ، يجب أن يتعلم كل ما يعرفه الاغريق ، حتى يقـــدر ذات يوم على التعـــامل مع الرومان ، الذين لايجيدون غير الحرب فحسب ! من أثينا تأتى الحكمة كلهـــا والجمال كله ، هذا ما سوف تسمعه من جديد حينما يأتى الحكماء الثلاثة الى القصر . كانت نهمة لا يرتوى ظمؤها الى المعرفة ، وتتعلم أكثر ممــا تعلمه أبوها وأكثر بكثير مما تتعلمه أختها الكبرى وأخوتها الثلاثة الذين يصغرونها . ولأول مرة ، وبعد مئات السنين ، يعرف المتحف الآن أن بالقصر أميرة تريد أن تعـــرف كل شيء ، وتدرك على الفور ما تشهده من الرسومات والأجهزة فى القاعة الكبيرة ، وتعرف خطط بناء السفن ، والهياكل العظيمة ، وحقائق الجسم الانسانى ، والعملات النقدية الكثيرة ، التى تعرف منها كيف تقرأ الوجوه ، كما تعرف ستاً من لغات البحر المتوسط . ولشد ما كان شغف الأميرة وهى تقف أمام الخرائط الكبرى وتخط بيدها الثابتة ، التى لا تهتز أبدا ، خطا من دلتا النيل شرقا (وهى اذ تفعل هذا تضم شفتيها عـــزما) وتنطلق عبر سوريا وكبدوكية وابيروس حتى برنديزى ؛ ولـكنهـا تترك الطريق المنحدر صوب ايطاليا وتعجل بالعودة الى وطنها كمـا كانت تضم شرق البحر المتوسط بأكمله ، وكأن كل شواطئه خاضعة لمصر . ولم يكن ما تخطه باصبعها يتضمن روما مطلقا .

ومع ذلك فليست مصر بالنسبة لها غير اسم من الأسماء . وهى لا تعرف ـ شأنها فى ذلك شأن أبيها ـ الا قليلا عن أعالى النيل .. ولم تكن عقيدتها هى عقيدة مصر ، ولا آلهتها هى آلهة مصر . فالنيل نهر أجنبى ، لا يمكن رؤيته من البحيرة المتصلة به هنا ؛ وراء بحيرة موريس الشاسعة ، ذلك لأن الاسكندرية لا تقع على ضفاف النيل ، مثل ممفيس ، وانما تقع على شاطىء البحر الاغريقى .

كل ذلك تشعر به الاميرة وتعلمه ، وهو لغة أحلامها ـ فأجدادها وبيوت الاسكندرية وجلبة الميناء بما تزخر به من مئـــات الألسنـة

والأجناس ـ كل ذلك له لون اغريقي ، وهي عندما تعبر برشاقتهـا ردهات القصر التى تتجاوب أصداؤها تطالع تماثيل البطالمة النصفية.
حقا ، ليس لها الأنف الكلاسيكي ، ومع ذلك فلا تزال أثينية المظهر ، يذكر أسلوبها بالاسكندر الأكبر الذى نزل يوما ما الى صحارى الشاطىء ، ونظر اليها ملياً ثم أمر بأن تشيد على هذه البقعة عاصمة العالم ، أو لا تزال الاسكندرية عاصمة العالم حتى الآن ؟

وتصعد الأميرة فى المساء الى شرفة القصر ، حيث يمكن أن يرى المرء غالبا ، على نحو ما يرى من المنار ، ما هو ممتد أمامه الى بعيد ، ربما حتى قبرص ، وحتى بلاد اليونان ، بل ربما حتى روما ! والآن تستقر السفن على الشاطىء ، حاملة بما تحمله ـ ربما من البردى والزجاج ـ وبرحلتها عبر البحر الأزرق ، وبالميناء التالى وبالأيدى الخشنة تمسك بجبالها وتفرغ شحناتها وسط لغط الميناء وجلبته وحاملة برحلاتها المرتقبة المحفوفة بالمخاطر وبالعواصف التى تنتظرها.
هى رسل تمضى من جنس الى جنس ، تحمل التجارة والحرب والقوة ، مندفعة صوب الخطر دائما اذ لو بقيت فى الميناء طويلا لقضى عليها بالفناء والعطب .

وتتابع الأميرة من شرفة القصر آثار سير السفن بينما تحلم بأمور أخرى ، وقلبها المشتعل يحدثها وعقلها المتفتح يصور لها ، يوما ما سوف أبحر على ظهر احدى هذه السفن السريعة الى شواطىء سوريا وكابادونيا تتبعنى ستمائة سفينة ، الى أفيسوس وكورنثة وأثينا ! سوف تكون جزر الخليج العظيم بأسرها ملكا لى ، وسوف تطوى ظلال النسيان بيرنيكى ، وسوف ألبس التاج مزدانا بالحية الذهبية ، شعار أفروديت وايزيس ، وسوف ينقش على خاتمى ؛ (كليوباترة السابعة ، ملكة مصر) وحينئذ لن يكون هناك فى العالم غير روما وأنا ، وسوف نرى هل ستذهب غلال مصر الى

هؤلاء الايطاليين ، واذا ماذهبت اليهم فهل سيرسلون الى الاسكندرية ثمنها ذهبا بدلا من أن يأخذوه منا ؟! الذهب والاجلال من روما الى عاصمة العالم الزاخرة •

- ٢ -

وفى المساء تغرب مع الشمس مثل هذه الرؤى لمستقبل الشرق فى البحر الغربى •

كان ما سمعته غامضا ومشوشا ، من الفلاسفة ومن أحد الربان ، ومن خصى فى القصر ، عن ماضى أبيها وعن حاضر الجمهورية الرومانية التى كانت على حافة السقوط •

وخلال حياتها القصيرة عرفت ما حدث ، فقبل ميلادها بسبع وعشرين سنة أوصى أحد البطالمة بمصر للرومان ، غير أن السناتو لم يشأ أن يدخل فى مشكلات هذه التركة ، طالما كان الحسد على أشده بين أولئك الذين يمكن أن يعهد اليهم بادارة هذه البلاد الغنية • أفلا يعتبر وجود دولة ضعيفة بدلتا النيل أمرا أقل خطورة من وجود قنصل رومانى قوى بها ؟ من الأفضل أن تعطى مصر وقبرص لابنين غير شرعيين من أبناء الملك الواصى اعتمادا على أنهما سيغرقان فى السكر والانحلال . وكلما ازداد الضغط عليهما ازدادا ضعفا • ولقد كان كل واحد من عواهل الرومان الثلاثة يترقب مجىء اليوم الذى يجد فى نفسه من القوة ما يمكنه من السيطرة على هذا البلد العجيب ، والذى كانت روما تنظر اليه نظرة أسطورية أكثر مما تنظر اليه نظرة واقعية رشيدة •

فكل بضعة أعوام يصطاد سادة روما الكبار الملك الزمار ٠٠ ثم يطلقونه ثانية ، على نحو ما يداعب القط الفأر ، لكى يحضر لهم مزيدا من الذهب من كنز البطالمة الأسطورى الذىلاينفد ، ثم يجعلونه يدفع أكثر وأكثر حتى يعترف مجلس السناتو به ، فى النهاية عند عودته ، ملكا على مصر ٠

فى عام ٥٩ ق٠م - وان كانت السنة الرومانية تحسب من تاريخ انشاء المدينة - كان جايوس يوليوس قيصر قنصلا ٠ ولكنه لم يكن من القوة بحيث يستطيع أن يمنع عاهلا آخر ، هو كلوديوس عدوه ومناوئه ، والذى لم يكن راضيا بالرشوة التىتسلمها ، عن خلع ملك قبرص ، تابع ملك مصر ، وأخيه ، فتصادر أمواله وتصبح قبرص ولاية رومانية ، فى حين أن الملك الزمار يتصرف وكأن أمر قبرص لا يعنيه ، بل حتى انه حاول ، أكثر من ذلك ، أن يغتصب منها مبلغا كبيرا من المال يستطيعأن يدفعه الى جيوب قيصر فى روما ، وذلكمن غير أن يمس خزانته الخاصة فى مصر ٠ ويؤدى هذا الى نشوب فتنة فى الاسكندرية ، ويجد كهنة القصر والمدينة ورجال الدين والنبلاء وملاك الأرض وضباط البلاط يجدون جميعا أن من السهل عليهم اقناعسكان العاصمة المتقلبين والذين يتحرقون شوقا الى التغيير ، بأن ملكهم السائب اللاهى قد جلب لهم الخزى والعار ٠ ويفر الملك الى روما ، وينادى بابنته الكبرى بيرنيكى ملكة على مصر يساندها فىذلك حزبها بينما يموت أخوه ، ملك قبرص مسموما ٠

وتصيب هذه الأنباء كليوباترا ، التى لا تزال فى عامها الحادى عشر ، بالحيرة ٠ ما أكثر الصفحات الملطخة بالدماء ، فى تاريخ أسرتها فعلى مدى مائتين وخمسين عاما تعاقب على العرش ثلاثون من البطالمة وقعوا تحت سيطرة أو اضطهاد نسائهم وأولادهم ، مثلهم فى ذلك مثل أسلافهم الفراعنة على ضفاف النيل ٠ وأبصرت كيف أدى السم والخنجر الى دمار أجدادها ، فلكم قتل الأخوة اخوتهم والأمراء آباءهم

والملكات أزواجهن الذين كانوا أيضا اخوة لهن • كل ذلك سعيا وراء السلطة والتماسا لحياة أقوى • ومن لم تكن منيته قد حانت بسرعة فلسوف يقتل بعد حين • حتى الآن لم يقتل أحد نفسه بيديه •• واليوم يأتي وارث من هذه السلالة غارقا في عاره فيبعث في الحال ذكرى عزته وكبريائه • وهنالك يبرز من بين هذه الأسرة المتداعية وارث شجاع ، من أولئك الاغريق الذين مجدتهم الأساطير ورددت جزيرة الملك أشعارهم وهو يرفع الكأس المسمومة اليه • ويبلغ التأثر بالأميرة كل مبلغ • وبقدر ما تعلمت أن تحتقر أباها الذي يساوم آنذاك على السلطان في روما يجب عليها الآن أن تعجب بأخيه• حقا كان ذلك ما تعلمته من فلاسفة المتحف : فحتى اليوم ثمت شيء أبقى من التاج وأعز من الذهب • وتحقق لدى كليوباترا الصغيرة أن عزة الملك قد تكون أثمن من السلطة وأنه لا قيمة مطلقا لقيد كالذي يرسف أبوها في أغلاله ، فالسم فيه انقاذ سريع • ويترك هذا الحادث في ذهن الأميرة الشابة أثرا لا تمحو الأيام أثره •

بيد أنها كانت مصممة ، بحيويتها الشابة ، على أن تقهر ما تقيدها به أختها من قيود • ترى هل كانت بيرنيكى سعيدة ؟•• كان الزوج الأول الذي اختاروه لها ليشاركها اللقب كملك وينجب لها الأطفال ، وهو ابن عم لها ، كان فاسقا منحلا فقتله ضباط القصر بعد وقت وجيز • أما زوجها الثاني الذي فرض عليها فكان أفضل من سابقه • ولكن أليس من الممكن أن يكون ابن ملك الفرس هذا مجرد رجل مغامر ؟ ثم من يكون ، في نهاية الأمر ، هؤلاء الفرس ، الذين يسيرون دائما في سراويل ضيقة ، ويجيدون ركوب الخيل دون أن يكون لديهم أي فهم للروح الاغريقية ولمتع الحياة ومباهجها ؟ أكان في حقيقة أمره حر الارادة ، مستقلا عن الخصيان الذين يحكمون القصر ؟ وهل كان يحب زوجته أم يحتقرها ؟ وهل تحرروا من خشية روما ولو ليوم واحد ؟ روما هذه التي تقف في الشمال ، غير مرئية ،

عاتية ومتسلطة والتى تستطيع أن تأتى فتقتل وتسرق وتحطم ماتشاء ومتى تشاء •

كان أبوها يطأ درب العار ؛ وطالما كان يستحيل أن يحكم المرء ضد ارادة روما ، فالتفاهم مع الرومان اذن ضرورة لا محيص عنها ، ذلك ما عرفته الأميرة • وما كان يعرفه أهل الاسكندرية والزوجان الملكيان • وهو ما جعلهم يوفدون فى أعقاب الملك المخلوع مائة من النبلاء ، يلتمسون عقد حلف مع الرومان • ومر شهر بعد شهر دون خبر عن هذه السفارة ، غير أن الأميرة المنعزلة ، وحدها فى الغالب بين أهل الاسكندرية ، هى التى تمنت طرد المبعوثين واخفاقهم ، اذ ما لم ينل أبوها المزدرى التاج وينتصر فلا أمل لها فيه بدورها •

وما ان ينتهى الشتاء وتعود أولى السفن مرة أخرى منحدرة فى اتجاه فاروس حتى تعلم ، كما يعلم سائر المدينة ، أن الزمار قد نجح فى أن يقتل أفراد البعثة فردا فردا • بالطبع كان للأميرة القلقة عيونها الخاصة ، حتى انها سمعت أمورا كثيرة لم تكن معروفة للآخرين فقد عرض والدها ستة آلاف « طالنت » من خزانته ثمنا يدفعه للرومان لو عاد الى السلطة ، وذلك فى وقت كانت فيه روما فى عوز شديد من أثر الحرب الفاشلة ضد الفرس ، وسمعت أن قيصر وكراسيوس ، وبومبى يتآمرون كل واحد ضد الآخر ، طمعا فى مصر وفى كنز البطالمة وتحقيقا لسيادته فى النهاية على منافسيه • وكل شىء يعتمد على مايستطيع والدها أن يدفعه لكى يغادر روما لا كواحد من رعاياها بل كحليف من حلفائها •

وثمت أنباء من وراء البحر . فالصراع ، فيما يقال ، قد اقترب من ذروته السياسية ، وعاد قيصر من بلاد الغال وأعلن أن الزمار هو بحكم « قانون يوليو » حليف وصديق للشعب الرومانى. وذلك فى الوقت الذى ورط فيه حكام روما الدهاة صديقهم الجديد

وحليفهم فى دين يبلغ الملايين اقترضه من المرابين الرومان ، وهو دين لن يستطيع له دفعا ، فتكون نتيجته اذعانا لمطالبهم فى نهاية الأمـــــر •

والتفت جماعة من الرجال الذين لحقهم الضيم والأذى ، حول الأميرة الصغيرة المنبوذة ، مدفوعين بالرغبة فى ثورة جديدة • وأصدر أوليتس تعليمات سرية بوجوب مســـاندة كليوباترا ؛ وبينما كان بطليموس المحتال الجبان يستجدى عرشه فى روما ، كانت الأخت هنا تعد خططها فى صمت داخل القصر ، ناظرة بعين الاعتبار الى أفضل وسيلة تستفيد بها من الرومان وتصل بمساعدتهم الى السلطة •

وذات يوم يأتى الرومان فعلا • فاذ بقائد رومانى ، فى سوريا ، غارق فى الديون الى أذنيه وغير قادر على أن يدفع رواتب كتـــائبه يتقدم ليحصل على اثنى عشر ألف « طالنت » ـ وهو ما طلب من الزمار أن يدفعه ثمنا لعرشه • وببضعة آلاف رجـــل يندفع عبـــر الصحراء من غزة الى بليزيوم ، شرق الدلتا ، زاحفـــا الى النيل ، وسالكا نفس الطريق الذى سلكه الاسكندر منذ قرون ثلاثة خلت ، وسلكه الفرس والعبريون والأشوريون منذ آلاف السنين • ويأتى يوم التحرير أخيرا ، بالرغم من أنه تحقق على أيدى الرومان المكروهين • ويخفق قلب كليوباترة ، وتختفى بعيدا عن أعين أختها المتسلطة ، وتقوم مطالبة بحقوقها أمام الحزب الجديد •

تسمع الاسكندرية ضجيج معركة يندفع فيها الفرسان الغرباء الى المدينة ، وتسمع هـــزيمهم ودويهم أمام أبوابها فتنفتح الأبواب ويختبىء الهاربون أو يستسلمون • هنا أبصرت كليوباترة من جديد الوجه المدمر لأبيها ، راجعا الى بيته وعرشه ، تحرسه الفيالق الأجنبية ورأت الجثمان المشوه للملك الصغير ، ولاحظت خضوع الكهنة والنبلاء وموقف الاسكندرانيين الفضوليين الذين لا يبالون بشىء ولا يدافعون عن شىء ـ لاحظت كيف بادروا فأقسموا من فورهم يمين الولاء لملكهم

الجديد القديم ، وقد طردوه من عرشه ذات مرة · وأخيرا ، رأت رأس أختها الكريهة ، التى أمر أبوها بأن تقطع ، وتدحرج فى الرمال ؛ تلك هى فرصتها فى السلطان المرتقب ! فلا أحد يقف الآن بينه وبينها سوى مجرم مخنث عجوز ، هذا الذى يجب عليها أن تدعوه أباها ، ويا له من انتصار صامت ، يوم ماتت أختها بيرنيكى ·

ويزداد قلب الأميرة الصغيرة المتكبر خفقانا وهى ترى الجنود الأجانب وجها لوجه ·أهؤلاء هم الرومان ؟ وهل هـذا هو الجيش الرومانى ؟ هنا رجال شقر بوجوههم الجرمانية الوحشية ، رجال لا يستطيعون جوابها بأية لغة شائعة ، من الأسيويين القصار ذوى المظهر الجاف ، ومن اليهود ذوى العيون الواسعة ، والبيزنطيين ذوى الجباه المنخفضة ، ذلك كان هو الجيش الرومانى ، الذىبدا وقد تحطم فى افريقيا · ورأته كليوباترا التى لم تكن تثق فى روما الى أبعد حد ورأت أسوأ الرومان لا أفضلهم فبدا خوفها القديم منهم يتضاءل ··

وتزداد حيرة كليوباترا ، فى الوقت نفسه · فأحد قادةالفرسان ـ وهو الذى أخذ بليزيوم وقاد الهجوم على العاصمة كان يجالسأباها فى القصر حول المائدة · ويحاط بمثل ما يحاط به قائدهم منضروب التكريم ، ولكنه بدا متفوقا على قائده فى كل ناحية · فلئن كان هذا رومانيا فانه مع ذلك رجل ! وهاهو بردائه الفضفاض القصير وسيفه الكبير بجانبه ، متكىء على المائدة ، وله رأس هرقل ولحيـة قصـيرة وأنف معقوف يدل على العظمة · وهنا راجعت الأميرة ، التى كانت ترقبه ، راجعت نفسها ، فى صمت ، فى تعصبها ضد الرومان ··

لم يلاحظ قائد الفرسان الفتاة الجميلة العصبية · كانت فى الرابعة عشرة وكان هو فى الثامنة والعشرين عندما تلاقيا لأول مرة فى هذه المأدبة الملكية الهامة · ولسوف تدوى المعركة فى جبـال

وأنهار وبحار ومدن ولسوف يمضى مصير بطل نحو غايته قبل أن يقدر لهما أن يتلاقيا مرة ثانية بعد ثلاثة عشر عاما ·

وربما لم يكن سيحدث هذا اللقاء أبدا ما لم يكونا قد تبادلا أكثر من كلمة ومن نظرة ، وربما لم تكن الرغبة فى الازدهار والنماء قد جذبتهما معا فى تلك الفترة المتأخرة من صيف حياتهما مالم تقرب بينهما رياح الربيع التى هبت عليهما ، خلال هذه الضيافة القصيرة فى ذلك اليوم · وهناك كانا يجلسان الى المائدة ، افروديت تتلألأ كالبدر وهرقل المنشرح بملامحه الفتية ، ولكن ما أبعدهما عن الآلهة المكتملة التى سوف يمثلانها على الأرض يوما ما : كانت عذراء اغريقية رقيقة وكان ضابطا رومانيا ، كانا كليوباترا وأنطونيوس ·

- ٣ -

وتمضى سنوات ثلاث ، تأتى بعدها كليوباترا الى عرش مصر التى غدت فى حالة من التفكك والانحلال · ذلك أن الزمار قضى هذه السنوات الأخيرة فى سلسلة من الدسائس والمناورات · وكان قد عين رومانيا وزيرا للخزانة فحجز هذا كل ما وصلت اليه يداه فعلا استيفاء للدين ، ولما اضطر الملك الى اقصائه قررت روما أن تضم مصر اليها ، شأنها شأن معظم حوض البحر المتوسط · حينئذ كانت مصر على وشك أن تصبح ولاية رومانية ما لم يهلك كراسيوس بجيشه فى غمار الحرب الفارسية هذه السنة ذاتها · وكانت هذه فرصة أنقذت مصر من الخضوع لروما · وبموت الملك غير المجيد اهتزت أرجاء مملكته كلها ·

ذلك لأن الملك ، فى التماس له خطير ، نصب الشعب الرومانى منفذا لوصيته الأخيرة فى أن يجلس على عرش مصر : كليوباترا ذات

السبعة عشر عاما وبطليموس ذو السنوات العشر على أن يتزوج الأخ أخته وفقا للتقليد الفرعوني القديم • كان الملك ، وهو على علم بكل أساليب القصر ، يخشى الدسائس والمكائد التى يمكن أن تحيط بولديه الصغيرين : أرسينوى البالغة ثلاثة عشر عاما وبطليموس الآخر الصغير • ترى أى من هؤلاء سيقمع الآخرين أو يبعدهم أو يقتلهم ؟ وأى حزب سيمهد لذلك السبيل ؟ وحتى هذا الملك ، ومثله مثل من يخاطب الها ، قد توسل ، وهو الاغريقى المصرى ، الى مجلس السناتو الرومانى أن يصون الأمن والسلام ، وحتى من القبر أيضا كان الزمار يتضرع الى روما طلبا للنجاة ، الى روما مقسمة الأرزاق ومدبرة الحظوظ والمصير ، الى روما التى يجب أن تهزم مصر ان عاجلا أو آجلا والا فلتسلم قيادة العالم وسيادته لهذا البلد .

أبدا لم يتم زواج كليوباترا من أخيها الأصغر ، ولسنا نعرف ما فعلته فيما بين السابعة عشرة والحادية والعشرين من عمرها ؛ فتلك هى الفجوة الوحيدة فى قصتها • غير أن أحداثا هامة وقعت لها خلال هذه السنوات ، أحداثا لا تقل أهمية عن اقصائها عن العرش واغتصابه منها ثم انسحابها لكى تسترد موضعها • ومن خلال ما حفظه لنا أحد الكتاب القدماء نعرف شيئا ما عما كانت تشعر به اذ ذاك كملكة •

فى بداية حكمها أرسل أحد نواب القناصل الرومان ابنه من سوريا الى الاسكندرية ليأتى بالكتائب التى تركها ، منذ زيارة أنطونيوس ، كحامية رومانية • وبدلا من أن يجد هذا الابن كتائب نظامية وجد جماعات واهنة غير مدربة غالبيتهم من « السلت » و « الجرمان » الذين طابت لهم الاقامة هنا مع زوجاتهم المصريات ، ولم يعد لديهم أى ميل لأن يلاقوا حتفهم فى الحرب الفارسية القادمة • وبدلا من أن يذهبوا معه قتلوه وطردوا الحرس المرافق • فما الذى

فعلته الملكة ؟ لم تبتهج فى قرارة نفسها وهى تجد هؤلاء الرومان أنصاف الرعايا يحبطون مسعى القائد الرومانى المتعجرف القادم من بعيد • غير أنها لم تكن تنساق مع عواطفها ، فأودعت القتلة السجن ثم أرسلتهم مكبلين بالسلاسل الى نائب القنصل الرومانى والد القتيل •

لكنه كان عليها أن تتعلم بعد ! فقد كان العاهل الرومانى أقوى من أن ينساق وراء عواطفه ، وبدلا من أن ينتقم من القتلة أعاد السجناء برسالة الى الملكة : فان مجلس السناتو وحده هو صاحب الحق فى أن يقبض على رومان ! وكان درسا قاسيا لهذه الملكة المتكبرة • لكن ، ترى ما الذى تعلمته الملكة من هذا الدرس ؟

ولم يمض وقت طويل حتى رست فى الاسكندرية مرة ثانية سفينة رومانية • وينزل الى الشاطىء جينوس بومبيوس ، ابن بومبى الكبير ، حاملا أمرا من أبيه باحضار هذه الكتائب معه • هذه المرة كانت الفيالق المتفرقة مستعدة للرحيل ، فسوف يحاربون تحت امرة أعظم قواد العصر ، وضد قيصر نفسه ! وعلى المرء فى هذه المعركة العظيمة الفاصلة أن يبادر فينحاز الى صفوف بومبى ! وسمعت كليوباترا بذلك ، فلم تطلق سراح الكتائب فحسب ، ولكنها أعطت الرومان خمسين سفينة ليرحلوا عليها • كان ابن بومبى ورسوله الى الاسكندرية فى الحقيقة ، أصغر من أنطونيوس وأشد منه كياسة وظرفا ! لو قدر لبومبى أن ينتصر فانها تكون قد أدت خدمة لصديق قديم لأسرتها • ولم يكن الزمار قد تكلم عن قيصر منافس بومبى الا بعبارات غامضة •

مثل هذه الروايات ، التى تناقلتها الألسن عبر البحار ، عن قيصر كانت أشد فتنة وسحرا من تلك التى تحكى عن بومبى • وحتى الآن لم تكن كليوباترا قد رأت أية عملة تحمل صورة لقيصر ، فى

حين أنها رأت أجمل صور تمثل بومبى متصابيا ، كان قد أرسلها اليها . وما لم يكن هذا حسابا ذكيا فقد كان مصادفة سعيـــدة ، اذ أنها ، باعتبارها متفرجة على النزاع الكبير بينهما فى أول الأمر ، لم تفكر فى القائدين الا على أنهما سيدان مهذبان عجوزان .

لكن سكان القصر بادروا باتخاذ مهمة هذا الشاب الرومانى ذريعة لثلب سمعة الملكة . اذن فهى متحالفة مع الرومان ، ألم تسلم لهم أسطول مصر ؟ ! لقد شغفها ضابط شاب وسيم ممشوق القـد حباً وخلب لبها ! فماذا تبقى فى جعبة الملكة العابثة ؟ الحق أن الفتاة على درجة كبيرة من القوة والذكاء والاستقلال ، بينما الغلام ، شريكها فى الحكم عاجز فى مثل سنه هذا ولا حول له وما أسهل التأثير فيه . ألم ترفض أخته فى عناد اتمام زواجها ؟ أو لم تدع هذا الزوج الصغير الغاضب أمام بابها الموصد منتظرا دون جدوى ؟ كل شىء عرفه سكان القصر . ومنذ وقت وهم يحرضون ــ وبخاصة مستشاروه الثلاثة : الخصى والفيلسوف وقائد الجيش يحرضون القصر والجيش والنبلاء والشعب على التمرد والعصيان وينجحون فى اثارتهم ضد ملكة باعت بلدها للرومان .

لا يدرى أحد كيف حدث ذلك ، ولكن الملكة ــ وهى فى الثانية والعشرين من عمرها ــ وجدت نفسها ذات يوم مجبرة على الفرار .. ولـكن أمن الواجب أن تذهب الى روما ؟ لقد طلب أبوها من مجلس السناتو ومن الشعب الرومانى أن يكون أمينا على تنفيذ وصيته .. ولكن كليوباترا الشابة ، التى لم تكن تنقاد لعواطفها عندما تـكون مصلحتها فى خطر ، ليست بالتى تقيم وزنا لمصلحتها عندما تشعر بالاهانة . أتلجأ الى الرومان ليعيدوها الى العرش كما أعادوا أباها ، الذى كانت تحتقره من أجل ذلك أساسا ؟ لخير لها اذن أن تموت بالسم ، كما مات عمها ، لو ضاع كل شىء ! .

فرت كليوباترا ، مع قليل من كتائبها الى البحر الاحمر ، حيث كان يقيم العرب وقبائل أخرى ممن درست لغتهم وخبرت طباعهم ومشاعرهم • وجندت ، بجهودها ، جيشا وقد عزمت على أن تقهر قوات أخيها ومشجعيه • أليست على دراية بضعف كتائبه ؟ أو لاتعلم أن «أخيلاس» الذى سيطر على العاصمة رجل لا عزيمة له . وهكذا تقدمت بقواتها الى بليزيوم عبر التلال تارة وعبر الصحراء تارة أخرى • وأتى أخيلاس من الغرب لملاقاتها ، حيث كانت ستدور ، هنالك فى الطرف الشرقى من مصر ، معركة فى سبيل عرش أقدم مملكة فى العالم •

مع ذلك لم تكن أنظار العالم حينذاك موجهة صوب النيل ، بل كانت مشدودة الى أرض اليونان ، حيث تلاقى أقوى جيشين • ومنذ أسابيع وهما يقتتلان مثلها ولكن من أجل غنم أعظم بكثير ! فلم يكن هنالك امرأة محاربة مع قوم من رعاع المغامرين ، بل أعظم قائدين فى زمانهما ، وليست قضية قتالهما الا السيطرة على العالم ، وفى ذلك الوقت لم تكن ثمت قوة ثالثة ، أو لم تكن تلك القوة ظاهرة ملموسة على أقل تقدير ، وبينما كان بطليموس وكليوباترا يتحفزان للقتال فى دلتا النيل ويتجسس كل فريق على الآخر ، هزم قيصر غريمه بومبى فى فارساليوس هزيمة حاسمة سرعان ما ذاع خبرها فى شواطىء البحر المتوسط . ودب الرعب فى قلوب الناس وكيف لا وقد قهر بومبى بعد أن حسبوا قهره أمرا غير ممكن • ووصلت الأنباء الى ضفاف النيل ، فانتاب الفريقان المتحاربان الفزع والخوف • وتحسسوا الأخبار وانتظروا • تعاقبت الأنباء وكلها مدعاة لمزيد من الحيرة •• وتعلم الحكومة الشرعية ، أولا ، أن الرومانى العظيم ، ومن كانت له السطوة فى السنوات القليلة الماضية فى أن يثبت أو يخلع ملك مصر ، تعلم بمجيئه الى بليزيوم ، مع ألفين من رجاله ، وهم البقية البائسة من الجيش العظيم ، يلتمس ملاذا وعونا من ابن الزمار ولما يمض على المعركة الفاصلة شهر واحد •

كانت قبلته الشاطىء ، غير أن مجلس حرب الآلهة والبشر أراد غير ذلك • فقد صمم بوثينيوس ، الخصى والـرأس الحقيقى المدبر للحكومة ، صمم على أن يقتل فى الحال الرومانى المدحور ، فيسدون بذلك جميلا الى قيصر ، سيد العالم الجديد ، وليس عليهم أن يقفوا متفرجين بينما يقتتل على أرض مصر جيشان أجنبيان • وعندما اقترب بومبى من الشاطىء خرج القائد المصرى للقائه فى قارب سريع يحيط به القتلة المـأجورون •

قالوا ان المـاء ضحل ، ولا يمكن أن تقارب السفينة الشاطىء • وترتعد كورنيللا ، وقلبها يحدثها شرا ، فتحذر زوجها • ولكن بومبى وقد أبصر الشاطىء يعج بالجنود الرومان ، يستقل القارب ، فى شىء من الصعوبة ، فالأمواج كانت متلاطمة والقارب صغير ، وكان هو رجلا فى الستين من عمره • وما أن ينزل الى القارب حتى يطعن من الخلف ، وفى الوقت الذى تراهم كورنيللا يضربون رأسه تصرخ فى جزع وتهرب • ويحتفظ القتلة برأس بومبى وخاتمه بينما يلقون بجسده فى البحر •

وتمضى أيام ثلاثة ، ينزل بعدها الى الاسكندرية قيصر ، عدو بومبى وقاهره • وفى الحال يطلب من المتحاربين أن يرجعوا بقواتهم الى معسكراتها ؛ فقد جاء الى مصر ليعيد النظام •

- ٤ -

النظام ؟ هذا ما كانت تفكر فيه كليوباترا وهى فى خيمتها •• وترتمى على وسائد ملقاة على الأرض فى فوضى وفى غير زينة •• وكعادتها عندما تكون بصدد اتخاذ قرار ، رقدت صامتة لفترة طويلة ، وهى منبطحة على بطنها ، ومسندة صدرها ورأسها الى يديها ، حتى

تستطيع أن تتنفس بحرية ، وتفكر • كان معسكرها هذا مؤقتا اذ على قواتها القليلة أن تتعقب تحركات جيش أخيها على حافة الصحراء ، غير أن حياة الجندية قوت طبيعة هذه المرأة المترجلة •

أكان يدخل عليها عاشق فى أعقاب تلك الليالى الحارة الخطرة ؟ لسنا نعرف ولا يذكر المؤرخون لها حتى ذلك الوقت مغامرة حب واحدة ، وأغلب هؤلاء المؤرخين القدماء من خصومها والراغبين فى تجريحها • الا أنه يصعب أن يكونوا عادلين بازائها هنا ، فمع العزلة وقسوة الجو والخطر ومع نضجها يبدو من غير المحتمل أن تظل أفروديت هذه عذراء حتى الحادية والعشرين من عمرها • غير أن الجانب المحارب فى طبيعتها ينحى فى فورة شبابها كل تعطش للهوى ، وسرعان ما تلبى بحرارة نداء دمها فتقبض على زمامها من جديد ويظل قلبها وعقلها فاترين •

هنالك كانت ترقد فى خيمتها ، عازمة على أن تدرك عمق الحادثة الجليلة • فهذا رومانى يحاول أن يحتل عاصمتها ، ومنذ أيام خلت وعيونها يسجلون حركاته ، وعلى مقربة منها يتربص بها أخوها : زوجها وشريكها فى الحكم من معسكره الحصين على التلال ، ووراءه الخصب والماء وهو أشد منها قوة بكثير ، بينما يحيط بها بضعة آلاف من الهمج على استعداد للدفاع عنها بحرابهم وسهامهم طالما لم يطلب منهم فقط قائد أكثر مالا أن يقتلوا الملكة ويسلموها اليه • ولسوف ينصاع أخوها لمطالب الرومانى ، اذ كيف يجرؤ مستشاروه على مجابهة أعظم القواد ، بل على مجابهة قائد لا ند له أو نظير ، يمثل أوسع الامبراطوريات قاطبة ، وليس جيش أخيها الا جماعة من المغامرين نصفهم من الرومان ! لسوف يسرع الملك الى العاصمة خاضعا ، ويقدم له فروض الولاء شأنه شأن أبيه من قبله، ويدفع الجزية صاغرا ، وحينئذ ستقبض كتائبه ، تحت قيادة القائد الرومانى ، على الملكة المتمردة وتداهمها بهجوم مفاجىء •

لكن ماذا لو ثار أهل الاسكندرية على هذا الاجنبى ؟ لقد جاء الى هنا بأربع وثلاثين سفينة فيما يقولون ، أى أن جنوده لا تبلغ أربعة آلاف ، فى حين أن جيش أخى عشرون ألفا ! ولو أمكن حصار قيصر لفترة لتعرقلت كتائبه القادمة من ســـوريا لامداده • لو أن هؤلاء الانذال الذين تركهم الملك خلفه يحرسونه ، لو أنهم منعوه من النزول الى البر ! ولكنه نزل فعلا بغطرسة رومانية واستعرض حرس الشرف وهم يســـيرون أمامه بفئوسهم **وبلطهم** وسار فى شوارع العاصمة ، على أصوات الموسيقى الصاخبة ، يتقدمهم القائد مسرعا، فى ثقة واعتداد ، وهو يلبس خوذته الذهبية • ثم وقعت الفتنة •

فكيف كان ذلك ؟ أطرقت كليوباترة مفـكرة ، وتذكرت ما رأته بالاسكندرية من زمن بعيد • أخذ بعض المهـــاجرين الرومان يصفرون ، وتراشق اثنان أو ثلاثة آخرون بالســـباب ، واجتمع عشرون أو ثلاثون منهم فعزلوا حفنة من الغزاة وقتـلوا واحدا من الرومان **الوقحاء** • ثم بدأت ، على ذلك ، تتطـــاير الســـهام ، ورد الأوباش بالحجارة • وتزايدت الفتنة تفاقما وكان فضلا كبيرا أن يصل القائد الرومانى الى القصر • لم يكن صعبا أن تسحق الكتائب النظامية جمهور المدينة ثم تعلن مصالحتهم فى الوقت نفسه ــ لينتشر السلام بين ربوعكم ! لسنا غير حلفاء لمصر العظيمة ! آه ، ويالدهشتها وقد عرفت كل حيل القـاهر الرومانى ! وياله من عار شديد يلحق بالرجل العظيم ، فبعد أيام ثلاثة فقط من دخوله الشرس يجد نفسه مضطرا الى الخضوع !

ترى كم سينقضى من الوقت حتى تكون هى فى القصر تمسك بزمام السلطة فى مصر بمفردها ؟ ولو استطاعت أن تقتـل القائد وتطرد أسطوله الى عرض البحر ، فلم لا يرجع الرومان بكل قواهم فيحيلون أرض آبائهـا ولاية رومانية ، كمـــا قضى بذلك مجلس السناتو من قبل مرتين ؟ •

وكما لو كانت تمنى نفسها ، صور لها الخيال وصول رسول آخر ، يدخل خيمتها فتهب واقفة تنتزع الانباء على كره منه • لقد أسرع الملك الصغير ، بصحبة قائده والخصى والفيلسوف ــ الثالوث الذليل ــ فحيوا القائد الفاتح بانحناءة عميقة ، وفى أدب يدعوهم الرومانى ــ الذى يمثل دور المضيف ! ــ الى الاقامة بقصرهم ، طالما أنه لا يشغل حجراته • النظام ، النظام ! فهذا مايعظ به دائما الرجل العظيم • يجب أن تنفذ وصية الملك ، وأن تسرح الجيوش تبعا لذلك • ثم ان عليه أن يذكرهم بديون الملك الراحل التى يجب أن تدفع الى دكتاتور روما • وما أن يتم ذلك الا وسيسود السلام بين الشعبين فلا أحد يفكر فى المساس بسيادة مصر وحريتها •

اذن فليقتل بالسم ، هذا ما فكرت الملكة الهاربة فيه ، وتصرف الرسول ثم تذرع دائرة الخيمة الضيقة جيئة وذهابا ، ويداها خلف ظهرها ، ورأسها ماثل فى اكتئاب ثم تنتصب الى أعلى حسبما يراودها من أفكار • ألم يكن هنالك مخرج ؟ لو أن لديها من الجنود العشرين ألفا الذين يأتمرون بأمر أولئك الأوغاد ! وبوثينيوس ؟ ذلك المجرم ؟ ألا يمكنه أن يدبر أمر قتل هذا الرومانى الآخر ؟ أو لم يكن قد فرغ لتوه من قتل بومبى ؟ فلماذا يتورع عن قتل قيصر ؟ لا شك أنه يبالغ فى الانحناء حتى ليخفى نظرته الماكرة عن الأجنبى ؟ مما لاريب فيه أنهم يتحايلون لخداعه جميعا ! فما هى الا معركة واحدة ، ويتمكن أخيلاس فى أسابيع قليلة ، من أن يحقق الغلبة على الرومان وهم قلة قليلة يمكن أن تقطع عنهم المياه •

غير أنها ستكون الخاسرة بذلك • فالاسكندريون سوف يهبون لنصره الظافر الباسل ، وسوف ينتهي بذلك كل شيء • هى تعرف أن ليس هناك الا سبيل واحد للنجاة : أن تنحاز الى الرومان ! لكن من يكون هذا الرومانى ؟ من يكون قيصر هذا ؟

وتخرج من خيمتها كما لو كانت تلتمس النور والهواء ، ولكن الظلام يكون قد حل وتهب ريح الشمال الغربى من البحر باردة فى الخريف . وترتعد كليوباترا ؛ انها تخشى هذه الريح غالبا . ويهمهم الحراس ككلاب الحراسة ، وهم يلتفون فى دائرة حول النار . ويالها من حياة كحياة الكلاب تلك التى يعيشونها كل هذه الأشهر ! بينما يتمرغ فى قصرها ، هنالك فى غرب الدلتا ، برابرة الشمال على أسرتها ذات الوسائد الحريرية الملونة . والملكة هنا تشعر برمال الصحراء فى حذائها . ومع كل هذا فهى تعرف أنه ربما يرقد بجانب النار ، الآن ، بعض المتآمرين يطمع فى بعض من القطع الذهبية لو طعنها بسكينة ! ولا تستطع الملكة أن تبصر منارة الاسكندرية النخيل والكثبان الرملية تحجبه عنها ، والعاصمة بعيدة جدا عنها أيضا . وتحس بالقشعريرة فترجع الى خيمتها ، وتستلقى ، مسندة رأسها على ذراعها الأيسر ، ورافعة ركبتيها بطريقة صبيانية . ، ثم تفكر فيما سوف تقدم عليه فى الغد .

أية سخرية ستلحقها لو استجابت للرومان ورجعت بكتائبها الى العاصمة ! وأى سيل من النداءات اللاذعة سوف يرددها أهل الاسكندرية الساخرون لو ظهر جيشها الخرافى هذا فى وضح النهار أمام الأسوار الحديثة والمجانيق ! سوف يقهقه الرومان . لكن قيصر، ما شأنه ؟ يقولون أنه يبتسم فحسب .

ومرة أخرى تأخذ فى التفكير فى ذلك الغريب . منذ شهور قلائل كان يعد مجرد مغامر . لكنه الآن يبدو سيد العالم ، وترتعد مصر أمام سطوته ؛ على الرغم من أنها لم تر وجهه من قبل . أما كليوباترا فانها كانت قد رسمت لنفسها صورة عن قيصر ، من زمن بعيد ، لا تزال تفتقر الى التحديد والوضوح ، وذلك من خلال ماروا‌ه أبوها فى لحظات صحوه ، وما قرره عنه عمالها . أما من صورة منقوشة على درهم من الدراهم الحقيرة تصلح مرشدا لغرائز المرأة

فيها • كانت أفكارها مشغولة تماما هذه الليلة بهيئة وطبيعة وقوة ايحاء الرجولة في قيصر ، تلك التي يجب أن تفهمها وتتحايل على الاستفادة منها ما أرادت أن تنجو بنفسها •

لكن ، أى افتراء وأى خيال وأية مبالغة تلك التى يرددها الأصدقاء والنساء كل عن قيصر ، وكلها متناقضة فيما بينها • فهو جد خبير بالنساء وان كان يناهز الخمسين ، وتزوج ثلاث أو أربع مرات دون أن يرزق بابن ، وهو حريص على اخفاء مغامراته العاطفية دائما ، ومع ذلك كان أول رومانى ألقى خطبة عامة فى مناسبة وفاة زوجته ، ومع أنه كامل الرجولة الا أن عارا قديما لحقه مازال ينبعث كل حين ، فقد نام فى شبابه مع الملك نيقوميدس • كما قيل أن زوجته خانته ، ذات مرة ، فى أحد الاحتفالات الديونيزوسية مع واحد من الرعاع متخف فى ثياب امرأة ، بين الكاهنات ، وعندما وجهت هذه التهمة اليها بادر قيصر بتكذيبها ، على الرغم من أنه طلقها ، ذلك أن زوجة قيصر ينبغى أن تبقى فوق مستوى الشبهات •

وتفكر كليوباترا ، أى لغز يكون هذا الرجل ؟ انه طويل ، فهذا مؤكد ، ويقولون أنه أبيض البشرة مثلى وأنه يغتسل دائما حتى فى الحرب وأن قميصه فضفاض • هو على وجه الدقة رجل ظريف وعلى قدر كبير من الكياسة وسلامة الذوق ، حتى انه ليأتى معه بألواح الرخام والفسيفساء فهو يحب دائما أن يحيا كارستقراطى ، ومع ذلك يحبه عامة الشعب • وبينما تحذر عجائز روما بناتهن شر فتنة هذا الغاوى ، يحيط نفسه بمجموعة من الشباب المتأنقين **الحسان** ويدفع ثمنا غاليا للعبيد الظرفاء ، حتى أنه لا يسمح بقيده فى دفاتر حساباته •

اذن فأى صنف من الرجال يكون ؟ ومن الذى يحبه ؟ ويا للعجب ايحبه السوقة والأحرار والصناع كما يحبه البسطاء لمايقدمه

لهم من القمح وعروض المصارعة • فذات مرة ، أمر قيصر ، قبل حلول أحد الأعياد بأن تحلق رءوس العامة جميعا دون أجر فأكسبه هـذا آلاف الاصوات ويجلس بين جنوده - في ميدان القتال - فيشاركهم خبزهم ويدعوهم الرفقاء • وكيف كان يتكلم قيصر ؟ كان يتكلم بنغمة عميقة رزينة دون كياسة وتكلف كما يفعل الحكام ودون ثناء على نحو ما يفعل شيشرون ، بل بوضوح وتلقائية ، غير أن مما يدهش الجميع ، وان لم يكونوا يفهمونه ، هو تلك السرعة التى يحصل بها على المعلومات • ذلك أن قيصر بث فى أرجاء حوض البحر المتوسط خدمه وعماله • وغالبا ما كان يصل كلامه الموجز البليغ ، الى غايته ، فيما يبدو ، فيصبح أمرا • كان قيصر كما يقولون ، أسرع الرجال فى عصره •

وكم كان يكلفه هـذا ؟ هو لا يعبأ بالتكاليف • أو لم يبلغ الشهرة فى الكرم ما بلغه فى السرعة وفى الغنى وفى شرف النفس؟ فياله من قنصل فريد لا نظير له • يقولون عنه انه ، باعتباره شابا، كان شديد الاسراف الى حد دفع بدائنيه الى منعه الذهاب الى أسبانيا ما لم يجد له ضامنا ثريا • وليوفى بديونه ، قام بنهب معابد الغاليين ، مرة أخرى ، كما أنه أخذ فيما بعد ، عندما كان قنصلا ، مبلغا كبيرا من الذهب من خزانة الدولة فى الكابيتول ، تاركا مكانه نقودا نحاسية مموهة • وهكذا ، استطاع ، بطبيعة الحال ، أن يدفع رواتب جنده مضاعفة ، وأن يعتق مئات من العبيد ، وأن يجعل من الاحتفال بتأبين ابنته حديث الناس فى روما •

وتتساءل كليوباترا : ما سر غرامه بالأولاد هكذا ؟ فلقد أعطى أرضا ، بلا مقابل ، لأصحاب أكثر الاولاد عددا • وبما أن ابنته الوحيدة ، جوليا ، التى أنجبها وهو فى العشرين من عمره دليل كاف على خصوبته ، فان عدم انجاب زوجاته هو الذى دفعه الى أن يطلقهن • ألم يغمر سيرفيليا بعطاياه من اللآلىء والاقطاعيات -

ربما لمجرد اعتقاده بأن بروتوس ابنه منها ؟ فقد كانت هذه المرأة خليلته زمنا أطول من أية امرأة أخرى •

هـذه القصة الآثمة ، التي ظلت لسـنوات احدى الفضائح الاساسية بصالونات حوض البحر المتوسط الكبرى ، هذه القصة لا تزال تراود نفس كليوباترا وهي تنظر الى الامور بتقدير عميق •

فالمرأة التي كانت تكبره بسنوات ، والغلمان الحسان يلبسون في بذخ ، وشهرته كشـاب ماجن ؛ وعجزه عن أن ينجب ابنا ، وشوقه الى هذا ؛ كل ذلك أثار في خيالها المضطرب صـورة رجل مسن قد يأسره اللطف • ولكن ألم يكن ذلك في مقدور ملكة مصر؟ وألم يكن لديهـا العجـائب من الرخام والحرير والاقداح الذهبية والمنسوجات الرائعة مما لم تره عيناه البربريتان قط ؟ فأي شهوات خفية لا يمكنها أن ترضى بهـا هذا الكهل ، في بلاط حفل بأسرار الشرق الجنسية قرونا ثلاثة ؟ أفلا تملك عبيدا من كل صنف ، فتيات وراقصات وغانيـات تثـير رؤيتهن من حواس المرء ما تثيره صنوف الاطعمة الخيالية التي كانت تعدها ؟

لكن ، ماذا لو كان قيصر راغبا عن هـذا كله ؟ وما الامر اذا لم يكن قـد سمع بغير كليوباترا ؟ ربمـا كان يرقد هذه الليلة على سريرها وبين يديه صورة لها أحضروها بناء على طلبه ، اذ لا ريب في أنهم أخفوا عنه كل صورها • ربما يكون قيصر هذا ، وهو أسرع الرجال وأكرمهم ، والذي عفا عن أعدائه ورفعهم الى مرتبة عالية ، ربما يكون هذا الروماني والديكتاتور وسيد العالم اليوم قد جاء الى دلتا النيل يبحث عن هذه الملكة الشابة التي كانت قصص كبريائها واباتها حديث روما •

ومن قبل شعرت كليوباترا ، بأن قيصر انما جاء في الحقيقة الى شواطىء مصر من أجلها لا من أجل بومبي المطارد ؛ وان لم يكن

ذلك حقا فيما مضى فهو الآن كذلك ، والا فلماذا أرسل فى طلبها ؟ لم يكن لديها ، هنا على أطراف الصحراء ، ما يطمع فيه من الثروة ، بل هنالك فى الخزانة بالاسكندرية ، هنالك الغـلال والمنسوجات والضرائب ، هناك الذهب لا هنا ، ومع ذلك فانه يرسل فى طلبها ، مرتين لا مرة واحدة فحسب ! انها الآن ترى الأمر بوضوح : كان قيصر يتوقع مجيئها ، فكل الشواهد أيدت ذلك : وعليها الآن أن تفاجئه فى صورة آسرة كما لم يفاجأ من قبل ! وكان ذلك يستوجب حرصها فللحزب المعادى عيون أكثر مما للأجنبى ، ويسـتطيع أن يحول بينها وبينه ، ويخفيها فى مكان ما ، فى احدى القنوات أو فى ظل غابة من غابات النخيل .

ونهضت كليوباترا على قدميها . فالآن أعدت للأمر عدته ، والآن تعرف كيف يجب أن تأخذ قيصر على غرة .

- ٥ -

بعد انقضـاء يومين ، كان قيصر ، فى نفس الوقت مساء ، راقدا على احدى الوسائد الفـاخرة فى القصر بالاسكندرية ممسكا لفافة من البردى قدمها اليه واحد من علماء المتحف، وهو من الفنيين اخترع آلة متحركة ، يدع قيصر اللفافة تسقط من بين يديه ويلتقط أخرى ، قلقا دون أن يسـتطيع تركيز فكره فى شىء ما . ومندفعا جيئة وذهابا فى عصبية كانت تنتابه فى ميدان القتال غالبا منذ زمن عندما يفتقد الى النساء ، وان كان اليوم أقل معاناة لها ، وهذه لفافة أخرى تحوى مختارات من الكتب المقدسة عند اليهود ؛ قدمها اليه بالأمس عالم من العلماء ، وهى مختارات من الترجمة اليونانية التى شغل بها فريق من علماء اللغة لفترة طويلة .

ذهب من قبل الى المتحف مرتين ، وأعجبته القاعتان بشموخهما ونوافذهما الحديثة وبنائهما الذى كان من طابقين ، وأرضهما الخضراء يضيئهما ضوء يسقط من أعلى · هنــا كل شىء مرتب فى احكام ، خزانات الكتب الرحبة ومئــات الآلاف من مجـــلدات البردى التى اشتهرت بها مكتبة الاسكندرية هذه ، أعظم مكتبات العالم · ولكم كان كل شىء هنا عمليا : البطاقات تتدلى من الرفوف مبينة عناوين الكتب ، والموضوعات المتنوعة مرتبة ترتيبا ضروريا ، كل شىء يسهل العثور عليه فى سرعة نادرة · والمنارة أيضا هى أشد منارات العالم شموخا ، بمرآتها الضخمة ، التى ينعكس ضوءها متجسما فى قوة، والبويزيدون على قمة البرج ، وكل هذه القصور والشوارع المستقيمة المتقاطعة فى زوايا قائمة ـ كل ذلك كان يوازنه قيصر ، فى دهشة صامتة بفوضى روما القديمة · هنا تعلم فى اسبوعين أمورا كثيرة ·

غير أن جثة الاسكندر الاكبر كانت أعظم ما رآه · لقد سرق التابوت من زمن بعيد ، ولكنه عندما دخل المعبد ورفعوا أمامه الغطاء البرونزى ، رأى الاسكندر مسجى فى كفن بلورى ، متحللا قليلا ، تحجبه أقمشة ولفــائف بانعـــكاسات الزجاج القديم الفضية ـ الرمادية ـ رأى الاسكندر راقدا فى نســـيان رفيق ، لا يزال بالغ العظمة ، جديرا بعد قرون ثلاثة لأن يصبح مثلا ساطعا لرومانى طمـــوح · فى رؤية الاسكندر الاكبر ما يســـوغ الرحلة الى مصر ويجعلها جديرة بالاعتبار ·

ولقد ظل يسائل نفسه أياما ، لماذا لا يستعد للرحيل · الآن تبين له ما أصبح معروفا للجميع ، فلكم كان ضعيفا ، مع شهرته ، هنا على الشاطىء الغريب ، بين نظرات الملك الصغير المخيفة ونظرات مستشاريه الماكرة ، والهمس الذى يدور كلما نزل السلم، والفضول الشديد فى عيون العبيد · فماذا لو أن الجيش البطليموسى الكبير كان يستعد للانقضاض عليه دون أن يدرى ، هو يسيطر على الميناء

فعــلا ولــكن من يضمن له أن الاسطول الاجنبى لن يستعد عند بيليزيوم ، ليحاصره ، باشارة من الخصى ، بين المنارة والقصر ؟ وأى أمان هنا مع فرقة واحدة وقليل من السفن ؟ لماذا لا يبحر بعيدا ؟ وماذا يريده من مصر ؟

الذهب ـ أجل ! فالملك الراحل كان مدينا لجماعة من أغنياء الرومان ، وان كان قد أنقص دينه هذا الى أقل من النصف . غير أن قيصر فى احتياج اليه . وبقدر ما كان انتصاره على بومبى عظيما لم يجد فى معسكره ذهبا . وكان فى حاجة الى الذهب ليدفع رواتب كتائبه ، فهم لن يسروا لشرف الانتصار فحسب . كما أن قيصر كان يميل الى تبرير انتظـــاره الطويل ـ أمام نفسه على الأقل ـ بتوقع الحصول على المال .

بيد أن مرءوسيه كانوا يهزون رءوسهم : ولقد تحقق بنظرته الثاقبة وحسه المرهف من أمرهم . ماذا ؟ ألهذا سلم المصريون اليه رأس بومبى فى احتفال ؟ كان قد أرسل خاتم هذا القائد الى روما مع أسرع رجاله ليدرك هذه النهاية المريعة أعضــاء السناتو واحدا واحدا ، وليضع الجميع فى اعتبارهم أن يبقوا على عهد الغالب العظيم وصداقته . أما رأس عدوه ، الذى كان أكبر منه سنا ، والذى كان صهرا له يوما ما ، فان قيصر أودعها معبدا كان قد نذره لنيمزيس . كان قــد تعقب الهارب الى مصر ، وهناك وجده قــد قتل . والآن لا يريد غير المال ثم يرجع الى روما !

أكان أحد يدرى ؟ بل أكان هو يدرى سر تباطئه هنا يوما بعد يوم . من الضرورى أن تحسم مسألة تركة الملك المتوفى ، وأن يسود السلام بين الأخ وأخته . ولكن أكان يأخذ الأمر هكذا مأخذ الجد لو كان الوارث الآخر أخا لا أختا ؟ فى هذا المساء كان قيصر قلقا ، كما كان منذ أيام ، وأحس بالحاجة الى النساء . غير أن أولئــك اللاتى أبصرهن فى القصر جعلنه يشعر بالبرود والازدراء . وفى الميدان ـ

والآن ربما دائما ـ كان من المحتمل أن يقبل كل ما يقدم له • لكن ما الذى يوجد الآن هنا ؟ لقد خبر كل شىء ، ولا بد من شىء جديد ، شىء غير عادى لاثارة هذا الرجل ابن الخمسين • فترى أين يمكنه أن يجد بغيته ؟

استرجع بالأمس حديثه مع الأبيقورى • على المرء أن يسلم نفسه لحاضره ، وأن يجرع الكأس المقدمة اليه ، وأن يضاعف ساعات اللذة • وعليه بعد ذلك ألا يخشى الموت أبدا ! لم يكن قيصر يخشى الموت مطلقا • أما الحياة ؟ أفلم تكن تنساب من بين أصابعه طوال سنوات الحرب ؟ وأين قضى حياته ؟ عشر سنوات بين « الغال » و «الجرمان» ، بين بضع مئات من قبائل هزم بعضها وصالح البعض الآخر ، كان الهجوم يعقب الهجوم ، والقلاع تخطط وتبنى واحدة اثر أخرى ؛ كم من قناطر ، وكم من طرق ، وكم من بلاغات وخطب ومع ذلك فثمت معركة أخرى ! أتلك غاية الحياة ؟ أن يفوز المرء ، فى الولايات ، بالسلطة التى يمارسها فى روما ؟ ولابد ـ فى النهاية • من أعياد شعبية جديدة ومن رشوة يدفعها للضباط والبريتورز(١) Practors ليكسب الجماهير والسناتو الى صفه ـ ولا يتبقى فى النهاية بين الأعداء المتصارعين غير واحد فقط • وأخيرا يحدث الصراع ، ويسقط بومبى ، ويتحقق الهدف •

ويالها مأساة أن يصل المرء الى الغاية ! لقد تساءل عما اذا كانت النتيجة قد ساوت حياته ؛ وعما اذا كان العالم والشاعر اللذان تحدث اليهما بالأمس ، لم ينالا من النصيب أفضل مما نال .

---

(١) وظيفة البريتور نشأت عام ٣٦٧ ق•م وتتعلق أساسا بالعمل القانونى وتنفيذ سلطة القناصل فى المحاكم ، ثم كان شاغلها ينوب عن القنصل فى غيابه ومن عام ٢٢٧ ق•م اصبح البريتور حاكما للولايات) [انظر كتاب كوويل •ف•ر « شيشرون والامبراطورية الرومانية » ص ١٧٣ ـ ١٧٥ المترجم •

ويحدث قيصر نفسه ، أية خبرة جديدة ، غير منصورة ، تلك التى كانت تنتظره فى روما . جوقة المتملقين، وجعجعة النصر وضوضائه! Tediam vitae لك الثناء وطول العمر ، وتنتابه أفكار ساخرة حول فساد الذمم ، ومفاجآت البشر ــ وهاهى رأس بومبى العظيم شاهد على ذلك ! الآن يلقى المنتصر سؤالا بغير معنى : والآن ماذا بعد ؟ ..

لكن ، هناك على حافة الصحراء ملكة شابة لن تخفق فى مكافأته لو أعادها الى العرش . لم يعترف قيصر ، حتى لنفسه ، كم كان فضوله لرؤية هذه الحسناء المترجلة ، لكن العاشق الخبير لاحظ فى بدنه العجوز أعراضا غير مألوفة : أحس بشىء من الاعياء وبشىء من الهياج ، وبألم فى فخذيه ، وباختلاج فى جفنيه، وباستياء صامت وهو يشعر من زمن طويل بخمود رغبته الجنسية ، مع أن وجده لا ينتظر غير شرارة حتى يشتعل . كان قيصر يرقد هنالك فى حالة مزاجية لا تخطئها غريزة المرأة : حالة الشك والضيق والضجر . ولكن الباب ينفتح الآن ، ويدخل عبد طويل ، لعله جندى . وعند الباب يتباطأ ، فقد كان يحمل على كتفه لفافة عظيمة . ترى ماحقيقة الأمر ؟ أعلن الحاجب أن بالباب رسولا أحضر لقيصر سجادة ثمينة، هدية من الملك بطليموس . أكان ثمت خطر قادم ؟ وتلقت نظرة قيصر المتسائلة اجابة صامتة . هنا يأمر قيصر الرجل أن يدخل ويفض السجادة ، ثم ينظر مترقبا . وفضت السجادة أمامه . وأشرقت منها كليوباترا .

لم تكن هذه القصة من نسج الخيال . فهى التى رواها بلوتارك . كلا ! ليس هذا خيالا ، ذلك ما يحدث به الرومانى نفسه وهو يهب لمساعدتها على النهوض . وكونه تعرف عليها فى الحال مرجعه ذلك الحلم القلق الذى قدرته كليوباترا . ولم تأخذها الدهشة أن سألها سيد العالم ، بفضول باسم ، من أين وكيف

جاءت • واخبرته الملكة كيف حملها هذا الخادم الأمين ـ أبوللودوريوس ـ حول الدلتا ، وهربها خلسة عن طريق الاسطول، ولفها في السجادة ، ثم حملها أخيرا على كتفيه القويتين الى الدرجات المؤدية من رصيف الميناء الى القصر ، مارا بالحارس الواقف أمام الباب وهاهي الآن هنا • وابتسمت ثم صرفت عبدها المطيع •

لم يسمع قيصر كل ما نطقت به ، كان ينصت الى نغمةصوتها فقط • لم يفكر ، من نوره ، كجندى ، في احتمال أن يقتل دون حماية • لقد رأى فقط حلما تحقق : رأى السحر والذكاء ؛ رأى الابتسام وسمع الصوت أنغاما ، رأى الجرأة والخيال ، ورأى ، فوق ذلك ، أحلى ثغر أبصرته عيناه • انها ليست بطفلة فها هو صدرها النابض تحت ردائها الحريرى ؛ ومع ذلك فربما تكون طفلة ، فيالسحرها المضاعف • وهى اذ تهز جدائل شعرها ، وتمط جسدها قليلا لتطرد التعب عن أطرافها المتصلبة ، يبدو له أن افروديت قد هبطت على الارض متجسدة في هذه الملكة الاسكندرانية أخيرا ، تبدو له كليوباترا الهة صغيرة تعرف ـ دون ريب ـ كل أسرار الحب في الحياة الدنيا •

واذا كان الفوز تحقق لها بهذه السرعة ، فلأنها نسيت نفسها، ولأن معرفتها الفطرية الغامضة بفنون الغواية والاغراء فارقتها وهى تجد نفسها أمام الرجل • في القارب كانت تفكر كيف يمكنها أن تقف أمامه ، وفي الحركات والايماءات ، لكنها لا تقوى الآن على القيام بدورها • نسيت الملكة ـ في الحقيقة ـ أنها ستكون شعثاء حال خروجها من السجادة ، ولشد ما كانت دهشتها كان الرجل ، في الواقع ، قليل الشعر الى درجة ملحوظة • غير أنها تغاضت عن ذلك ، ما أقوى سطوة العاطفة التى تشع من هاتين العينين السوداوين ، ولكم دل الفم الدقيق ، الآمر في صمت ، على الرجولة، وخداه النحاسيان على الحزم ، في حين كانت رقبته تنتصب في

خيلاء فهي تحمل رأس قيصر • جذبها كل شيء في هذا الرجل ؛ نظرته المتسائلة في اصرار وشذاه الطيب يفوح من جسده ، والآن ، وقد جلس كلاهما بجوار الآخر ، وبعد أن تبادلا النظرات الحائرة أول الأمر ، هدأ روعهما فأخذ كل يفحص صاحبه بجرأة ووضوح، وابتسما ، كليوباترا في شيء من الجرأة وشيء من الوجل ، وقيصر باعتباره ظافرا • ولاحظ كلاهما جمال أسنان الآخر •

- ٦ -

في صباح الغد ، عندما ارسل قيصر في طلب الملك الشاب ، ظهر بطليموس الصغير ، وعلى رأسه التاج ، يضرب الأرض بقدميه في هياج قادحا في اخته التي نظرت اليه ، باسمة في ازدراء وشمم، من غرفتها العالية ، وصرخ معلنا خيانتها • وهذا كله علمه اياه الخصي بوثونيوس ، فمنذ انقضاء تلك الليلة ، كان جميع من في القصر ، حتى أقل حمال ، يعرفون ماحدث ، بل ربما اكثر مما حدث • ووجد الغلام من السهل أن يتظاهر بالثورة والغضب ، فقدكان في الرابعة عشرة ويعرف أن بوسعه ممارسة الحب برغم ما يشعر به من صد دوما طوال عشرته لها في القصر • والآن رأى زوجته الشرعية في موقف مريب ، مع رجل يمكن اعتباره جدا لها ، وفوق ذلك كان أجنبيا غازيا • وفي حالة الهياج النفسي الذي داهمه اذ ذاك لم يكن محتاجا الى نصح الخصي ، وفي نهاية اللقاء القصير ، ألقى باندفاع تلقائي ، تاجه على الأرض ، في يأس، واندفع خارجا لا يلوي على شيء •

وفي الحجرة العالية كان قيصر وكليوباترا لايزالان يبتسمان ، عندما سمعا في الخارج صيحات ممثلي الشعب المحترفين ، وترتفع

الاصـــوات عنفا وهياجا ، ووجدت ثورة الجمهور في هذا الشعب متنفسا لها • هنا أعطى قيصر الاشارة وتسلح ثم وقف في النافذة ودعا الناس الى اجتماع بالجمنازيوم في اليوم التالى •

سمعت كليوباترا صوته وعجبت للهجة اللامبالاة التى تكلم بها • وعندما رجع لم تسأله عما سيفعل ، فقد شعرت انها أمام رجل لا يجب أن يسأل • ثم رأته ، فوق ذلك ، يصـــدر أوامره العاجلة ؛ ينبغى أن تحرس شقتها ؛ وأن يرجع بالملك الصغير الى القصر ، وأن يستدعى بوثونيوس فى الحال • ترى ، ما الذى يدور بخلده • وتتساءل الملكة وهى بمفردها • كان التاج موضع نزاع ، وكان قد دعا الناس فى الغد الى اجتماع كبير •

ومع ذلك كانت تطـــوف ، فى بطء ، بردهات القصر التى استبدلت بها ، مكرهة ولمدة شهور ستة ، خيمة قارصة البرد فتمر بيديها بين الوسائد الدافئة ، وتشعر ببرودة المقاعد المرمرية ، وتشم رائحة الأبواب الأبنوسية ، وتلمس بأصابعها نتوءات الزمرد المنظوم ، وتمر بيديها على مقابض الابواب ، فى رقة وملاطفة • وهى الآن تأخذ بين يديها أحد التماثيل الصغيرة لأفروديت ــ تلك الآلهة التى تؤثرها من زمن بعيد ــ وتلمس استدارته البرونزية ، فتنساب يدها تلامس جسدها فى نشوة ، وقد أرضتها هذه الموازنة فابتسمت. هذا الصباح تكشفت لها نفسها أمور كثيرة لم تكن تنتبه اليهـــا تماما قبل أن يلمسها الرومانى ، لقد وجدته رجلا واسع الخبرة غير مسن ، حازما ، شهما واثقا بنفسه عندما يخاطب الناس ، رقيقـــا غير ولهان سيدا فى غير الحاح ، صموتا ذا مروءة وكياسة وشاكرا الى حد يبعث على الدهشة •

ويا للمغامرة ، استلقت كليوباترة فى حمامها مفكرة • وفجأة بدأت تضحك ؛ فكيف حملت الى قصر والدها ملفوفة فى سجادة ،

وكيف وجدت بين يديها سيد العالم الأوحد فأيقظت فيه رجولته وحيويته ـ تذكرت ذلك كله بدهشة متجددة فضحكت مع أنها كانت وحيدة ، وهي لا تزال بعد ، بالنسبة لمغامرة كهذه ، صغيرة تتطلع الى مزيد من المعرفة • وما هي الا هنيهة حتى تكف عن الضحك وتستعيد رزانتها فتتساءل عما يخبئه الغد • وما الذى يحدث لو رحل هذا الغريب بسفينته ثانية ؟ وماذا لو لم يرجع أبدا ؟ ولو بقى فى مصر فمن سيكون الحاكم الفعلى ؟ لم لا يطرد أخاها المزعج ؟ كانت السلطة فى خطر وفى مصر كانت السلطة تعنى الحياة • وتصمم كليوباترا على أن تضبط عواطفها •

اتخذت كليوباترا زينتها • حقا ، لم يكن الوقت قد حان بعد لاقامة مأدبة ، فاليوم يقدم قيصر لها فحسب ضباطه : أولئك الرومان الذين عاثوا فى مصر فسادا من قبل والآن يقدمون لها الولاء والخضوع هنا فى قصرها • ولقد بدوا لها فى حالة من الغرابة والاضطراب ؛ اذ لم يكن أحد فى الاسكندرية يدرى أى القوى المتصارعة تحكم مصر ، حتى الرومان لم يكونوا متأكدين من ذلك • وما بدا فى غسق الأمس خياليا أخاذا ، ظهر فى وضح النهار وكأنه قد أصبح فاترا أو بلا معنى ، ولقد سألت نفسها • كم من الناس سيضحكون فى صمت ساخرين من الأمر كله •

وفى المساء ـ عندما دعت قيصر بمفرده الى مائدتها ـ ألفته ظريفا لكن فى تحفظ ، وبالصدفة البحتة أخبرها أنه سوف يقرأ فى الغد على الشعب وصية ملكهم الراحل ويعيد الأمر الى نصابه • ولكى لا تظهر فى الاسرة الحاكمة أحزاب جديدة سوف يعيد قبرص الى الأخوين ، وبهذه الهبة سوف يبرهن على صداقة الرومان لمصر• ذلك كل ما فى الأمر • ومرة أخرى يبدى اعجابه بثيابها الحريرية التى جاءت بها من صيدا •

دهشت الملكة ، ولم تقل شيئا . وأين لاقت ارادتها العاتية مثل هذه المعاملة ؟ لم يكن لأبيها سلطان حقيقى ، ومن ثم كانت تحتقره . في مبدأ الأمر كانت تستمع الى نصائح وزرائها ، ولكنها وقد تبينت غباءهم وغفلتهم كانت تتخذ بنفسها قراراتها الخاصة. لكن الرومانى الذى يجلس الآن فى مواجهتها ، يواصل النظر اليها من خلف طبقه الذهبى ويحدق فيها بعينيه السوداوين الثاقبتين — هذا الاجنبى لا تزال تجهل مقاصده — قد أنبأها بقدرها كما لو كان سيدها ! ترى هل استمد نفوذه وامتيازه من حاميته الرومانية القصيرة ، التى تحرسه وتحرس الميناء الآن؟ أم استمده من شهرته، أم من خضوعها له ؟ ولاذت بالصمت ، وكان هو ، بالطبع ، على وعى بذلك ، ولم يقاطع أفكارها . ولو أنها قارنت بين قراره وتقديرها الخاص لاستطاعت أن تتبين عدم امكانية أى قرار آخر . ولكن أن يخبرها بكل ذلك بدلا من أن يسألها عما تراه — فان هذا كان أكثر مما تطيق . ومرتين همت بأن توجه سؤالا اليه ، ومرتين ماتت الكلمات فى حلقها ؛ وطالما لم تنبس ببنت شفة فانها قابلت نظرته ، المستفسرة المتسائلة ، بابتسامة .

- ٧ -

اقتحم العدو يعكر صفوها ويقاطع شدو نشيدها . فما كاد قيصر ينهى بصعوبة الاعلان الفاتر ، فى الجمنازيوم حتى استعد القصر لاحباط مسعاه . وينتقم الخصى بوثونيوس لنفسه فيذيع ، سرا ، أن الملكة ما هى الا عاهرة أسلمت قيادها لعشيقها الرومانى ، وأن قيصر الشهير هذا صنديد فى المضجع رعديد فى المعارك ، وأن

رجاله ما هم الا قلة مستضعفة لا طاقة لهم على القتـــال • وماهى الا ضربة واحدة ، وتتحرر مصر على أثرها من روما الى الأبد !

وبما أن قيصر لم يكن ليجرؤ على مهاجمة جيش أخيلاس فى شرق الدلتا ، ولم يشعر بأنه على درجة كافية من القوة فى العاصمة تمكنه من خزانتها ، فانه أرسل رسله الى بلنيزيوم ، باسم الملك الشاب ، يأمر بتسريح الجيش فى الحال • ويجيب أخيلاس على ذلك بقتل الرسولين والزحف على الاسكندرية • وذات صباح وقف أمام العاصمة جيش قوامه عشرون ألفا من المشاة والفان من الفرسان ، وبعد أن استولى على ضواحى المدينة ، أصبح سيد العـالم مقطوع الصلة بقواته وعليه أن يقبل كرها معركة على شاطىء أجنبى بعيد يخوضها ضد جيش يفوقه خمسة أضعاف • ام يكن قيصرمسيطرا الا على ربع القصر ، وعلى المينـاء ولديه أسطول صغير ، وذلك فى مواجهة عداوة الملك الشاب والخصى بوثونيوس • وواصل الخصى مكائده بين الشعب ورجال القصر •

وذات يوم وضع على مائدة قيصر أوانى وأقداحا خشبية ، وعندما نظر اليه قيصر متسائلا هز اكتافه فى استهجان : فقد أخذ الضباط الرومان كل مافى المدينة من ذهب • ولأنه أوحى حينئذ بقتل قيصر بالسم أثناء احدى الولائم وحذر قيصر حلاقه ، فان قيصر قضى بأن يقتل فورا دون ما ضجة ، وأخذ يراقب الملك الشاب • وفى الوقت نفسه ارسل الرسول بعد الرسول الى شواطىء البحر المتوسط يطلب التعزيزات •

ولا يمضى وقت طويل الا ويدرك أنه قد أسقط فى يديه • قطع المحاصرون المياه عنه من ناحية وسدوا من ناحية البحر المدخل الضيق للميناء . وعندما حاول اقتحامه فقـــد كثيرا من رجاله القليلين فكان هذا أكثر مما يطيقه • ومع ذلك استرد آنذاك شبابه

لحظة الخطر وأمر باحراق السفن ! وعند المنارة احترقت تسعون سفينة مصرية ، وما أن يحل وقت العصر حتى تكون النيران قد امتدت الى المكتبة ويحترق كل ما تعلمته الدولة وتعلمته روما من الاسكندرية ، أنموذجها الأعظم . التهمت النيران منبع الحكمة والجمال الذى جعل من البحر المتوسط معلما للأجناس والشعوب آلاف السنين • ولكن أكان قيصر جنديا من البرابرة نال سلطانه بالقوة الغاشمة وحدها ؟ أو كان زعيما من زعماء الاحزاب بليدا معاديا للعقل ؟ كلا ، بل كان قيصر أذكى الرومان جميعا ، وقيصر تشرب الروح اليونانية ورضع لبانها لكى يعلو بنفسه فوق أقرانه من العظماء وليصبح اسمه خالدا مرادفا للسلطان والقوة •

دمر قيصر ، غير واع ، الركيزة التى كان يستند اليهـا وهنالك كان العلماء والشعراء ، واقفين فوق التل من وراء القصر ، أذرعهم مرفوعة فى رعب وهلع ، هنالك رأوا الاربعمائة ألف مجلد • رأوا أعظم مكتبات الارض قاطبة ، وسند معرفتهم الخالد ، وكنز حياتهم الباطنية ، رأوا مكتبة الاسكندرية تلتهمها النيران دون أن يملكوا لها دفعا • ولم يكن لدى قيصر وقت يفكر فيه فى الأمر • كان حاضرا وفى كل مكان • وتنشب فى الميناء الخارجى معركة بحرية • ويقف قيصر فوق احدى السفن مصدرا أوامره وتصـاب السفينة فيهرب من فيها فى القـوارب • ويزدحم قارب قيصر فيغرق • وها هو الآن يسبح متجها صوب قارب آخر ، ممسكا أهداب عباءته الأرجوانية بين أسنانه وبيده اليسرى ينقذ بضعة مجلدات ، من الماء بأى ثمن ، هكذا كان يسبح بيده اليمنى ، تعـوق العباءة حركته فيغطس فى الماء ، بين الحين والآخر ، متجنبا قذيفة تقترب منه ، لقد كافح ما استطاع وكان لا بد أن تسقط العباءة آخـر الأمر ، ولكنه لا يزال ممسكا بالمجلدات عندما يلحق جاهدا بقارب آخر ؛

ويفر قيصر فى الحال ، كأفضل ما يكون ابن الخمسين خفة حركة ورشاقة فى هذه الظروف العصيبة ٠

دخل قيصر القصر وقد خسر المعركة وغرق أربعمائة من رجاله٠ وانتشل الاسكندرانيون عباءته الارجوانية من المياه وعلقوها على خطاف أحد القوارب ٠ وفى الوقت نفسه تشيع نذر السوء ؛ فقد قيل ان اتباع بومبى ، بعد الصدمة الأولى ، وقد عرفوا الآن ما يحيق بقيصر الظافر ، يحتشدون تحت قيادة أبناء بومبى ٠ فبدلا من أن يواصل الدكتاتور الجبار هزيمة ما تبقى من قوات خصمه ومنافسه بعد النصر العظيم ، أنهك قواه ، على حافة الصحراء ، وفى قنوات النيل ، بل فى الشوارع أيضا فى حرب عدو من صنعه ، عدو كرهه ولعنه ومع ذلك كان عاجزا عن الخلاص منه ٠

وذات صباح يكتشفون اختفاء أرسينوى فجأة ٠ هذه الأخت التى نصبها قيصر ملكة على قبرص فرت ليلا مع عشـــيقها ومدبر أمرها جانيميد ؛ وهنالك يسدد لجيش العدو طعنة قاسية فيقتـل أخيلاس ٠ ويبدأ الطرفان يتفاوضان كسبا للوقت ، فى حين تأتى الأنباء معلنة أن الامدادات قادمة فى الطريق ٠

شيئا من صبر : فالنجاة قريبة ! وأخيرا ، يصبح فى مقدور قيصر تطويق الجيش المصرى ومهاجمتـــه من كلا الجانبين ٠ والآن تصبح الغلبة للرومان : فى قنـــوات النيل وفى الخلجان وفى كل منعطفات الدلتا ٠ وتصل السفن مطفئة أنوارها حتى لا يشعر العدو بمرورها ، وترسو فى المستنقعات بين دلتا النيل ٠ وعلى هذه الحافة النائية دارت رحا معركة حامية يوما بعد يوم ، وتراجعت قوة مصر المنهكة فى برابى المستنقعات أمام سيوف ومجاديف الجنس الفتى ، ويغرق الملك الصغير فى النيل بعد أن جعل نفسه شجاعا فى اللحظة الأخيرة ، ويغطس بسبب درعه الذهبية الثقيلة ٠ وعادت أرسينوى الى القصر أسيرة بعد أن قتل آخر مستشاريها ٠ ثم يدخل قيصر الى

الاسكندرية ثانية · هذه المرة خر المواطنـــون على وجوههم أمام صولجانه وعقبانه ، وهم يرتدون ملابس الحداد · وانتهت الحرب بعد أن استغرقت الشتاء بطوله · والآن حل الربيع ·

- ٨ -

فى ذلك الشتاء ، استطاع قيصر وكليوباترا أن يعرف كلاهما الآخر · وقد أعلن قيصر للخلف من بعده فى عبارة وحيدة ســجل فيها اسمها ؛ وجاءت فى رسالته عن « حرب الاســكندرية » ، وقال :

« أعاد قيصر التاج الى الملكة كليوباترا لأنها أخلصت له وظلت وفية على الدوام بجانبه فى مركز قيادة جيشه » ·

بهذه الكلمات الفاترة ، التى كتبت ، بيد تحسن استخدام القلم كما تحسن استخدام السيف ، فى تقرير الى مجلس السناتو والى الشعب والى التاريخ ، حيث يخلد به المؤلف ذكرى القائد ، بدأت أول فصول رواية انبعث منها عالم جديد ·

رأى قيصر كثيرا من النساء : كورنيلا الجميلة ، التى كانت فيما قيل ، الحب الوحيد فى شبابه والتى عرفها وهو فى السابعة عشرة ، وفقدها فى الثالثة والعشرين ، وبومبيا اليانعة ، حفيـــدة « صلا » والتى خانته مع كلوديوس ، وسيرفيليا الشرهة التى هدت كيانه حتى أوشك على الانهيار ؛ وكالبيورينا النبيلة ، التى عاش معها وشاركها نبلها لسنوات عشر ، كما عرف مصـــادفة زوجات أعضاء فى السناتو وأميرات أجنبيات ورفيقات حرب ، سيطرت عليه احداهن بفنون هواها ، وأخرى بخفة روحها وثالثـــة بموسيقاها

ورقصها وأخريات بذكائهن وشجاعتهن ؛ وربما تقلب من الواحدة الى الأخرى لأن تلك الصور تقارب غالبا صورة شبابه الحالمة ٠

وللمرة الأولى ، هنا وقيصر يخطو نحو الكهولة ، تواجهه رؤيا غاية فى الدهشة لم تهيئه أحلامه لها من قبل ، فتلك امرأة تجمع المتناقضات بقوة جنسها ٠ كانت ذكية ، حاذقة ، جريئة وماكرة ، ولديها لكل خطة تخفق ما يربو على ثلاث أو أربع بديلا عنها ٠ وهى فى المعارك والاخطار ثابتة الجنان لا تنساق مع الهوى ٠ وينقضى اليوم فتتحول الى حد أن تصبح امرأة أخرى ، وهى اذ تقفز من فوق حصانها وتنزع عنها خوذتها ، تبدو وكأنها من جنس آخر ٠ كانت امرأة فريدة ، فلو أراد قيصر أن يعرف كيف يصل من احدى القنوات الى أحد فروع النيل ، فبقدرتها أن ترشده الى ذلك ٠ ولو سقط جواده ولم يعجبه ثان وثالث فيمكنها أن تجد رابعا يفضل حصانه الأثير عنده ٠ ولو أن قبطانا لم يدر ما يفعله بأشرعته الثقيلة دلته على مكان أمين يحفظها بداخله ٠ ولو حاول مجلس الحرب أن يعرف حقيقة مقاصد رجل يسعى لتقديم معونته كانت تدرك حقيقة شخصيته ٠ وكان بمقدورها التعرف على راكب جمل على حافة الصحراء قبل أن يتبينه أى واحد من الرومان ٠ وعلى مسافة ألف خطوة تشم السفينة فتعرف ما اذا كانت شقوقها مسدودة بقطران يونانى أو رومانى ؛ وهى اذ تنبطح على الأرض تستطيع أن تقدر ، من اهتزاز الارض ، قوة فرسان العدو ٠ وما هى الا أيام تنقضى فى الميدان حتى اعتاد على النظر حوله كمن يستمع الى صوت أبن من ابنائه الأبطال ، وتمر أسابيع قليلة فتغدو رفيقة للقائد ووزيره وقاضيه وعينه ، بل ومستشاره أيضا ٠

وتأتى أيام أكثر هدوءا فيلقاها امرأة أخرى ؛ هى ربة بيت تمسك مئات العبيد فى منزلها بيد حازمة ، كما تحكم مليونا من رعاياها ولقد راقبها اذ ذاك من بعيد ، ورأى كم كانت قراراتها سريعة وعادلة - بقدر ما تسمح به رغبتها فى الانتقام ؛ ورأى طاقتها الموفورة ، وكيف كانت مستعدة على الدوام لأى طارىء بنفس القدر الذى تستلزمه قدرتها الفائقة على تصريف الأمور . رآها وقد أصبحت ملكة ، باردة كزوجة أحد الفراعنة .

وفى الليل لا تكون كليوباترا هذه المرأة أو تلك ، فهى تصلح ما أعده عبيدها دائما ، وبقليل من المصابيح والسجاجيد تحيل خيمة ، كتلك الخيمة التى يسكنان فيها عند نهاية الحرب ، بل قد يحتل القصر كله ، والذى كان منذ ساعات قليلة قلعة محاصرة حصارا شديدا ، تحيله الى مكان ينسى المرء فيه كل ارهاق ومشقة . أما قيصر ، فانه بدمه الجوليانى الذى يعزوه الى فينوس ، كان يحس كما لو كان قد تبدل ؛ اذ قد أصبح الآن ابنا لمارس تماما ، ولم تكن غير فينوس هى التى حلت منطق سيفه . وبسرعة غريزية أجاب جسدها ما كان يطلبه رجل مترف صعب الارضاء ، كقيصر ، وهى تفوقه شهوة واشتهاء . غير ان صفو لياليها كانت تعكره فى الغالب صرخة أو اندفاع أو ربما مجرد طرق على الباب ، وما من أمن أو ضمان فى أسوأ هذه الأسابيع والعدو على قيد مئات الخطوات من القصر .

كانت الأشياء الحقيقية التى جمعت بينهما برباط وثيق هى : الخطر اليومى ، وفكرة السلطان التى كان كلاهما يدافع عنها ، هنا وفى روما ؛ وتهديد القدر ، الذى لا يصرفه غير البسالة ، كان ذلك نشوة لهما ومتعة قد تؤدى بهما الى كارثة ؛ والانصات الدائم لصوت العدو يقترب منهما ، والأمل الدائم فى العون الذى لا يسمعان خبرا

عن اقترابه ؛ وضوء الحياة الخالق الذى لم يلمع أبدا بكل تألقه ؛ بل كان دائما على وشك الانطفاء فى عاصفة ، ليتوهج مرة أخرى بشدة متزايدة • نعم ، كانت تلك هى نغمة الحرب التى جمعت بين أعظم القادة وأشد نساء عصرها غرابة ، فى جولة لا عهد لهذا الرجل المسن بمثلها ، ولن يكون من حظ هذه المرأة الشابة أن تعهد مثلها مرة أخرى •

هذه النشوة الروحية ، التى تصاحب دائما نشوة الجسد ، وهذا التعارض بين روحين جريئين ، وان كانا ، برغم ذلك ، مدعاة للدهشة على الدوام ، أدى بكل منهما الى أن يمعن النظر فيما كان يحكمه من امبراطوريات ، وأن يفكر : الى أى حد يمكن لحطام هذه الامبراطوريات أن يتحد • ودون أن يعلن قيصر عن أفكاره شعر بأنه يحلم بأن يصبح اسكندرا آخر ، وتريث قبل أن يفكر بامعان فى امكان تحقيق هذا الحلم ، الذى وان كان راوده من قبل ، الا أنه بدأ الآن يتحقق ، هنا فى مدينة الاسـكندرية ، ومع هذه المرأة الشابة العجيبة التى جاءت تحتفى به كآخر ملكة يجرى فى عروقها الدم الهيلينى • ودون أن تكشف كليـوباترا عن أفكارها فهمت ما يدور فى ذهنه ، ونسجت فى خيالها المتأجج ، وفى انموذج جديد حازم ، الخيوط التى كانت تربطها بروما على الدوام رباطا غريزيا؛ ذلك الرباط الذى كانت تنظر اليه غالبا بعين الشك والكراهية ، حتى انبعثت فى النهاية عن حلم العاشـقين صـورة امبراطورية عالمية •

ومع ذلك فان غرامهـا كغرامه ، بعيدا عن طموح كليهمـا ومنزها عن أى غرض عيانى ، قد نما فى لحظات نسيان الذات حيث

تكتمل الشهوة ويقترب الحب من الكراهيـــة وتتخذ الروح قرارا بينهما • كانت كليوباترا ، كما لو كانت احدى اناث الخيل الوحشى، قد حملت فى لحظات اللهو فحسب راكبا لتلقيه بعيدا فقط وتنساه فى رجوعها السريع حيث الهواء الطلق والحرية • فالنظـرة الحالمة التى حلت الآن محل النظرة الباحثة المتطلعة ، والنفس الهادىء ، وهذا الاسترخاء الصامت لقصر المسن قد أيقظ فى قلبها عواطف غير مألوفة ، كانت اللحظات التى ظل فيها سليل الآلهة هذا بجوارها قد جعلتها ، فجأة وعلى غير انتظار ، أنضج مما تـكون بسنوات • وتسائل خيالها الحالم عما اذا لم تكن فى الحقيقة ابنته •

وكما توقعت أن تتذوق ـ وهى لا تزال بعد شابة صـــغيرة جدا ـ عذوبة الشهوة ترشفها امرأة مجربة فكذلك أحس قيصر ــوقد تأثر بحيويتها ـ وكأنه قد عاد الى نشوة صباه المبكر ، الى أيام شبابه كما هو شأن كليوباترا الآن • وكشفت هذه النشوة الخفية عن نفسها ، مجاوزة العالم الأرضى كما لو كانت تطفو فوق السحاب، فى غسق الأجناس والأجيال ، وفى الأحلام المبدعة لاثنين من المحاربين وفى الشعور السابق بخطط السيطرة على العالم وامتلاكه •

وينقضى الشتاء فتخبره بأنها سوف تلد له فى الصيف غلاما• فتلقى قيصر النبأ بفيض من العاطفة ويبتسم ، فى غمرة ارتباكه ، ثم يسألها كيف يمكنها التأكد من أن الوليد سيكون طفلا ، حينئذ نظرت اليه مليا فى هدوء واتزان وأعادت عليه قولها ، فى وضوح وتحديد قاطعين ، بأن القادم سيكون ولدا ، وليس الذكر كالأنثى •

الآن ، وقد أوشكت الحرب على نهايتهـــا ، أعادها قيصر الى عرشها • كانت شريكة أخيها الأصغر فى الحكم • هو طفل بلا حول، نودى به ، وفقا للتقليد الفرعونى ، زوجا لها • وكانت أرسينوى سجينة قيصر ، وقد كرهتها كليوباترا من كل قلبها ، لأنها جرأت على أن تمتدح نفسها بأنها ستأخذ العرش عنوة • كانت ملايين الذهب حاضرة ، وكانت مصر ، التى ربما يعلنها الدكتاتور ولاية رومانية ، لا تزال مستقلة ، ومع ذلك فهى حليفة لروما بصورة أقوى مما كان يحلم به أشد مواطنيها غطرسة ، فملكة مصر على وشك أن تلد ابنا لعشيقها الدكتاتور الرومانى •

ولأن الشتاء قد انقضى ، وهدأت العواصف ، جاءت السفن الرومانية الى مصر على عجل تلبية لنداء قيصر • ترى ماذا كانت الأخبار ؟!

كان العالم ينتظر قيصر • فروما وايطاليا وأثينا ـ كل مدن البحر المتوسط فى رغبة أو رهبة من قدومه • وكانت المقاعد التى هجرها أنصار بومبى شاغرة ، ومجلس السناتو مهجورا ، ومئات من كبار الموظفين وأعضاء السناتو مختبئين عند أصدقائهم فى مدن الساحل الصغيرة • كانت آخر دلائل الأمان تبدو وقد اختفت من ايطاليا ، اذ لم يكن أحد ليعرف من هو صاحب السلطان الحقيقى ؛ وكيف كان يدبر أمر تلك السلطة • أكانت روما لاتزال جمهورية ؟ وأية سلطة جديدة سيطالب بها الدكتاتور بعد نصره الساحق ؟ حقا كان أنطونيوس ـ ممثله فى روما ـ يحاول أن يفرض "النظام بالقوة ، ولكن من يستطيع القول بما اذا كانت قوانينـــه ولوائحه قد صدرت فى الحقيقة عن سيده الغائب أم لا ؟ كان الاثرياء لايزالون

على درجة كافية من القوة ، والارستقراطيون عقدوا العزم على أن يستفيدوا من الشقاق الحاصل فى حزب قيصر الشعبى ، طالما كان غائبا عن روما على الأقل •

هنا كان قيصر يقيم فى قصر أجبنى ، والآن يقف أمامه رسول يعرض آخر ما ورد من رسائل ، ويصف آخر رحلته بينما يستمع قيصر دون اكتراث ونادرا ما يفتح شفتيه الرقيقتين ليلقى اليهما بسؤال • استمع قيصر الى أن أنطونيوس ودولابلا ، وهما أخلص أتباعه وموضع ثقته ، قد تحاربا فى الفوريوم لأن أحدهما سرق زوجة الآخر ، وكيف أن تماثيل قيصر كانت تقام فى أنحاء ايطاليا كلها ، كما استمع أيضا الى أن أبناء بومبى ، ومعهم كاتو ، وهو أخ لحليلته ، يتسلحون الآن للثأر لهزيمتهم فى فاراساليوس • وكيف أن آلاف الجنود قطاع الطرق كانوا ينضمون الى العدو ، لأنهم فقدوا الأمل فى استلام رواتبهم المستحقة لهم ، والأرض التى كان يجب توزيعها عليهم ، لأن القائد الذى كان مدينا لهم قد اختفى فيما بدا • ظهر العالم بحق وكأنه بغير حاكم يدبر أمره • كان ينبغى أن يظهر قيصر أمام نفسه مثل زيوس ، زيوس الذى هجر أوربا ، والآن يقص عليه ايروس كيف أن الناس هنالك داخلهم الفزع واختلط عليهم الأمر وأسقط فى أيديهم فقد شلت ارادتهم من ضوء سطوته •

ومع ذلك ، فلكم حارب طويلا ، كجندى مناضل ، من أجل هذه المرأة ، ومن أجل السلطان ، وعيناه دائما على الفوريوم ، وعلى دار الكاهن الأكبر منذ أن سطعت شهرة الاسكندر فى سماء شبابه كنجم الشمال ، لكى يصبح السيد الأوحد هناك غير منازع لا يشاركه فى السلطة قنصل آخر ودون رقابة من أمناء بيت المال والبريتورز وأعضاء السناتو المئتين والمحامين لا يحصيهم العد ، كل أولئك الذين يحاسبونه باسم الجمهورية ! ذلك ما كان يهدف اليه وها هو المكان

معد له الآن ، وفى انتظاره مقعد السلطة الملكية لا ينقصه غير اسم العرش فلمـــاذا التردد ؟ لماذا لا يبحـــر الى الوطن على اسرع سفنه •

بعد انتصاره فى فارسالبواس مباشرة ، وفى أوج تألقـــه وشهرته العالمية يذهب بفرقة واحدة من جنوده يطرق قارة أجنبية كمجرد مغامر • كان من الممكن له أن يهلك ولم يكن اذ ذاك ليتبقى من قيصر شيء اللهم الا بقية من ذكرى • وفى الشرق يتزوج قيصر من جديد لأنه كان فى أول الأمر قلقا فضوليا ثم لأنه أحب بعد ذلك•

لكن ، ما الذى يمكن أن يعوقه عن أن يرسل المحصول الآن الى بلده ـ روما ؛ روما التى لا تقوم بدونها شهرة حقيقيـــة أو سلطان ؟ أذلك بسبب كليوباترا ؟ أبسبب هذه المرأة التى افتقدت نصف سحرها بسبب الحمل ، وشهرا بعد شـــهر أصبحت ثقيلة الخطو ؟ أو ليس بوسع النسوة الخبيرات ذوات النعمة والترف أن يساعدنه على الهرب منها ، الآن ، فى الوقت المناسب لكى يحتفظ بصورة أفروديت نقية من غير شائبة ؟ فما الذى يمنعه من الاسراع نحو بلوغ قصده ؟

لم يكن شيء ليمنعه ، سوى انتظاره لوريث يخلفه • لقد صمم قيصر أن يرى ابنه الموعود بعينيه قبل أن يغادر شواطيء مصر • ولكنها ، وهى الواسعة الحيلة والدهاء ، دائما ، لم تعدم الوسيلة حتى لا يتسرب اليه الملل فيزداد ، فى هذه الشهور الثلاثة ، قلقـــا بجوار امرأة يغدو خطوها متثاقلا رويدا رويدا ، فأعدت الملكة مركبا ودعت سيد العالم ليصحبها فى رحلة نيلية •

- ١٠ -

كانت السفينة الملكية « تالاميوس » قصرا عائما لم يقدر لأى من الفراعنة أن يمتلك مثلها بهاء وروعة • ففى قاعة الولائم كانت النقوش الممثلة لأشجار الأرز والسرو تكاد تكون أشجارا حقيقية على ضفاف أقدم أنهار الدنيا • وفى كل بقعة على ظهر السفينة كان ذوق الملكة الجمالى مسيطرا ، كان كل شىء اغريقى الطابع ، تماما كما كان أسلافها الاغريق يتخذون الطابع الفرعونى أيام الاحتفـــالات القليلة فحسب ، وهنالك ، كانت افروديت وديونيوسوس فى معبد جدرانه وارضه كلها من الفسيفســـاء ، وفى غرفة نوم قيصر كان هنالك افريز يمثل مناظر من الالياذة ــ لتحفز البطل الى مزيد من الانجازات • وهناك مقاعد فخمة لكل ساعة من ســـاعات اليوم ، وحديقة صغيرة ، ومظلة من الكتان تظلل السفينة بأكملها فتمنع حرارة الشمس المتوهجة الآن أيام الربيع فى هذا البلد الجاف ، ومع كل يوم من أيام رحلتهم جنوبا • ولقد كان بصحبة هذا المركب عبيد وفتيات راقصات وممثلون ، هزليون وتراجيـــديون وأكثر الطهاة خبرة مجهزون بأدواتهم التى تثير الخيال •

بعض هؤلاء على ظهر المركب وهى مبحرة والبعض الآخر فى قوارب صغيرة • أعدت الملكة كل ما كان من شأنه أن يحرك مشاعر صديقها المكدود وأن يثيره ، فوقت فراغه ينبغى أن يكون عيدا •

ولقد كان نصرا لها أن تنجح فى أن يسمح قيصر لنفسه بفترة من الراحة لأول مرة فى مهمته المتلاحقة اللاهثة التى دامت طويلا • واستطاعت بغريزتها وعبقريتها أن تجد من الوسائل ما تنعش به على الدوام روحا دائبة الحركة ، بما يبعدها تماما عما ألفتـــه من وسائل واهتمامات فى الحياة ،الى حد استطاع معه أن يتحمل شهورا

قليلة من الكسل • وفى الوقت نفسه كان عليها أن تقدم غذاء لذهنه المتوثب القلق ، فلهذا صحب السفينة علماء وباحثون جاءوا اليها من مختلف مدن الصعيد الصغيرة لكى يفسروا للرومانى ما غمض عليه من أمر مصر •

لقد كان اليوم الواحد يمر عليه ولا يصدر فيه أمرا يوما غير متسق مع مألوف حياته ؛ لهذا لم يكن ليستطيع أن يتحمل ثلاثة أيام فى مثل هذا الكسل المحبب الى نفسه والذى قضى فيه شبابه •

لم تكن لدى قيصر ، تتبعه اربعمائة من القوارب النيلية وبضعة آلاف من الجنود ، لم تكن لديه أدنى رغبة فى مهاجمة أحد أو فى الحاق الهزيمة بأحد • لكن من يدرى فأية مفاجآت يدخرها له أعراب الصحراء ، وأى المحاولات قد تتم للقبض على هؤلاء المسافرين الباعثين على الحيرة ؟ ففى الصعيد ، كان هنالك أمان وضمان أقل مما كان منذ ألف عام ، أيام طيبة العظيمة •

من الاسكندرية الحديثة حتى الحدود النوبية شاهد قيصر فى هذه الرحلة تاريخ مصر كله مبسوطا أمامه ؛ ذلك أن النيل كان هو مصر • ويلاحظ ـ بحيرة العبقرى وبما للمجرب من روح النقد ، يلاحظ ، فى غير اكتراث ، النهر الأسطورى ، وكيف ينبع ويصب، واتساعه ومجراه وارتفاع ضفافه المتباين ، وكيف يمكن فى أقصى أركان القطر تعيين كمية الحبوب التى يتم حصادها ، والضرائب والبيع والشراء الذى جعل مصر بلدا غنيا • وعندما وقف فى مقدمة السفينة ، رأت عيناه فى الحال قناة مهملة معطلة ، ولكنه أخفى عن الملكة ابتسامته التى يرقبها بها ، وهى تقسم كأحد الجنود ، وتطرد المسئول عن هذه القناة • كان قيصر قد بنى ، فى الشمال وحتى بريطانيا ، كثيرا من القناطر والسدود أثناء حملاته ، فقد كان يهتم

بمشاكل القناطر ودواليب المياه والمراقى الأرشميدية • وبما أنه لا يوجد بلد أكثر اعتمادا على مهارة وذكاء حاكمه تماما ، مثل هذا البلد غير الممطر ، فان رجالا ذوى عقل بنــاء ، منذ أيام رمسيس ويوسف ، قد شحذوا ملكاتهم الابداعية لحل مشكلات المياه ، ولم يكن قيصر آخر من يهتم بها •

ويشعر قيصر بأنه لن يكون آخر من يهتم بذلك • وهو عندما رأى ، تحت سفح الاهرامات ، نهاية الطريق الذى سلكه الاسكندر من معبد آمون الى النيل ، أحس بأنه قد عثر على مكانه فى دورة مقدارها أربعة آلاف من السنين ، وأخذته الدهشة وقد وجد نفســه قريبا من الاسكندر • ولاح أنه يقتفى آثار خطوه فى الحقيقة • وبدلا من أن يتضاءل نفوذ الاسكندر السحرى وقيصر يترك مدينته ، فانه يتزايد ، على العــكس من ذلك ، مع كل يوم من أيام الرحلة جنوبا • وأمام الأعمدة الشــامخة لآمون واوزيريس تأخذ قيصر الدهشة بعظمة المهندس المصرى فيتساءل : كيف أمكن أن ترتفع هذه الأعمدة الضخمة بغير آلات • وحيث يقترب البطالمة من أشكال الاغريق ، فى معبد ادفو ومعبد فيلة يحيى الرومانى مثاله العظيم من جديد ويعد هذا فالا حسنا •

ولقــد تأثر قيصر بكل ما قصه عليه الكهنة ، باليـونانية ، والفلاحون الذين أرسل فى طلبهم ، من خلال التراجمــة ، وكان يتســاءل على الدوام : كيف يمكنه أن يحـكم هذا البلد ، وأى التحسينات يمكن أن يدخلها عليه لو كان يحكمه فى الغد • كانت أسماء الأقوام الذين ساروا من قبل على الطريقين العظيمين بين النيل والبحر الأحمر توجه فكره فى طريق الهند ، ومرة أخرى تتجدد أمام ناظريه صورة الاسكندر الفارسى ، وفى لحظة تالية رأى فارس كعدو تقليدى وتمثلت له رؤيا كراسوس ، الذى سمح لنفسه أن

يلقى الهزيمة ، هناك تمثلت له رؤيا اللغز الفارسي كله . ولكنه يعود حينئذ الى أساليب التجارة المصرية ، فى قمة ازدهارها ، يوما اثر يوم ، وهم يتابعون رحلتهم عبر النيل ، والى التفاصيل العملية لثروة مصر التى تثير ذهن هذا الفرعون الحديث ، وكانت الطريقة التى ثبت بها السرج فوق الجمل الذى ركبه جديرة بملاحظته وذلك مثل دولاب الخزاف الذى رآه فى احدى القرى فوق طيبة ، حيث كانت تتشكل الجرار التى ترفع المياه الى الحقول ! بدت هذه الرحلة النيلية ، التى انتزعت القائد والدكتاتور من مهامه العادية الآن تماما ، بدت لقيصر باعتبارها درسا عظيما عن الحياة الشرقية .

- ١١ -

كان قيصر أيضا ، مع ذلك ، ضيفا فى هذا البلد ، وكان يعرف ما هو مدين به للملكة هذا القصر العائم وقد جلست بجواره بعد وجبة فاخرة مع ضباطه ، بين وسائدها ، فى جانب السفينة ، تلاحظ الألوان المتغيرة لغروب الشمس عبر الصحراء الليبية عندما شحب ضوء النهار وتضاءلت حرارتها ، وهى متدثرة بشال فى عناية وحرص ، هنالك كانت ترقد فى وضعها المحبب منذ الطفولة وتدير ذقنها بين يديها . وتجيل عينيها الثاقبتين فى الرجل الصامت الذى كان يجلس على وسائده محاولا أن يخفى عنها ما لم يكن قد اعتاده من صلع فيرفع رأسه . حينئذ عرف أنها كانت فى انتظار قصة .

وربما يكون ، فى هذه الأمسيات ، قد قص عليها قصة حياته كلها ، فى مقتطفات يختارها بالطبع اذ كانت هنالك فى ذهنه مناطق مستورة عن هذه المرأة التى يوليها مثل هذه الثقة العميقة

وربما كان يسألها عن أحد الاطعمة الفاخرة التى قدمت فى وجبة عشائهم. وربما يكون قد أخبرها حينئذ بالطبع كيف أنه ـ زمن الحرب الاهلية ـ قد أكل هو ورجاله جذور نباتات وظل لأيام لا يذوق فيها طعم الماء لأن بومبى كان قد قطع المئـونة عنهم ، كان هذا قبيل معركة دراشيوم ، وهى المعركة الوحيدة التى خسرها فى حياته ، وكيف أن الكتائب جاءت الى خيمة القائد ترجوه أن ينزل عقابه بها ، وكان ذلك أمرا جديرا بالاعتبار ، وتسرح الكتيبـة التاسعة كلها عقابا لها ! أكان هناك دائما عصيان وفتنـة ؟ أجل فى بعض الاحيان ، كذلك الذى حدث فى سيسيليا • ولقد نزل اليهم وصاح فيهم قائلا « لستم الا مواطنين مدنيين ، الحرب ليست هى بضاعتكم ! » ولكنهم صاحوا بدورهم : « انما نحن جنود » •

وتتساءل الملكة : أكانوا يحبونه ؟ أجل ، طالما كان منتصرا وهل كان هو يحبهم ؟ كان يحب البعض منهم ، يحب الرجـل يأتيه بملء خوذته من الماء البارد العذب •• نعم ! أظهر الرومان فى الشمال المقفر ما كانوا يستطيعون القيام به • ولقد ظلوا معه فى بلاد الغال مدة عشر سنوات • دون أن يهزموا ، ونادرا مـا تذمروا وقليلا ما شعر بالحاجة الى أن يعاقبهم ، طالما كان المـرء يعطيهم خبزا وأحذية ، ومن وقت لآخر نساء ، فهم يقنعـون ويثقون بقائدهم ، بشرط أن يروا قائدهم يحارب معهم بنفسـه عند الخطر ، كما حدث مثلا ، فى معركة ضد النرفيان أو فى ايبيروس أخيرا •

كان قيصر لا يفتأ يذكر بومبى من حين الى حين • ولم يكن حتى الآن قد استفاد من نصره بأقصى ما يستطيع • هل كان قد بلغ من الكبر مبلغه ، غدا بالغ الطراوة واللين ؟ أو يجب على المرء أن يعتزل الخدمة الشاقة فى الجيش عندما يبلغ الخمسـين ؟ كان بوسعه أن يفعل أى شىء عقب ذلك الانتصـار ، وحتى معركة

فارساليوس كان من الممكن تجنبها فى تلك الحرب التى خلت من المعـارك تقريبا • كان الحظ قد أفسد بومبى تماما • كان غنيا دائما وذائع الصيت دائما ، كان نبيلا بين النبلاء ، وهكذا سار كل شيء وفق ما تمناه ونال كل شيء • على حين أن قيصر كان غير محظوظ على الدوام ـ ذلك ما كان يناجى به نفسه أمام كليوباترا وفى كل خطوة يخطوها كان يصطدم بالمجتمع الرومانى، وفى كل أمر من الامور يجد نفسه مضطرا الى الاعتماد على الشعب ، وفى ألم شاق يصعد السلم درجة درجة حتى أنه بلغ الاربعين منعمره قبل أن يصبح حاكما لولاية من الولايات ، ويالها من ولاية بائسة ، بين البرابرة ! ولكم كان بومبى هو المحبوب الوحيدوالمدلل عند الآلهة والسناتو • كانت تمر على قيصر أوقات غيظ واستياء تحرمه من النوم • ولقد تقدمت به السن ولم يعد بعد سيدا لروما ! فهل سيقضى حياته فى منازعات حزبية ، كأولئك المحامين والمغامرين كان ذلك الأمل والتفكير فى الاسكندر الذى تحقق له النصر وهو صغير ، كان قد ملأ عليه قلبه ذلك المساء • ألم يكن منذ سنوات ثلاث مضت حينما وقف فى بلدة « ريمنى » مترددا نصف ساعة قبل أن يعبر نهر الروبيكون : أكان ينبغى عليه أن يخاطر فيزحف الى روما أم لا • كان ذلك يعنى أن يصبح عدوا لوطنه ! أجل ، أجل • وحتى لو لم يكن قد اقترع بشأن هذه المسألة ؟ لكم كان أعضاء السناتو يسخرون منه ! أفيأمل قيصر فى هزيمة بومبى العظيم ؟ لم يكن « أمبيان Ambian زعيما لقبائل السويزونيان القابعين فى غابات البلوط بأرض الشمال • !

أرادت أن تعرف ما اذا كان قد استشار كاهنا فى مبدأ الامر • وابتسم قيصر فقد كان وحيه الذى يستلهمه انما يكمن فى قوة جيشة ، فى عدد فرسانه ومهارة رماته وقوة مؤخرته وتنظيم امداداته • أما كهنته فهم قلة من الضباط الابطال • وأما أنطونيوس

فانه أفضلهم جميعا ! وعندما غادر أنطونيوس روما وهو متنكر فى زى أحد العبيد ، ليلحق بقيصر وراء نهر « الريبكون » قدمه قيصر الى كتائبه ليملأ الجنود سخطا على الحكومة التى حملت رجلا شجاعا على الهروب فى هيئة كهذه !

استمعت كليوباترا اليه · كان ثمت رنين معدنى فى صوته وهو يتكلم عن هروب أنطونيوس ، ويعاوده الحقد القديم ،والكراهية القديمة للأحزاب وهو يقص قصته · الاحزاب ! ـ هو لا يستطيع السيطرة عليهم لأنه كان فى حاجـــة اليهم ، ومن قبل سألتــه كليوباترا عنأنطونيوس ، وكانت دائما تسطععيناه ويكون لها بريق، لقد بدا أن بامكان قيصر أن يتغاضى عن عيوب أنطونيوس التى لم تكن تنفصل عن فضائله · ولأن أنطونيوس كان ثانى اثنين من الرومان رأتهما من قبل فى صباها ـ فانها لم تشأ أن تتكلم عن الآخر ، وهو ابن لومبى ، طالما كان للفارس أنطونيوس فى قلبها هذا الانطباع العذب الجميل وهى فى الرابعة عشرة منعمرها ، وأرادت كليوباترا أن تعرف عنه المزيد ، أن تعرف حقيقته . كان قيصر يتكلم عنه دائما كما يتكلم عن ابن قوى عنيد ، يغفر له حياته المنطلقة المتمردة فداء لاخلاصه وبسالته ؛وبينما يكون قيصر متحفظا فى مدحه فانه لا يذكر أنطونيوس الا بخير ·

وعندما سألته ما اذا كان بوسع أنطونيوس أيضا أن يصبح ملكا ، أجاب بنفى قاطع · فانطونيوس ، كرجل ثان ، يأتمر بأمر قائد قوى ، لا يكون له نظير ، لكن أن يكون قائدا أعلى فلا يملك لذلك الصبر ولا الهدوء اللازمين · لم يكن هذا الرجل يعرف الوسط فحرم لذلك ثقة الناس ، بل من الممكن أن نؤكد أنه يعربد الآن فى روما يعفـــو وينفى باسم قيصر ، وفقـــا لهواه ، أو وفق ما توحى به

سيثيريا الجميلة ، وربما يكون الآن محمولا معها في شوارع روما فوق محفة يجرها أسدان أليفان !

واستمعت كليوباترا ، ويصبح صوته مرحا ، كما يحدث أحيانا نادرة • غير أنها لم تكن تبصر قيصر أمامها فى هذه اللحظة بل ذلك الرجل الآخر أنطونيوس ، الذى شغلها فى صباها كثيرا برأسه الباخوسية ، والذى تتمثله الآن يحكم روما وفق هوى مغنية • أزوج من الأسود ؟ وفى محفة ؟ •• أية حماقات تلك فى روما ! ربما تخبىء الحياة في قرارها كل الامور •• وربما لا يكون لها فائدة لرجل فى عمر قيصر • لكن قد يحدث لها كل شىء ، الآن أو فيما بعد ما دامت صغيرة هكذا .. هى الآن فى بدء حياتها ، ولكن عندما تكون قد وضعت طفلها فلربما تبدأ مرحلة تالية من جديد ! هنالك فى المقابر الصخرية ، حيث لا تزال تتوهج آخر أشعة الشمس ، ترقد ملكات مصر ، فى لفائف من الكتان ، ربما كانت حتشبسوت قد تنزهت ، ذات مرة ، فى وادى النيل فى هودج يجره زوج من الأسود الأليفة وبرفقتها الكاهن الأعظم ، وبينما يسجد الناس أمام ايزيس المبعوثة فيها كان عاشقها المقدس يمسح على ركبتها فى ملاطفة ، لكنها كانت تضبط نفسها ولا تبتسم •

ولا يمكن لقيصر أن يدرى الى أين يسوق الخيال المشتعل فجأة هذه المرأة الحامل ، لقد لاحظ شرودها وسأل نفسه عما اذا كان أنطونيوس قد عرف ــ منذ سنوات ــ طريقه الى قلبها • لماذا سألته عنه للمرة الثالثة ؟ حقا ، كان يصغره فى الواقع بعشرين عاما تقريبا !

وينهض قيصر ثم يذهب الى مقدم السفينة •• ويرى فى السماء نجمه : هنالك تلمع فينوس التى انحدر منها أسلافه •

وتناجى كليوباترا نفسها ، وهى وحيدة فتقول : « يبدو كأن قدره المرتقب يتحرك من خلاله كما يتحرك طفلى فى أحشائى » .

أو لم تصل لكل الآلهة داعية أن يأتى وليدها القادم ابنا ؟ ربما يجب الاستفسار وفق عادة الفرس ، وقيصر مشـــغول الآن بفارس . كان صامتا للغاية فى الأيام القليلة الماضية . وينتاب المرء أحيانا الظن بأنه لم يفطن بعد الى ما ينتظره من عبء ثقيل ومن سلطان ، ثم اذا به يبتهج فيبدو حينئذ كما لو كان قد استعاد شبابه ، ولكنه يغدو كئيبا مرة أخرى كما لو كان خائفا من أن يعاوده مرضه ٠لقد انقضت شهور ستة لم تفاجئه خلالها نوبـة واحدة ، ربما لا يعدو الأمر كله مجرد وهم باطل . غير أن المرء لا يعرف هل هو يفكر أم يحلم فقط ٠ فى بعض الاحيان كان يتمتم ويكرر النطق بالاعداد ، وأوقات أخرى يصمت ربما لنصف ســاعة كاملة ، حتى دون أن يتطلع الى الشـــاطىء ٠ ترى ما الذى كان يدور بخلده فى هذه اللحظات ؟

« فى الليلة الماضية ، كان يئن من كابوس الى أن أيقظتــه برفق فاستيقظ وحدجنى بنظرة قاسية ، وعندما أفاق وضع يده على جسدى ٠ وتمتم بشىء ما ، لم يكن بدافع الادب فحسب عندما سأل الطبيب عن التاريخ ، ثم قرر حينئذ أن تطول الرحلة فهـــو يريد أن يحمل ابنه بين يديه ، فقد كان يعد له أمورا عظيمة ٠

ولكن هل صحيح ما يقال من أن أبناء الرجال المتقدمين فى السن يولدون أضعف من أبناء الشباب ؟ ان الولادة الاولى تكون صعبة فيما هومفروض : وقد تودى بحيـــاة الام ٠ سوف يبذل الطبيب عناية تفوق طاقة البشر ، فهو يعلم أنهم سيقتلونه لو مت أثناء الولادة ٠ وما الذى سوف يفعله أبناء أخت قيصر فى رومـا لو ظهر وارث حقيقى ؟ لو يذهب قيصر دون أن يرجع فسيكون لزاما أن يوجد أب للطفل . ولكن أى قلق هذا بغير نهاية ! ان

قيصر يريد فى الحقيقة ابنه ، فكيف يهجر الطفل وأمه اذن ! فلم يوجد منذ ألف عام طفل فى رحم أمه وكان ينتظره مصير كهذا المصير ! » •

ويا للغرابة ! يتابع قيصر التفكير ، وهو يقف فى مقدمة السفينة ، ثمت أوقات ، تأتى كليوباترا فيها بايماءة أو حركة من يديها ، تماما كما كانت تفعل كورنيليا منذ ثلاثين عاما • وفجأة يراها فتاة تشبهها • لم تكن كورنيليا عندما وضعت جوليا أكبر سنا من كليوباترا • وكذلك أيضا زوجة الاسكندر •• هى لم تكن بالطبع أكبر منها • أكان هؤلاء النسوة أصغر جدا من أن ينجبن أبناء أقوياء ؟ لو طال عمر جوليا ابنتى وظلت زوجة لبومبى لما نشبت الحرب الاهلية • لكن هل كان ذلك أمرا مرغوبا ؟

كان بومبى محظوظا الى أبعد مدى، حتى موته المفاجىء يحسد عليه • كان محتملا أن يغتاله أحد قبل ذلك بشهور ، عندما كان لا يزال فى أوج عظمته وسلطانه . اذ ذاك لم تكن لتوجد بالطبع معركة فارساليوس لكن ما الذى يرغبه المرء حقا ؟ أن يولد فى مركز القوة والسلطان ! وألا يجاهد عشرين عاما تقريبا . يشترى أصوات الناس ، وأعضاء السناتو والنساء ، لكى يصل فى النهاية الى القمة وقد أصبح منهكا أصلع الرأس ، يابس الاطراف وتفتح المانيا وبلاد الغال ، فوق ذلك كله ، فلقد حارب قيصر فى ثلاثين موقعة هناك وبعد تسع سنوات رجع الى وطنه منتصرا ظافرا • ثم ماذا كان حديث روما بعد ذلك كله ؟ كان عن اقصاء شيشرون ونفيه !

أن يولد المرء وفوق رأسه تاج ! وأن يصبح ملكا فى الثامنة عشرة ! حينئذ يكون فى مقدور واحد كالاسكندر أن يمتلك العالم وهو ابن الثلاثين •

ويحدق قيصر فى الظلام ، وهو واقف فى مقـــدمة السفينة ، ويواصل تأملاته .. يبدو كما لو أنها لا تدرك أن الناس جميعـــا يحنون رءوسهم أمامها . وان ما جبلت عليه من سيادة لا يمكن أن يعادله نجاح شخصى . أو ليست هذه الممالك الحارة بأسعد من جمهورياتنا الباردة ؟ ومع ذلك لم يكن جدها الذى جعل من نفسه ملكا على مصر هنا ، لم يكن سوى ضابط عادى من ضباط الاسكندر وهل يتعلم أى طفل فى المدارس تاريخ موقعة واحدة يكون قـــد كسبها . غير أن حفيدته لا تزال جالسة على العرش نفسه الآن وبعد ثلثمائة عام !

نعم ، على المرء أن يفعل شيئا حاسما وأخيرا . ان التـــأليه أمر رخيص مبتـــذل ، فضـــلا عن أنه لا يلزم أحـــدا ؛ كما أنه يتعلق بســـماء مجهـــولة لنـــا ، وينقطع متى رغب المرء فى ذلك ، حتى أبناء الآلهة كذلك ليس هناك من ضـــمان لاحترامهم وتبجيلهم . ومع ذلك لا يعـــرف حتى الآن قائد مؤله أقام أسرة حاكمة . فى حين ينظر الناس الى التاج على أنه بـــاق ودائم ، وميراث ينتقل من الاب الى الابن فى تعاقب منتظم ، وفى تسلسل خالد أزلى . ألم تكن قد أقسمت لى بأن المولود القـــادم سيكون ابنا ؟ واذا لم تلد حقا ابنا .. أى ملكة فى العالم كله أعرق دما ، ومن أسرة أكثر مجدا وبريقا وأكثر شهرة وأوفر غنى من هذه الاغريقية هنا فى مصر ؟ أو يجب علينا أن نبحث عن أمهات أولادنا بين « السيجـــامبرى » قدامى الجرمان الغـــلاظ ، أو بين « البكتس » قدامى الاسكتلنديين العابسين ؟ لا ، يجب أن يكون سيد العالم الجديد من دم شرقى ، من خيط الاسكندر ! وسوف ينتقل سلطان روما الى الشرق . يجب أن يضم الشرق والغرب تاج واحد ، حتى وان يكن هذا التاج من حديد ! سوف يلزم لتربية الابن عشر ســـنوات ، لا أكثر من ذلك . فعلى أرض مصر هذه تسطع

فينوس فى رقة وعذوبة . ليلة بعد ليلة · نحن آل يوليو ننحـــدر جميعا من سلالة الآلهة فحسب . وسوف يكون ابنى من نسل ملك ! وعلى المرء أن يفعل شيئا حاسما نهائيا ·

- ١٢ -

كانت كليوباترا وقد بلغت عامها الثالث والعشرين ، بعـد أسبوعين من عودة القصر العائم الى الاسكندرية ، تضع أبنا فى قصر آبائها : ذلك الابن الذى وعدت حبيبها به · وأسمته قيصر ، لكن أهل الاسكندرية أطلقوا عليه اسم « قيصرون » وفى الســجلات عرف باسم « بطليموس قيصر » · وسجلت كليوباترا ، شـــأنها شأن الفراعنة منذ خمسة عشر قرنا مضت ، كيف أن الاله آمون ظهر لها كقوة مخصبة ، وكيف ابتهجت الآلهة لمولد هذا الطفـــل الجديد من اله · أما الكهنة ، فقد أخبروا الناس بأن آمون قد حل فى شخص الرومانى الأكبر ، فى شخص قيصر الذى ينحـدر من أفروديت ، وذلك لكى يلقى ظله على الملكة المقدسة · ويضحك أهل الاسكندرية فى شك وريبة ، وكانت تلك قصة تتناقلها أفواه العجائز والأطفال ·

ربما يكون الوالدان قد تبسما والكهنة يرفعون اليهما اعلانا لتوقيعه قبل أن يذاع على الملأ · لكن قيصر لم يبتسم عندما جاء ابنه الى العالم ، فان نصف خطط عام من التدبير كانت تعتمد على مولد هذا الطفل وجنسه . ولقد ظل بجوارها حتى أيقن أنها نجت من الخطر · وينادونه لكى يعود سريعا الى روما فقد تجاوز أنطونيوس بنزواته كل حد ، وبدا كل شىء فى حالة من الفوضى والانحلال ولكن عليـــه قبل أن يرجع الى روما أن يدبر أمره مع الفرس فى آسيا الصغرى ، هؤلاء الذين كانوا يحاربون قواد الرومان كما كان

أبوه قد حاربهم ذات مرة . وترسل أرسينوى الى روما ترسف فى أغلال الأسر ، وهنالك يجب أن تظل سجينة حتى يحين موعد موكب انتصار قيصر . وتبقى فى مصر ثلاث فرق رومانية يعهد بها قيصر الى عبد طليق دون أن يترك معها أحدا من كبار الضباط أكانت هذه الفرق تمثل الحراسة أم الحماية أم التحالف أم العسف ؟ هذا أمر يعتمد على اتجاه الملكة وحدها نحو روما .

وعندما تركها قيصر بدت لناظريه صغيرة كعهده بها كما كانت وهى تنهض على قدميها من السجادة المبسوطة . والآن يترك ابنه معها رهانا وعهدا . ولقد اتفقا على أنها ستلحق به فى روما فى السنة القادمة ، لكى تعقد هى وزوجها الشرعى ، الصبى بطليموس ، مع الشعب الرومانى والسناتو حلفا مقدسا . كان قيصر ، فى نظر الكهنة ، زوجا لها أيضا ، برغم أن ظرفاء الاسكندرية كانوا يكتبون على الجدران نكاتهم عن آمون الرومانى هذا . فلقد ذهب البعض الى القول بأن مصر ، بهذا الطفل ، قد غاصت نهائيا لتصبح مستعمرة رومانية ، ورأى آخرون فى الطفل رمزا للتحالف فى حين أشفق فريق ثالث على مصير مصر لو حلت مصيبة بقيصر .

وعندما أبحر الى روما ، كانت كليوباترا جاثمة فى كوة نافذتها تنظر اليه وانسابت السفن بعيدا عن الميناء ، كانت تعلم أن قيصر على ظهر أكبرها . وكانت تعرف ما كان يفكر فيه فى هذه اللحظة ، فأفكاره كانت هى بعينها أفكارها أيضا ، وهى اذ تجهد عينيها لتتبينه كان يحاول هو أيضا أن يرقبها وهى تجلس فى نافذة القصر . كلاهما كان يفكر فى مغامرة خاصة ، تلك المغامرة التى ظهر أنها ستحدد مصير العالم .

تلك ملكة مطرودة أنقذت نفسها بعبقريتها وسحرها ، ومع ذلك فقد كابدت وتحملت كعاشقة وأم ورفيقة . كل هذا فى أشهر

قلائل ، وعلى يدى رجل يكبرها غالبا ثلاث مرات • وها هو ذا قائد منتصر ، خاطر بسلطانه وحياته ، جدد الحب شبابه ، وأصبح أبا !
لقد كافح كلاهما حقا ومن أجل غاية واحدة لكى يورث ابنهما الأرض ويسود العالم •

ومن الخيال الجرىء الذى احتض البحر المتوسط عادا الى تلك الساعة الخفية ساعة وجدهما الاول ونشوتهما ، وتغشى الرجل الطويل النحيف كآبة عميقة بينما يقف فى ظلال الشراع وكذلك الملكة الصغيرة وهى تقف بنافذتها كلما شاهدا المسافة بينهما تتزايد ، وقد هز الخوف كليهما فى تلك اللحظة ، الخوف من أن يباعد القدر بينهما الى الأبد • وبعينين مفجوعتين ينظر من مؤخرة السفينة فى صمت الى نافذة القصر ، وهو لا يدرى ما يخبئه له القدر •

لكنها جلست فى نافذتها العريضة على عقبيها ، ويداها بين الجدار الرخامى وجدائل شعرها الذهبى • كانت على ثقة من النصر ومن المستقبل • وكانت تبتسم •

الفصل الثانى

زيــــوس

من ذا الذى لا يعرف قيصر حتى بدون حاجة الى تمتماتى ؟ .... لكم كان هو حقا عظيما ، ونقيا وطيبــــا ، ! هو عظيم قــوى لا يخشى معارضة ! ولا يمكن أن يزعزع أو يقاوم ! هو حكيم وقادر ، يعلو على الأحداث ، يعتبر من نفسه ابنـــا الحظ ـ يقظ وسريع ـ قيصر هو خلاصة جامعة لكل عظمة انسانية ! جوته .

- ١ -

كان الصيف فى روما لافحا ورطبا ، والآن يقاسى من وطأة حرارة الساحل الايطالى ، بسبب الريح الساخنة تهب عليـــه من المستنقعات القريبـــة ، كل من اعتاد نسيم البحــر الذى يميز الاسكندرية وما يحيط بها عن كل موانى البحر المتوسط ، وكان

أثرياء روما يهربون من المدينة ليقضوا شهورا فى الخلاء على تلال « الألبان » حيث يفرغون هناك ، تحت ظلال أشجار الغار والسرو فيتابعون مكائدهم ومشروعاتهم المالية ، وحيث يمجد الشعراء مضيفيهم الذين ينعمون عليهم بالخمر والنساء • أجل مات كاناليوس ومن ذا الذى يستطيع أن يأتى بأقوال ماكرة خبيثة بمثل ما عرف به من براعة وروعة ، لكن كان لديهم فرجيل عوضا عنه ، فكان شديد الفصاحة طلقا فى طريقه النضير ، وكان هناك أيضا هوراس الشاب ـ وان لم يكن أحد يدرى أى الاحزاب يقصد أن يعاضده بشعره الرشيق ومن الخسران والحمق ، فى نهاية الأمر ، أن تنفق الأموال التماسا لشهرة تبقى بعد الموت ، فى حين أن فى انفاقها على محظية من المحظيات كسبا أكثر ضمانا • كل شىء فى نهاية الأمر هو مسألة من مسائل المال • فهل حدث وأصبح رجلا فقيرا قنصلا أو حتى ناظرا عموميا (١) ؟ ويصبح القصد اقتراض مال كاف ، وشراء أصوات الناخبين وما ان يصل المرء الى السلطة حتى يعوض ما اقترضه ويدخل مع الخط فى مساومة ! لقد عاش كاتو ، كما عاش القدماء يعوضه رضا النفس وصفاء السريرة عن الحاجة الى المال ، لكن مثل هؤلاء الناس يكون الانتحار نهاية سعيهم • فما الذى كان يستطيع كل من بومبى وكراسيوس أن يفعلاه بغير مال ؟ وحتى قيصر ، الآن ؟ لم يتفوق عليه فى مسألة الرشوة سوى موظفيه . لقد شاخت الامبراطورية ودب فيها الوهن ، وعليه أن يبادر فيأخذ له مكانا بين وارثيها .

---

(١) موظف عمومى يشرف على المنشئات العامة والاسواق ونظم aidle . المرور فى المدينة ـ (الترجمة العربية لكتاب رونالد وادلى : حضارة روما) . ويرى كوويل ف.د. أن عمله الاساسى كان مساعدة القنصل فى تطبيق القانون ضد الجرائم غير السياسية واحكام الرقابة التجارية على السوق وتدبير الحبوب اللازمة لغذاء المدينة .

(أنظر كتاب شيشرون والامبراطورية الرومانية ص ١٦٧)

كان هناك احساس بأن الآلهة على وشك الأفول ، لهذا أغرق المجتمع الرومانى نفســـه فى الملذات ـ فى المدينة وفى الريف على السواء ـ كان الاسراف عاما برغم أنه لم يعد أحد غنيا هذه الأيام ، كان الجميع متعطشين الى أقصى قـدر من اللذة ، فـلا أحد يدرى ما سيأتى به الغد •

لكن أحدا لم يغادر المدينة هذا الصيف ، ذلك لأن قيصر بقى فى روما • كان قد عاد لتوه من انتصاراته فى افريقيا ، وكان قد هزم آخر أنصار بومبى فى موقعة خالدة عند تابسوس • أما قواد جيش بومبى فكانوا بين قتيل وجريح ، وأما الأبناء الأحياء فقد فروا الى أسبانيا • فى ذلك الوقت نفســه اقترح حزب قيصر ، مع أول تقارير وردت عن انتصــاره ، اقترح ضرورة أن يصبح ديكتاتورا لعشر سنوات : وتلك بدعة فى تاريخ الرومان • غير أن قيصر بعد ما دخل روما ألقى فى الناس خطبة عظيمة مقسما أنه لم يكن ولن يكون أبدا طاغية مستبدا ، ولســـوف يقبل منصب الديكتاتور والقنصل أيضا ، لسنة أخرى فحسب ، عند ذلك تبسم المرتابون الا أن الجو العام ما يلبث أن يصبح على خير ما يرام •

كان الرومان يتطلعون الى حادثتين عظيمتين • فسوف يحتفل فى أغسطس بانتصـــار قيصر ، بين خمسمائة ألف متفرج وسوف تكـون هنـالك امرأة غريبة : فقد جاءت ملكة مصر من الجنوب الى روما كما عاد قيصر من الشمال عبر أسبانيا • أجل ، لدى قيصر الآن زوجتان وابن ! ومن ذا الذى لا يريد رؤية ذلك المشهد فى هـذا الوقت ! لا يمكن أن يضيع أحد على نفسه فرصة يرى فيهـا محظية قيصر الأجنبية !

وبقدر ما انقضت سنة هادئة بالنسبة لكليوباترا منذ فراق قيصر فانها كانت مليئة بالانتصار والضجيج لقيصر • ولقد أرضعت

ابنها وفطمته ، وها هو ذا الآن فى عامه الثـانى ، يقف على قدميه عندما تبطىء السـفينة وهى فى رحلتها الى روما • اسـتطاعت كليوباترا ، بعد أن مرت بعديد من العواصف ، أن تجد الوسـيلة لاخماد معارضيها وأن تهدىء - على الأقل - بضع مئات من الرجال الذين أثروا فى قدرها • وبفضـل حماية الـكتائب الرومانية • وبفضل التمتع بقدر من الاستقرار بدأ اهل الاسـكندرية ينظرون بعطف الى المسألة المبهمة الخاصة بحب مليكتهم وزواجها ؛ وبما أن الجميع كانوا يثرون من التجارة مع روما ، فسرعان ما بدأوا يشعرون بأن القـائد الرومانى هو الاله آمون بحق • متنكرا ، وأن أميرهم المتوج ابن للآلهة من ناحية أمه وناحية أبيه على السواء •

لكن حبيبته وقد سمعت أنباء انتصاراته الباهرة فى آسـيا الصـغرى ، بعد أن رحل عنها مباشرة ، فانها عزت ذلك الى الحب الذى جدد قواه أو الى الابن الذى أنجبته له هى - من بين سـائر النساء - وكأن قيصر ما حقق انتصارا من قبل • وجاءتها التقارير بالكثير عنه ، الا أنها حاولت أن تعرف - بواسـطة عمالها - كل ما كان يفعله فى غيابه • وعليها أن تعرف اسم وهيئة كل امرأة اتصلت به ، وكيف يعيش مع زوجته ؛ ولهذا الغرض ، كان لديها العيون فى روما • ولقد سمعت كيف أنه ، فى أثناء عودته الى روما وبعد أربعة عشر شهرا من انتصـاره فى فارساليوس ، وبعد أن عطلته تلك الاقامة السحرية فى مصر ، كيف اسـتطاع أن يعيد الأمور الى نصابها سريعا وأن يحقق النظام والأمن ، فى المدينة على الأقل ؛ ويمضى شهران فيخرج ثانية ليلحق الهزيمة بورثة بومبى • والآن فقط ، وقد عاد الى روما سالما مظفرا هل أرسـل فى طلبها حيث يمكنه أن يأمل - ولو مؤخرا - فى حكم روما كسيد مطلق وأن يحقق حلم شبابه فينتهج نهج الاسكندر وينفرد بالسلطة •

نعم ! يحكم بمفرده ، لكن من أجل ابنه وولى عهده • فتلك كانت الفكرة الملهمة له ، طوال هذه السنة التى فارقه وأمه فيها ؛ وعندما تذكر فى الميدان ، دات مساء ، نساء روما الشابات الجميلات. ووازن بينهن ، بعد عودته وبين المرأة التى أنجبت له ابنا جـذبه هذا التذكر وهذه الموازنة اليها ، وتحقق من أن حنينه للطفل كان ممتزجا بشوقه الى محظيته الفاتنة التى نعم بحبها فى شهور الحرب. تلك • وفضلا عن ذلك فقد كان شديد الرغبة ، فى أن يبدو أمامها، أمام زوجته الثانية ، فى عظمة انتصاره ، ذلك الانتصار الذى أجله لمدة عام ، وكان مصمما ، من هذه الناحيـة ، باعتباره سـيدا مطلقا ، على أن يسحق كل معارضـة ، وبكل جلال الامبراطورية. وعظمتها ، وأعضاء السناتو يحيطون به ، استقبل قيصر ملكة مصر مع زوجها : أخيها بطليموس ذى الاثنى عشر عاما ، ومع حاشيتها وروعة زيهم تملأ الرومان غيرة وحيرة • وفى حديقته الجميلة الغناء، على الضفة الشمالية لنهر « التيبر » ، حيث يوجد الآن متنزه دوريا ـ بامفيليى ، أعد سيد روما فيلا مجهزة بوسائل الترف ليرد بذلك على ضيافتها له بوادى النيل • ولقد أشرف بنفسه على هذه أو تلك من تفصيلات الزينة والزخرفة قبل أن تصلها كليوباترا، ففى غرفة ما من الغرف الباردة الصغيرة ربما كان يقدم كرسيا بسيطا ، أو يأتى باحدى الستائر ، تذكارا للقصر العائم فى النيل • فقط عندما زارها بمفرده ، مسـاء اليوم الذى قدمت فيه ، محمولا فى محفته السريعة من منزله الكئيب فى الفوريوم الى دار الخيـال والهوى هذه ، عند ذلك شعر تماما بالحياة المزدوجة التى بدأ يحياها ، والتى لها سحر الجدة وفتنتها حتى لرجل فى مثل سنه وتجاربه • وعندما استرجع صورتها وقد رآها فى حفل الاستقبال الرسمى ، بدت له تفيض حيوية وشبابا كما كانت منذ سنين وهى تنهض من السجادة أمامه • فى هذا الوقت تبلغ رغبته قمة تأججها : الرغبة فى أن يرى

الطفل وجها لوجه . ذلك الطفل الذى له ملامح أبيـــه كما أنبأته الرسائل .

وعندما توقفت المحفة تحت الخمائل فى مساء يوليو المتوهج القانى ، بدا أن خدمها جميعا قد أمروا بالانصراف . واجتاز قيصر الباب الخارجي ، بعـد أن صرف خادمه ، ومشى فى ممر الحديقـة الفسيح ناحية الفيلا . وينظر الى الشجيرات أمامه مسرورا ، فربما كانت هذه نزوة جديدة من نزواتها . ولقد أدخل هذا السرور على قلب الديكتاتور ، الذى كان معتادا أن ينتظره الجميع أينما حل ، بنظراتهم الوجلة الغريبة . وسمع ، وهو فى منتصف الطريق الى البيت ، همسة خافتة كما لو كان أحد يناديه ، ومع ذلك لم يشأ أن يخدع نفسه .

على مقعد رخامى نصـف دائرى جلسـت كليوباترا فى ظل اشجار الصنوبر الضخمة . وبجوارها يقف الطفل ، رأسه بحذاء كتفها ، ولم تستطع ــ فيما بدا ــ أن تنهض على قدميها وهى تحضنه بين ذراعيها ، لكن تبتسم كليوباترا محيية قيصر تحية لا يمكن أن يلقاها من كتائبه أو الجمهور . وفى دهشة يجيل بصره بين الأم والطفل ، لم يجد فى الطفل ملامح أمه لكنه وجده شبيها به تماما . نادرا ما يمكن أن يوجد تشابه على هذا النحو بين طفل والقسمات المغضنة لرجل كبير فيه قسوة المحارب . ولم يكن هذا التشـابه ذكرى باهتة لطفولة قيصر نفسه ، بل كان انعكاسا لشيبة قيصر ، وبعينيه السوداوين حملق الطفل الصغير بدهشة فى وجه الرجل الغريب .

تذوق قيصر سـعادة اللحظة كاملة ، تلك السـعادة التى وهبتها له الآلهة بعد كل ما صادفه من مخاطر ومجازفات عديدة ، غـير أنه كان على وعى كامل بطابعهـا المؤقت الزائل ، ولقد تذوق

جمالها باحساس الوداع الذى يهز مشـــاعرنا لحظة الغروب ونحن لا ندرى هل سيطلع علينا فجر جديد أم لا ؟ • والآن ، يغرق فى كآبة لا تفـارقه ، كتلك الكآبة التى أحس بها عندما افترقا ، حتى انه ابتسم بدافع من المجاملة فحسب •

ومرة أخرى كانت هى الظافرة ، فى عنفوان شبابها • وهذه الشخصية القوية التى كانت قد رأتها لأول مرة ذلك الصباح فى عزة كبريائه الرومانى ، قد جلس صاحبها الآن بجوارها فى متنزه بضاحية المدينة ، ناظرا بعينيه الفاحصتين الى وريثه الذى كانت قد وعدته به ، ومجيلا بصره فيها بتحد صـامت كانت قد تبينته من قبل ، ذلك الصباح ، فى شفتيه المضمومتين • نعم ، كان ملكا على روما • وبدأ الحلم يتحقق •

- ٢ -

لم يكن ممكنا أن يصبح مزاج المجتمع الرومانى أكثر سوءا • فسرعان ما بادر الجميع بزيارة الفيلا الواقعـــة خلف نهر التيبر لمشاهدة الملكة الأجنبية وانتقادها . ولقد بدت فى نظر البعض ، باعتبارها مصرية ، تنتمى الى ســلالة كانت تعبد الحيوان ، وذلك برغم أنها كانت تبدو اغريقية لحما ودما • وتندر بهـا آخرون وهى الملكة المزعومة التى تنحدر من أب جاء سفاحا وأم مجهولة الأصل • ولقد أحصوا ما بذمة والدها الزمار ، الذى لم يكن يفيق من سكره أبدا ، من ديون وسألوها ساخرين عما اذا كانت قد جاءت لتوفيها اليهم ! لم يكن الناس ، منذ عشر سنوات يتحدثون عن زوجة قيصر الا بنغمة الاعتراض وعدم الاكتراث ، بيد انهم فجأة بدأوا يرثون

لحالها باعتبارها الزوجة الشرعية التيأهملها الديكتاتور ، أو يبدون شفقة زائفة نحو الأخت السجينة أرسينوى ، تلك التى أصابها الضعف والهزال من بقائها هنا عاما كاملا فى انتظار أن تعرض على الملأ فى موكب النصر ٠

اتفقت النساء جميعهن ، وطائفة من الرجال على الأقل ، على أن الملكة لم تكن جميلة فى الحقيقة ؛ فهى على أية حال أقل جمالا من اثنتى عشرة سيدة تقريبا من نبيلات المجتمع الأرستقراطى فى روما٠ الشيء الوحيد الذى أخذوا به ــ الرجال والنساء منهم على السواء ــ هو الذكاء الذى مكنها من أن تدفع برجل كهذا ، قارب الخمسين واعتبر عقيما طوال هذه الفترة الى الاعتقاد بأبوته لطفل من الواضح أنها أنجبته من أحد الضباط المرافقين ، دون ما ريب . وبما أن كل واحد كان على يقين بأن شيئا كهـذا لا يمكن أن يحدث له ، فان التأثير البالغ لحضور هذه الشخصية الطاغية قد خفت حدته بعض الشيء وكما لو كان هنالك صمام أمن له ٠

ولقد تجمع حولها ، فى الوقت نفسه ، حشد من المنافقين يدافع بعضهم بعضا ، فملكة شرعية لمصر ، وامرأة يعترف الديكتاتور بها محظية رسمية له فى نهاية الأمر شخصية هامة حقا خلافا لأبيها وهو الذى كان كملك مطرود ، يبدد ذهبه مغرقا نفسه فى الديون استجداء لعرشه الضائع ٠ ولأن بوسع قيصر أن يأتى بأشد الأمور اثارة للدهشة ، ربما غدا أو السنة القادمة ــ فلا أحد يدرى ، فانه بقدر ما كانت علاقته الوثيقة بهذه الملكة الأجنبية ، بعيده فى رؤى الناس عن فكرة الملكية ، تلك الفكرة البعيدة التحقق ، بقدر ما رسم ظهورهما فى احدى الولائم معا الصورة الحقيقية لملك وملكة : الأمر الذى كان له اذ ذاك على عقول الرومان المرتابة كل ما للايحاء من سطوة واثارة وسرعان ما أصبح ادراكهم لذلك أكثر ايجابية

ووضوحا . غير أن ما أثار دهشة كل من لم يقصد أن يحجب عن نفسه الرؤية كان هو ذكاء الملكة وحيطتها ، الأمر الذى سمعت عنه روما الأقاصيص العديدة . وبدلا من الثراء الفاحش استطاعوا أن يروا ذوقا رفيعا فى اختيار أزيائها ، والتى لم تكن مع ذلك رومانية وان تكن أكثر امتيازا ورفعة . ولم يستطع أبدا ، واحد من الكتاب العديدين أو من الشعراء الصغار الذين لم يكونوا يميلون اليها بل يضمرون لها السوء لم يستطيعوا خلال عامين قضتهما فى روما أن يقفوا منها على نظرة خليعة أو فعل مشين أو أن يسمعوا حتى كلمة طائشة تؤكد سمعتها السيئة ، فما أكثر ما كان تحفظها فى هذه البيئة الأجنبية وما أشد ما كان ذهنها مشغولا تماما بالغرض الوحيد الذى يمكنها أن تناله هنا فى روما فقط .

لم يفرض المجتمع الرومانى عليها أكثر مما فرضته على نفسها، وهى تحاول أن تجد طريقها خلال مكائد الرومان ومطامعهم المتشابكة . وكانت ، باعتبارها مصرية ، مدفوعة بفضول طبيعى نحو روما منذ صباها ، بغيته أن يكشف عن سيطرة روما على بلدها . وفوق ذلك ، سرها أن تشترى بمالها عظماء الرومان الذين رفضوا أموال والدها ذات مرة ؛ واستفادت من أمونيوس - الرجل الذى كان أبوها قد تركه فى روما ، والذى استطاع - وهو الجاسوس الشرقى على الأصالة أن يهمس لها بمئات الأسرار عن العائلات المؤتلفة أو المتصارعة فى قلب الجمهورية .

غير أن هدفها الحقيقى ، الذى كانت تسعى اليه فى شغف هو أن تكشف عن أولئك الأفراد القلائل الذين لهم نفوذ على قيصر أو ربما يؤثرون فى مستقبله . وعرفت مدى عمق جذوره فى هذه التربة الرومانية ، وذلك من واقع العلاقة التى تربطه بكل فرد . ووفقا لهذه التأثيرات والاهتمامات كان عليها أن تضع خطتها فى

السيطرة على العالم غير مستعينة بأحد سوى ابنها ، وكالنجم الثابت الدائم كان يجب عليهـــا أن تقصى النجم المذنب عن أفـلاك آلاف الكواكب ! ولكى تفعل هـذا فلابد لها من أن تعرف طبيعة هـــذه الكواكب وقوة جاذبيتها بالنسبة لهذا المذنب •

فى أسابيع اقامتها الأولى فى روما كانت تستقبل زوارها فى الحديقة ، فى أيام معينة ، وبدا أن المجتمع الرومانى أخذ يعتاد رقتها الفاترة ، لم يكن أنطونيوس من بين ضيوفها فقد كان غاضـــبا من قيصر لأنه وجه اليه اللوم بقســـوة عند عودته من مصر ، وكان أنطونيوس قد أصبح اعظم بكثير من أن يلقى مثل هـذه المعاملة • كانت هنالك مئات الأشياء التى أخطأ فيها أنطونيوس باعتباره ممثلا لقيصر ، والتى يمكن لقيصر الشهم الكريم أن يغفرها له فى الحال ، غير أن ما قام به أنطونيوس من شراء قصر بومبى المقتول، واستحواذه على تماثيله اليونانية وعلى قبو نبيذه دون أن يدفع مقابل ذلك كله شـيئا ، انما كان ظلما فادحا لا يجب أن يتمكن أتباع بومبى من استغلاله ضد الحكومة القائمة • وبينما يصر قيصر على رأيه يرفض أنطونيوس الانصياع لأية أوامر ، الأمر الذى ينتهى بهما الى الفرقة والتشاحن . ولا يعينه قيصر قنصلا مرة ثانية ، مفضلا تعيين دولابلا ، الذى كان أنطونيوس يمقته ، وهنا تغدو الغيرة مصدرا المتاعب . حينئذ يهجر أنطونيوس المدينة ويلغط مهددا ، ويخوض فى حديث عن خطة قتل صديقه وسيده .

وعندما زار شيشرون الملكة ، فى الحديقة التى كانت تفضـــل استقبال زوارها فيها عادة ، وقدم لها احترامه واجلاله تبادلا نظرة فاحصة فلم يشـــعرا فيما بينهما بالثقة والطمأنينة • وتتســـاءل كليوباترا : ألا يزال هذا الرجل صـــديقا لقيصر ؟ كان قيصر قد صمت وهما يتحدثان عن شيشرون أخيرا . وهو لم يجرؤ على أن

يهاجم قيصر فى محاكمة كاتيلينا واقترض منه مالا لذلك • سمعت كليوباترا أنه نفى ذات مرة نفيا مكرما • لكن أى معنى للاكرام فى روما ؟ ومن من هؤلاء الناس جميعا الذين يحيكون دسائسهم فى الحديقة ذلك المساء ، لم يطرد من المدينة فى وقت من الأوقات ؟ يقول الناس عنه انه ـ شأنه شأن بقيتهم ـ قد جمع فى آسيا الصغرى أموالا ، وذلك على الرغم من أحاديثه الخلقية • والا فكيف دفع ثمن فيلته الجميلة اذن ؟ لكنها تبتسم ، وحينما تحدث فى عبارات أخاذة عن احدى المخطوطات الأصلية ، بالذات ، التى قيل انها انقذت عند حريق المكتبة العظيمة وعدته أن ترسل فى طلبها من الاسكندرية حالا • وبعد لحظة كانت تستقبل شابين طويلين جاءا لزيارتها •

وتقول كليوباترا فى نفسها : هو لا يأتى بمفرده أبدا ! وتكره نفسها على أن تصافح أكثر الشابين ضمورا ، فلقد وجدت هذا الشاب ابن السبعة عشر عاما ثقيل المعشر كئيبا ، مع أن قيصر كان يتحدث عنه بمودة واعزاز . جاء اليها أوكتافيوس مع صديقه أجريبا . ما الذى يعجب قيصر فى ابن أخته هذا حتى يمنحه حبه ورضاه ؟ وتفكر كليوباترا وهى تمعن النظر فيه من جديد . كان مسلكه سيئا ، وكانت هيئته قذرة ـ فهو على الدوام شاحب ولا يغتسل أبدا كما ينبغى ـ وشعره الأسمر غير ممشط عادة . وفضلا عن ذلك كان دائم القلق على صحته ، يمكن للمرء أن يتبين لأول وهلة ، غرامه بالكتب . ولعينيه الزجاجيتين نظرات شهوانية تنم عن عيوب حقيقية فيه . لو لم يكن جده المرابى فيليترى العجوز يستنزف الأموال ، ما استطاع والد أوكتافيوس أن يتزوج أبدا من عائلة قيصر النبيلة ، ولما كان الغلام ليصبح أعظم قيمة وأثرا من صديقه هذا ـ الذى ظل مثله تماما يحملق فى صدرها .

وتردد كليوباترا فى نفسها قائلة : أنا أعرف رغباتك الخفية !

ولئن كنت لا تستطيع أن تحرث الآن حقل قيصر ، فلسوف تحاول على الأقل أن تنال حصـــاده ! وبحدس مفاجيء التفتت الى احدى عبيدها وأمرتها بأن تحضر المربية الطفل النائم ؛ ورفعته الى أنف الفتى الشاحب أوكتافيوس • ولم يســتطع أوكتافيوس أن يرى السهم المنطلق من عينيها الذهبيتين مصوبا الى قلبه ، على حين كان هو وصنيعته أجريبا يحملقان فى ملامح ابن قيصر فحســب • وترفرف على هؤلاء الثــلاثة ظلال الحوادث المبهمة القادمة التى لا يمكن التكهن بها ، وان كان قد سبق بها القضاء ، بينما انتظر أجريبا المتهور اللحظة التى يقدم فيها نفسه •

وتحدث كليوباترا نفسها بأن أوكتافيوس انما يحقد على أبنها ويستكثر عليه وجوده ، بينما كانت تنظر الى الطفل فى صــمت بشفتين منفرجتين • ولئن كان أوكتافيوس قد حلم بأن يصــبح وريثا لقيصر فى عقمه ، فلسوف يكره هذا الابن على ذلك • ومن ثم يجب مضاعفة الحراس خارج البيت •

ثم يدخل الحجرة زائر جديد ، لم يكن متوقعا بالمرة ، وبينما كان الشابان يأخذان فى الانصراف كانت تمـد يدها اليسرى الى القادم الجديد ، فقد كانت لا تزال تحمل الطفل على ذراعها اليمنى • وينظر الغريب الى طفلها النائم بشغف • سوف ينتقدونها هنا فى روما لاستقبالها الضيوف وابنها بين ذراعيها ، هى لم تفعل ذلك من قبل ، لكن كراهيتها للشاب الذى يكره ابنها هى التى دفعتها فقط الى هذا ، اليوم • وبما أن الصدفة كانت اذ ذاك فى خدمة غرضها على نحو غريب ، فقد ظلت تحمل الطفل لفترة أطول ، ذلك أن الرجل الواقف الآن أمامها كان يعرف بأنه ابن لقيصر • فذلك هو بروتوس •

وتحسن الملكة استقباله أيضا فى ثبات واتزان ، فان قيصر

قد أثنى عليه ، ولقد كان من الممكن - وهو فى الثلاثين من عمره ونظرا لما يبدو عليه من رجولة ولنظرته الشغوفة المتطلعة أن تعجب به كليوباترا ابنة الأربعة والعشرين ربيعا - ولكنها وقد تخيلته محبا - وكان هذا هو شأنها اذا ما أرادت أن تكون رأيا عن أحد من الرجال - اذ ذاك شعرت نحوه بنوع من النفور والكراهية : أحست أن بروتوس لن يسلم قياده لأحد أبدا ٠

وتتحدث كليوباترا الى نفسها : أبدا ليس هذا ابنا لقيصر، برغم أن عينيه تشبهان عينى قيصر شبها شديدا ٠ لو صح أنه كذلك فانه يكون اذن ثمرة انغماسه فى معاشرة امرأة أجنبية كما كان الشأن معى ٠ وكمن شعر ، حينئذ ، بضرورة التفرقة بين الاثنين ، فانها أعطت الطفل للمربية واستمعت الى بروتوس الذى كان ينفرد بعادة خاصة : انه لا يناقش أبدا ما يحدث فى المجتمع بل يتحدث عن المبادىء فحسب ٠ وهو اليوم ينصحها أن تربى الطفل وفقا لمبادىء فيثاغورس حتى يمكنه أن يتعلم كيف يحاسب نفسه مساء كل يوم يقضيه ٠ وظهر أن الملكة تستمع اليه ؛ فتومىء برأسها من حين الى حين ، لكنها رأت فيه مجرد شخص غيور متعصب ٠ ترى لأية دوافع شريرة يدخر هذا الرجل نفسه وهو يبدو مستقيما بارا ؟ هو واحد من هؤلاء اللاتين الغلاظ ! ذلك ما فكرت المرأة الاغريقية فيه ٠ أتوجد مشكلة أخلاقية لم يسوها مع نفسه ؟ فى مبدأ الأمر كان بجانب بومبى ، قاتل والده ، لأن النظام والقانون كانا بجانب بومبى ٠ وقبل المعركة كان يطالع شذرات منسوخة من كتاب بوليبيوس بدلا من أن يقوم باصلاح سرج جواده ٠ ومع ذلك فان قيصر أعطى أوامر صريحة بالابقاء على حياته لو أسر فى الطريق ٠ وعندما ذهب الى الظافر قوبل بروتوس مقابلة باهرة ! وفى عودته تزوج من أخطر فئة فى

المدينة : تزوج ابنة كاتو ، وأرملة عدو لدود ! فلماذا هذه المخلوقة المدعية المتعجرفة !

وبدأ بروتوس يتحدث عن فارو ؛ ويسأل الملكة عما اذا كانت قد قرأت مقالته فى ادانة الترف الشرقى وتحبيذه الدعـــوة الى البساطة الرومانية القديمة • وتجيب كليوباترا بأنها لم تقرأها ، ثم تسأله أن يخبرها المزيد ؛ وبدلا من أن تنصت اليه أخذت تفكر : يا له من رومانى جلف ! أجلاف كل أفراد هذه العائلة المستقيمة ! كلهم متســـاوون • عندما كان بروتوس حاكما على قبرص أقرض الشعب بفائدة مقدارها سبعة وأربعون فى المائة ! لكن قيصر ، طبعا ، يغفر لهذا الرجل كل شيء • وكمن أحس بالتبجيل والتكريم يلحقه بفضـــل هذا النبيل الموالى لبومبى ! قال قيصر ، منذ وقت قليل ، أنه ينوى أن يجعل من بروتوس بريتورا ! Practor وعندما نظرت اليه فى دهشة تبسم قائلا : على المرء أن ينسى عدواته القديمة ! أية حياة بائسة تلك التى يحياها المرء دون انتقام ! تلك هى الطريقة التى تضرم نار الدسائس والمؤامرات ! لدينا فى مصر منها ما يكفى ؛ وهـــؤلاء الخلقيون هم أشد الناس خطورة • لا بد من تحذير قيصر ـ حتى وان يكن الرجـل ابنه ! غير أن سيرفيليا المتـــوحشة ـ ذات قلب ظامىء فياض حتى ليصعب على المرء أن يعرف حقيقة ما اذا كان بروتوس ابنا لقيصر أم لا ! هذا ما كان يفكر فيه قيصر بينمـا يرفض بروتوس الاعتراف بذلك ، وهو الذى يريد أن يكون كل شيء صحيحا ومشروعا • فأى شعور عدائى يحيط من كل جانب ! وكم لقيصر من أعداء ! فهل بقى له من صديق ؟

- ٣ -

ولأيام عـدة كانت تجلس كليوباترا صـباحا أمام النحات الاغريقى أرخيلاوس • ولسنا ندرى ، والعمل لم يعد باقيا ، ماذا كانت تلبس حينذاك ؛ لم يتبق لنا سوى تمثال نصفى واحد يعد سجلا موثوقا به لجمالها ، على حين أن العملات النقدية كلها رديئة والأوصاف هزيلة باهتة • ولقد كان حظ كليـــو باترا فى ذلك كحظ الاسكندر الذى لم يكن يفتقر فى حياته الى شىء ســوى شاعر عظيم فكذلك كانت تفتقر الى رسام عظيم • ومن ثم يكون الخيال هو البديل الاكثر حرية وطلاقة • وسواء أكان التمثال قد شرع النحات فيه متأخرا جدا أم لا ، وسواء أكان عمله تقطعه المؤامرات والنزوات الاجتماعية فى أغلب الأحيان أم لا ، فان الشعب الرومانى لم يشهده الا غير مكتمل وفى ظروف غير عادية •

فى هذه الأسابيع الأولى ، التى تشتد فيها حرارة الصيف بحيث تخلو الشوارع من المارة عادة ، كانت روما كلها فى حالة من التأهب والترقب • وفضلت الملكة أن تسير فى شوارع روما يحملها قليل من الخدم ؛ ودون أن يلحظها أو ينتبه اليها أحد • هى كانت تعلم ، بالطبع ، أن قيصر يراقبها ولكنها كانت تتصرف وكأنها تجهل ذلك • وبينما كانت لا تعير حياة الفقراء والعبيد فى الاسكندرية أدنى اهتمام ، وبينما كان يصعب عليها أن تشعر بأنها ، بكل روعة ملكها وجلاله ؛ انما تستند الى رءوســهم التى لا يحصيها العد ، فانها كانت تبحث هنا عن حياة الرجل العادى البسيط ، ذلك لأن قوة قيصر كانت تعتمد على صوته ، أو على مزاجه ، على الأقل ، ذلك الذى تحاول الأحزاب المعادية أن تقلبه أو تبدله بشتى الوسائل •

في مثل هذه الأوقات ، كانت تنزل بأحد الأركان المظلمة دون أن يلحظها أحد لتتجول مع أحد عبيدها ، في أكثر الأحياء قذارة بالعاصمة ، ولكم بدت الشوارع حينذاك ضيقة ملتوية ووعرة ، والجدران الطينية التي لا يحصيها العد أشد قذارة وظلمة ؛ الناس هنا أثرياء في انجاب الأطفال فقط ، ولقد تراكموا تصدر عنهم رائحة كريهة . لم يكن في روما غير شوارع ثلاثة تصلح لمرور الخيل بها ، وبما أن حركة المرور كانت مزدحمة فلن يمكن للعربات ذات الحمولة الثقيلة المرور الا ليلا فقط . وكانت تستطيع أن تسمعها مرعدة مقرقعة عند الغروب ، وهي تعلم أن أحمال الرخام والطوب تفرغ منها في كل ليلة على ضوء المشاعل الخافتة . وتعجب من أعصاب هؤلاء الرومان الذين كانوا يستطيعون النوم برغم هذا الضجيج كله .

وكم من هذه المخازن جميعا امتلأ بخيرات بلادها ! فهنا الصوف والزجاج من الاسكندرية ، والأعشاب والتوابل من الهند. وهنا مخازن بأكملها مملوءة بأوراق الكتابة ، التي كانت أليافها تنمو على ضفاف النيل ! لكن كانت تنساب في همس – من بين جميع هذه المخازن والمستودعات – معجزة روما ، كما أخبرها والدها وهي طفلة ، تلك هي معجزة المياه التي تملأ حماماتها وأحواضها والتي تصل الى سكان العاصمة المتعطشين اليها دائما في أنابيب حتى موائدهم .

ووسط هذه المخازن – رأت مساكن الفرسان الفقراء ، تلك التي سقطت في أثناء كوارث الحرب الأهلية ونكباتها في أيدي أثرياء مغامرين . كان أثرى الخبازين يقيم ولائم سياسية في قصره بروما ، وكان حديث هذه الولائم مدعاة لاهتمام واثارة حتى قيصر نفسه . لقد عرفت كليوباترا من كان يشترى

البضائع من سوريا ثم يبيعها فى بلاد الغال ، ومن كان يقرض الأموال ومن كان يعطى أملاكا وعقارات لكى يرضى فى الواقع شره الجنود القدماء الذى لا يحد • ورأت القصر المرمرى للفارس « مارمورا » ، ذلك الذى كان يفاخر قصر « لبوكولوس » ، والذى مدت أمامه ، فى يوم من أيام الأعياد ذات مرة ، ألف مائدة قدم عليها حزب قيصر الشعبى لجموع الناخبين مائة ثور • كان كل شىء يضج بالزحام فى جو روما الشديد الحرارة كانت المعابد فحسب هى المهجورة الخاوية •

فى شوارع روما أبصرت كليوباترا ما كانت عرفته حتى الآن معرفة غير دقيقة وغير واقعية ، واستطاعت بطبيعتها المتوثبة وحواسها النافذة أن تكشف عنه بصورة أفضل : رأت أفول امبراطورية قديمة، وانحلال المبادىء النبيلة وتزييف الديمقراطية، رأت كل شىء يهوى فى حضيض الرشوة والفساد ولم يبق سوى ظل شاحب لفكرة المساواة فى الحقوق بين المواطنين وكيف أصبحت القوة فى أيدى حفنة من المغامرين • كانت كلما وازنت هؤلاء الرجال بقيصر كلما بدا فى نظرها عظيما •

أكانت هنالك آلهة لا تزال باقية فى روما هذه ؟ على هذا النحو تساءلت الملكة • فى عاصمتها اختفى الايمان ، غير أنه كان هناك اتفاق خفى على وجوب احترام الاشكال التقليدية القديمة • وفى شوارع روما وجدت عبادة « ميترا » Mithra بجانب عبادة « ايزيس » ، وجدت نوعا من العبادة المشتركة تجمع بين ابن الاله الفارسى ومواكب الالاهة المصرية التى يتساقط اللبن من صدرها الذهبى • وربما سمعت التصفيق الذى يعقب دائما أشعار « اينوس » وهى تتردد على المسرح ، ذلك الشاعر الذى كان يعلن أن الآلهة لا تشغل نفسها بآلامنا أو ربما كانت بين

المتفرجين عندما صاح واحد من أهل روما القديمة ، فى الممثل الماجن الذى يقص عليهم فى سخرية آثام « ديانا » وهو يقول له : أدع الآلهة أن تمنحك بنتا تقترف كل هذه الآثام !

فى مثل هذه الحالة من الفوضى والتفكك سادت روح قدرية تؤمن بالقضـاء : لن تحرك الآلهة ساكنا لانقاذ رعاياها ! وليس بوسع المرء أن يثق بشىء سوى النجوم والشهب والزلازل والحوادث العجيبة غير المألوفة . ألم يعلن قيصر ، باعتباره الكاهن الأعظم ، وهو يتكلم فى مجلس السناتو ، أن الموت غاية كل الأشـياء ؟ وهذا ما كان يردده الرجل العادى فى أعمـاق سريرته : « الق بنفسك ــ مثـل قيصر ــ فى نشوة المخاطرة ، فهو رجل الاحتفالات والذهب . لو فعل فى صفقات البيع شيئا فى سبيل سـيادة الجمهورية لأمكننا دائما أن نطيل فترة حكمه المطلق ! فما يفعله قيصر انما يفعله من أجل الشعب ، هو أشد كرما من « بومبى » و « كراسيوس » و « صلا » مجتمعين ! » .

لكم كان قيصر بارعا ذا دهاء ! ففى هذه المدينة الغارقة فى الترف سن قانونا ضد التبرج ؛ وبينما ألزم المترفات فى محفاتهن أن يزلن مقدار عشر زينتهن من الحرير الأرجوانى واللآلى ؛ أرضى بقانونه هذا البسطاء من الشعب ، الذين طالما أغرقهم بالألعـاب ، حتى أنه قدم لهم ، فى السيرك الجديد ، تماسيح جلبها من النيل ، والذين حيوا بالأمس فقط موت أحد المصارعين بتصفيق حمـاسى مهووس أخذوا يتطلعون فى سـكون الى الأفيال وهى تطأ الأرض بأقدامها فى أسى وشجن .

ولقد عادت كليوباترا من جولاتها فى روما وهى ممتلئة حيرة ودهشة . فهى وقد شـبت فى عالم اعتاد السم والخنجر ، بعيدا عن تأثير الأفلاطونية المحدثة ، أصابها الآن نفور من رؤية مجتمع

ورؤية أمة أعطت لشهواتها ، للذهب واللذة ، أسماء قديمة لم يعد لها أي وضـــوح وكأن كل شيء قد لوثته ريح قاتمة من الدجل والادعاء ـ فقط بدا لها قيصر الشخص الوحيد الذى شاركهـــا براءتها الساخرة ، ولو انها التقت به هنا ، اليوم وللمرة الأولى فما كانت تملك الا أن تحبه من أجل حريته النفسية ، ولأنها رأته راسخا لا تضعفه الشكوك ـ بدا لها قيصر وقد ولد ملكا وبدا زوجا لها ورفيقا •

لكنها كانت تكره بروتوس ، ذلك المخلوق الذى كان عليه أن يبرر مسلكه أمام ضميره عندما بدل سترته ، يســبب أخلاقياته التى ضاقت بها ـ وعندما أطلعوها على تمثال جده ـ فى الكابيتول بجانب الملوك القدماء ، عندما رأت بروتوس قاهر آخر ملوك روماء بدأت تكره حتى رؤية الكابيتول •

- ٤ -

بدأ انتصار قيصر بفأل ارتعدت له كليوباترا فرقا ، وهى التى كانت تقيم اعتبارا بالغا لمثل هذه الأمور •

فعندما اقتربت عربته ببطء ، تحيط به صيحات الدهماء ، استطاعت أن تراه مرفوع الرأس فوق الجميع ، وعندما كبح السائق جماح الخيول الأربعة الكميتية حيا قيصر جموع الحاضرين التحية الرومانية وبدت ملامحه فى ضوء الشمس ، عجوزا أغبر بينما ظهرت عضلات ذراعه العارى بلون وردى • الم تكن عيناه تبحثان عنها فوق المنصـــة ، حيث كانت تجلس بجوار كالبورينا ، زوجته ؟ وفجأة وعلى بعد لا يتجاوز مائة خطوة ، رأته يترنح ثم يقفز الى

الأرض • وتجمع الحشد صائحين ، وقد انكسر محور العجلة • جرى الرسل يزعقون هنا وهناك ، ثم يحضرون عربة أخرى،في سرعة تبعث على الدهشة ، وتوضع فيها الخيول •

وعندما مر بالمنصة فى العربة الجديدة ، وثبت الآلاف عيونهم عليه التقت نظرته بنظرة كليوباترا ، تلك التى أرجأ من أجلها موكب النصر هذا • وضحك قيصر وهو ينظر اليها مشيرا الى الرجل الذى تقرقع خطواته الثقيلة أمام العربة ، وعندما التقت عيناه السوداوان الجريئتان بها مرة ثانية ، بدا كما لو كان يناديها قائلا : « اتلك سلسلة الملك المقهور وقد تحطمت ؟ لى عربة النصر اليـوم ، وله الموت غدا ! » وخلبت نظرته لبها حتى أنها داست تعويذتها بقدمها، كما يدوس المرء شرارة متقدة •

ويبلغ ابتهاج النـــاس حدا لا مثيل له عندما تبع قيصر الى الفوريوم ذلك المساء أربعون فيلا تحمل على ظهرها مشاعل ساطعة• لكن تعطش الملكة الى الانتقام لم يرتو الا فى اليوم الثـــانى — فلم يكن قيصر قد احتفل من قبل مطلقا بأى انتصار أحرزه ، من أجل هذا نظم فى غضون أيام قليلة ما لا يقل عن أربعة احتفالات . كان الاحتفال الثانى بانتصاره فى مصر ، والذى كان غرضه الوحيد ، وفقا للتفسير الرسمى ، تكريم الملكة الشرعية الجالسة على المنصة ، والاحتفال بهزيمة الحزب المعارض لها • واستقرت عيناها ، فى أول الأمر ؛ على صور أعدائها المقتـــولين ؛ أخيـــلاس وبوثينيوس هذين اللذين طرداها من العرش ذات مرة ، ثم تأتى أمام عربة قيصر التى لم تنكسر فى هذه المناسبة ، تأتى أرسينوى الأخت الثانية الخائنة لكليوباترا • ويا للحسرة ! مرت الدقائق سراعا ، ولم يمنح لهـا المنظر وتنعم به غير دقائق معدودات ! ولقد حملقت كليوباترا فى اثرها ، تشفى غليلها ، حتى أنه كان من الصعب أن تلاحظ مرور

المزراف الحزين أمام جمهور هائج لرؤيته أول مرة ، لم تكن تفكر في غير أختها المكبلة في قيودها ٠

وفجأة تبرز أمام ناظريها صورة عمها ، ملك قبرص ، الذى فضل أن يتجرع السم بدلا من الهوان حينما كانت طفلة ٠ وللمرة الثانية فى حياتها ، وفى سن الرابعـــة والعشرين تدرك كليوباترا المعنى الكامل للعار وللشرف ، للنصر وللانتحار ٠ شعرت فى هذه اللحظة ، بما فطرت عليه من يقظة وعبقرية ، بلمسة قدر لا يزال بعيدا ٠ ولم تسمع الأغنيات المبتذلة يرددها قدامى الجنـــود وهم سائرون فى الموكب ، تلك الأغنيات التى حوت تلميحات اليها والى قيصر حتى أن الجمهور زأر ضاحكا ، وضحك قيصر معهم ٠ فقط رأت الرقبة الذليلة لأختها البغيضة ، التى ظلت مطرقة الى الأرض ، كما لو كانت تبحث عن مهرب من أعين الرعاع ٠ وعندما أخبرها قيصر فى اليوم التالى أن انقاذ حياة أرسينوى سيكون لفتة حكيمة لم تفهمه ٠ وتسمع فى آخر أيام النصر ، وقد حملت صور هزلية لكاتو فى الموكب ، تسمع همس استنكار بين النبلاء الجالسين فى المنصة وراءها ، كانت مسرورة اذ ذاك فلم يكن قيصر حكيما بالدرجة التى كانها بالأمس ، ولأنه أثار غضـــب هؤلاء الفاترين عديمى الاحســـاس ٠ وعنـــدما بدأ يخطب فى الناس مســاء كانت أكثر الحاضرين بهجة ، حين ظهر قيصر فى نهاية الاحتفال لابسا خفا ٠ فهذا الازدراء للعامة دليل آخر على أن قيصر ملك حقا ٠ ولقد كان شغف كليوباترا بأن تجعل من الجميع أضحوكة يغلب أحيانا على تدبيرها لأمور الدولة ٠ كانت تهزأ من العامة والوجهاء ومن الكهنة والوزراء ومن الخبازين وصناع الأسلحة فتعاملهم باحتقار وتجعلهم يبدون باعتبارهم شرذمة من الخصيان ! ٠

وفى شهر سبتمبر يأتى مبكرا اليوم العظيم للتعبير عن هذه

الأهواء الجامحة ، وبعد انقضاء عيد النصر • فان قيصر شيد معبدا جديدا لـ « فينوس جينتركس » ، وآقام بهذه المناسبه ولائم فاقت كل ما سبقها من ولائم . ولم يكن المصارعون فى السيرك يقاتلون بعضهم بعضا فحسب ، بل كانوا يصارعون الوحوش الضارية ، ويعطى قيصر حلقة ذهبية لفارس رومانى فقير أنزل من قدره حينما ظهر على المسرح ، فيعيد بهذا اليه كرامته التى أهدرها كممثل • كما أمر قيصر بعرض تراجيديات فى سائر أحياء المدينة ، بلغات أربع ، ومن أجل الأجانب العديدين — وأخيرا قدم للناس مشهدا فريدا لمعركة بحرية ، حيث حاربت سفن مصرية فى بحيرة صناعية أعدت لذلك خارج المدينة ، وعلى هذا النحو من الضوضاء البهيجة احتفل قيصر بفينوس احتفالا رسميا •

لكن ما الذى أبصره النبلاء الرومان الذين حضروا الاحتفال ؟ أبصروا تمثالا لكليوباترا كما أبصروا تمثالا لفينوس ! وقدم قيصر ملكة مصر ، زوجته فى أصلها المقدس ، لأقطاب الجمهورية ، وعلى نحو ما كانت تقدس فى بلدها • وحتى يرى ذلك بعينيه وليراه الآخرون فقد قيصر لذلك أجل فضائله ، وهو الصبر — فلم يكن التمثال قد اكتمل بعد — وعبثا توسلت محبوبته الجميلة اليه •

اجترأ قيصر بذلك على التقاليد كلها ، المقدسة منها أو الدنيوية • كان كلوديوس قد وضع صورة عاهرة ، ذات مرة ، أمام منزل شيشرون لتقوم مقام تمثال الحرية ، وكانت فلورا حبيبته نموذج الألوهية ، لكن ما خطب ذلك كله لو قورن بنزوة قيصر هذه ؟ فهم كل واحد فى ذلك اليوم — وتحقق لغالبية الرومان فى خوف وذعر — دلالة اقامته تمثال للملكة المؤلهة فى معبد أسرة قيصر المقدسة ! ولكى يزيد الأمر وضوحا فانه حمل الناس على تداول عملة تمثل كليوباترا وهى تحمل قيصرون بين ذراعيها ، رمزا لفينوس وايروس •

بهذا التصور الرشيق ، الذى كشف عن طبيعته الشاعرية ، حـدد قيصر لمواطنى عاصـمته كيف يجب عليهم أن ينظروا الى عشيقته • وأشار الى ما يجب أن يعتنقوه حيال خططه ومشروعاته • وبعد قليل قدم للسـناتو قانونا يبيح له أن يتزوج زوجـات عديدات ، وفقا لمسلك الشرقيين •

وبالفهم الناضج الذى تفوق به على الملكة الشابة ، أبصر قيصر مقدما ما قد يترتب على الطلاق من عواقب غير سارة ، ومن ثم اختار هذه الوسيلة المبتكرة لـكى يكسب ابنه الشرعية وفقا للقانون الرومانى والقانون المصرى على السواء ، وعلى هذا النحو أرسى بشتى الوسائل ، الدعائم الدينية والتشريعية لأسرته •

كان انشاء قيصر لأسرة من صلبه ، وقبل ثمانية عشر شهرا من وفاته ، رغبته القلبية الخالصة ، وكان عليه ، قبل أن يقدر لهذه الأسرة أن تكتمل أن يخوض مع ذلك غمار مشروع عظيم فريد فى نوعه •

تتوتر أعصـاب كليوباترا ويزداد حذرها وترقبها • وكلما اندفع قيصر فى المخـاطرة ازدادت دقات قلبها وهواجسها على السواء • هل كان لا يزال لقيصر أصدقاء ؟ وبدت المسـافة التى تفصلها وتفصل قيصر عن المجتمع الرومانى تزداد هوتها اتساعا ، هذا الخريف • كان تمثال فينوس داعيا للسـاخطين الى مزيد من النقمة والحقد • وأصبح واضحا الآن ، أن الديكتاتور اختار امرأة أجنبية لتصبح أما لذريته ، بعـد أربع زيجات رومانية ، كانت ثمرتها الوحيدة بنتا توفيت منذ زمن بعيد • فأى شىء أكثر ألفة واتساقا مع سير الحوادث من أن يتوج قيصر نفسه بالضرورة ملكا لهذه الملكة ؟ كان قد عين نفسه من قبل قنصلا أوحد لمدة عام ، وفى الوقت نفسه جدد فترة حكمه المطلق عاما آخر ، حتى أنه كان يتمتع

بسلطان يفوق ما كان يحظى به صلا نفسه ! وقد ازداد التوقع قلقا وتوترا كما ازداد الخوف ، كان هناك احساس عام بالارتياب والاشفاق ، وارتسم الاجهاد والتوتر فى عيون الرجال ، وانطفأت جذوتهم وزادت قابليتهم للاثارة : كانت روما أمام الخطر الملكى وجها لوجه ، ولذلك كانت خائفة ·

لم تكن روما فحسب ، فلقد تجمع السخط كله بين الجنود بقيادة أبناء بومبى حتى أن الحرب الأهلية كانت لا تزال مضطردة ، وبعد انقضاء أربع سنوات على بدايتها · وفجأة ، وقد أوشكت خطط امتلاكه العالم أن تتحقق ، كان على الديكتاتور أن ينزل الميدان من جديد ويقود رومانيين ضد رومانيين · وكان هذا يعنى فراقا جديدا عن كليوباترا ، التى لم يكن أحد يبسط عليها حمايته المعنوية فى غياب قيصر عن روما · وما كانت تعرفه هو أن قيصر معتاد على هزيمة أعدائه · لكن ، ماذا لو أن سهما أو رمحا أصابه فقتله ؟ لم تعلمه السنوات أن يبقى على حياته فى المعركة ! هل كان لا يزال قويا قوة كافية ؟ كان الوقت شتاء ، والطرق على منحدرات الابينين وعرة ، وفى المعركة الاخيرة ، عند ثابسوس ، يصاب قيصر بتشنج مفاجىء · لقد افترق العاشقان بقلوب مفعمة بالألم ، وهوة الأجيال التى باعدت بينهما والتى ازدادت مع السنين عمقا ، لم تكن لتوصل — فيما بدا لهما — الا باللقاء · وعندما افترقا بدت له بعيدة كل البعد وشبحا يراه فى حلم من الأحلام ، وبدا لها رجلا مسنا ·

وحاولا أن يبقيا على اتصالهما بالمراسلات ، لكنهما كانا يعرفان ان الآخر قد أحاط صاحبه بعيونه سرا ، الأمر الذى كانا يتقبلانه بابتسام على ما يبدو · أفلم يكن محتملا أن تغوى شابا من شباب الرومان ، وأن تأسر أميرة أخرى بفتنتها الديكتاتور العظيم؟ فى فترة من الوقت كان قيصر يشغل وقت فراغه بمتع ذهنية ،

فكتب فى رحلته الى اسبانيا رسالته : « ضد كاتو » وهى هجوم على أيديولوجية الجمهوريين ، تلك الرسالة التى مجدها شيشرون • ثم أصبح قيصر بعد ذلك قائدا للجيش مرة أخرى ، وانغمس فى المعركة •

وفى الوقت ذاته كانت كليوباترا تحارب فى روما من أجله• ترى ، هل بقى له أصدقاء ؟ أو لم يكن يقترف غلطة أساسية وهو يحاول دائما نسيان أعدائه ؟ ان أنصار بومبى السابقين ، والتى كانت كليوباترا تشعر بنظراتهم الباردة ما ان تلقاهم ، يتجمعون فى هدوء ، اذ كانت عاقبة الحرب الأهلية الجديدة ما زالت غير مؤكدة ؛ وكل فريق يمنى نفسه ويطمح للفوز • وانتشر عملاء كليوباترا فى كل مكان ، واستمعوا الى مشاعر السخط تسود شوارع روما ؛ وتعقبوا الصامتين حتى منازلهم ، كانت تطلب تفسيرا لكل الأمثال والنكات الساخرة مهما بلغت من سوقية ،ذلك أنها كانت تحاول أن تكتشف حقيقة المزاج الشعبى الدارج وأن توازنه بمزاج المجتمع المتحضر •

ولقد حاولت ، بحرص ، أن ترصد فى المجتمع الراقى تقلبات الروح الحزبية • ففيم كان يفكر شيشرون ، الذى لا يزال من أقوى الاصوات نفوذا فى روما ؟ ظل بعيدا على الدوام عن طريق الأسد • والآن يهنئه على مقالته الجديدة ، والتى سرعان ما تداولها الناس فى روما ، وذلك لكى يكشف عن كرم مؤلف كبير نحو قائد مولع بالفنون والآداب • ولقد صمم فى الوقت نفسه على أن يمثل دور أرسطو الثانى أمام هذا الاسكندر الثانى • وكتب اليه خطابا معربا فيه عن أمله ، كالاغريق ، فى ألا يكون حكمه لروما الا كما يحكمها أول مواطن من مواطنيها فحسب • وتلك كانت وثيقة رسمية كتبت فى الحقيقة للخلف من بعده ، ومن أجل شهرته ومجده

بعد مماته • لكن المؤلف الشهير فضل أن يمسك هذا الخطـــاب التاريخي في اللحظة الاخيرة عملا بنصيحة مالى أريب ، فلم يرسله لقيصر •

عرفت كليوباترا بكل ذلك ، وما عرفته نقلته لقيصر ، الذى كان ، باعتباره فضوليا ككل الحكام المستبدين ، يسلى نفســـه بثرثرة العاصمة ، وعرفت أن بروتوس كان يعمل دائما بنصيحة صهره كاسيوس ويلازمه • ترى ما الذى كانت تدبره زوجتاهما واللتان كانتا لا تزالان ـ فيما يبدو ـ تعيشان فى كنف خليله قيصر السابقة سيرفيليا ؟

وعندما دخل كاسيوس الفيلا الواقعة خلف نهر التيبر ، وكان الجو اذ ذاك حارا بما يصعب معه الجلوس فى الحديقة ، قابلهـــا بملامحه الحادة وصوته الأجش ، وتلاقت عيونهما ولمعت ثم تلاقت مرة أخرى • ربما كان هذا الرجل الحديدى يقع من كليوباترا موقع الاستحسان والرضا ،وربما كانت اليونانية الرشيقة ألهبت حواسه قطعا ما لم يسقط بينهما ظل قيصر ـ ذلك الذى كانت تخوض من أجله معركة خفية لأنها عرفت منذ زمن طويل أن كاسيوس كان يضمر له الكراهية • والحقيقة أن الأسود هى التى كانت سببا فى ذلك • فبعد انتصار قيصر فى فاراساليوس رفضت « فيجارا » المدينة اليونانية أن تفتح أبوابها لرسله ، حتى أنه سلط عليهـا قذائفه فأطلق المواطنون الجياع ، فى آخر الأمر ، سراح زوجين من الأسود كان كاسيوس قد أحضرهما من افريقيـــة منذ وقت مضى وتركهما هناك ، ليتصارعا باسمه فى السيرك الرومانى . ويقبض رجال قيصر على الأسود ويعلنون ملكيتهم لها رافضين اعادتها .

ويعتبر كاسيوس سيدهم مشئولا ، فكيف تبلغ الجرأة بهذا القنصل على أن يسرق منه رمز القوة ـ ومنه هو ، الذى انقذ ما تبقى من

الجيش الروماني في فارس في الوقت الذي كان فيه قيصر في بلاد الغال يودي بحياة الألوف دون ما قصد أو غاية ! أبدا ! لن يغفر ذلك له !

هذا واحد آخر من الأعداء المنسيين ! وتفكر كليوباترا في الأمر وهي تلاحظ كاسيوس الذي كان واقفا أمام أحد الأعمدة . هو واحد من آخر أنصار بومبى صفح عنه قيصر سريعا ! وعندما كان يحارب تحت امرة بومبى ألم يحرق ثلاثين سفينة من اسطول قيصر ، في ميسينا ؟ وتفكر كليوباترا في كاسيوس : ان عيونه تشع بالغيرة ، أفلم يلاحظ قيصر ذلك ؟ أو تراه لا يرغب في ملاحظتها ؟ ان قيصر يبدو في نظر كل هؤلاء الشبان وقد كبر كثيرا على امتلاك كل ما يمتلكه ؛ فأحدهم يحقد عليه بسبب خليلته الأجنبية ، وآخر بسبب ابنه ، وثالث بسبب أسوده . ونظرتهم جميعا واحدة عندما تثار قضية الحرية . عندما كان بومبى يحكم هنا من قبل ، كانوا متحمسين جميعا لطاغيتهم ، ذلك الذى داس هذه الحرية ذاتها بأقدامه ، ولقد حارب كاسيوس ، هذا في الواقع ، حتى ضد قيصر في فاراساليوس ! هم شرذمة من المخادعين ، استقبلهم قيصر بعد ذلك ! فلو أنه أجهز عليهم جميعا بدلا من أن يصفح عنهم ، لما كان به اليوم حاجة الى أن يقاتل من جديد ! فان تجعله خططه لغزو العالم مستقبلا ينسى أعداء الأمس — فأن تكون حياته من السرعة بحيث لاتدع مجالا لكراهية أحد ، وأن يكون غير منتقم انما هو عيبه الوحيد الذى يميزه عنا نحن الملوك والملكات ! .

وتبصر كاسيوس يقترب من رجل طويل يناهز الأربعين ، لم تكن تثق فيه أيضا كما هو الشأن مع كاسيوس : ذلك هو ديسيموس بروتوس ، بروتوس الآخر الذى جعله قيصر الآن محظيا عنده أثيرا لديه برغم صغر سنه فعينه آدميرال البحر في رحلته الى بريطانيا

وفى المعركة ضد الفينيتى ، التى قيل انه حارب فيها ببراعة · مرتين يعين قيصر هذا الضابط اللامع ، الذى كان من حزبه بطبيعة الحال دائما ، يعينه حاكما لبلاد الغال فيساعده بذلك على أن ينال ملايين الأموال · فما الذى يمكن أن يكون منار الريبة فيه ؟ لا شيء سوى غطرسته المتزايدة · وفجأة التقت كليوباترا بنظرته وهو يتعقب قيصر عندما مر به · كانت نظرة مليئة بالنقد المرير الزرى ، ومع ان اختلاجة الاحتقار السريعة الصادرة عن شفتيه والتى اعقبت نظرته ، لم تدم سوى لحظة ، فانها كشفت لكليوباترا عن مكنون كراهيته لقيصر ، وذلك فى الوقت الذى أخذت كراهيتها له تزداد · وان لم تكن لتستطيع أن تصب انتقامها على أحد له حظوة عند قيصر ·

غير أن نظرتها الآن ، تتحول عن مجموعة الرجال ، الى امرأة هيفاء سوداء الشعر يبدو عليها الخيلاء كانت تقترب منهم ، وتبدو فى هيئة أكثر حدة وصلابة من ذى قبل ، هذه كانت أوكتافيا ـ ابنة اخت قيصر ـ التى كانت الملكة تنفر منها بقدرما تبغض أخاها الأصغر اوكتافيوس بمظهره الفج وعينيه الفاترتين · وبدأت تناقش مصارعة اليوم الماضى ، وعندما ضحكت كليوباترا وهى تتذكر الخرتيت الذى نطح المجرم ، غطت أوكتافيا الورعة عينيها بيدها · كانت المرأتان تعجبان ، فى نفس الوقت ، مما اذا كانت الأخرى لا تكبرها سنا ، ومما اذا كان الشعر الاسود أم الذهبى هو فى الحقيقة أكثر جاذبية ، وما الذى يوجد فى الأخرى على وجه الدقة والتحديد مما يجذب الرجال · كان كل شيء عن « المصرية » ـ كما كان يسميها أصدقاؤها ـ غريبا على اوكتافيا الصالحة الورعة ، وكان كل شيء عن أوكتافيا منفرا لكليوباترا ، ومع ذلك كانت مشاعرهما مختلفة تماما ·

وبابتسامات متكلفة سألت كل منهما الاخرى ، فى حجرات الاستقبال . عن آخر أنباء القتال فى الجبهة الاسبانية .

- ٥ -

عندما عاد قيصر ، فى الربيع ، ظافرا بدت السماء لحبيبته خالية من الغيوم . كان قد أباد العدو فى معركة « منسدا » وبدا كرجل استعاد شبابه . وكانت الملكة قد سمعت عن بدايات حب بينه وبين زوجة ملك موريتانيا .ولئن صح ذلك فيجب أن ينسى تلك المرأة الأجنبية سريعا ، فالرجل الذى تركته فى الشتاء عاشقا مكتئبا قد عاد الآن اليها شابا . لابد من أن القتال كان فى « مندا » حامى الوطيس فلقد أخبرها واحد من أتباعه المخلصين أن قيصر قد تقدم على رأس كتائبه المترددة ، لكنه فى المساء قال بهدوء : « فى أغلب الأحيان حاربت من أجل النصر ؛ أما اليوم فقد كنت أحارب من أجل حياتى » .

بيد أن الحادثة العظيمة التى ملأت أسماع روما والفوريوم لم تكن هى مسألة انتصاره ، فقد اعتبره الناس أمرا عاديا ، وانما كانت هى عودة الوئام بينه وبين انطونيوس .

ما أكثر ما سمعته كليوباترا فى روما عن انطونيوس ، ذلك أنه من بين أمور أخرى ؛ قد تحول خلال الأسابيع الأخيرة من الحزب القيصرى المعتدل الى الجناح اليسارى النشط ، وبهذا حرم هؤلاء الساخطين دوما من مبررهم الوحيد للبقاء مخلصين للدستور والحرية .

ربما كانت تفكر كليوباترا فى أنطونيوس . كان مثله مثل

خليلة تقف الى جانب العذال طالما كان حبيبها حاضرا ، ولكنه عندما يذهب الى الحرب من جديد ، يبدأ أولئك الجالسون فى وطنهم آمنين فى اتهامه فى كل ما يفعل ، وحينئذ تأتى اللحظة التى لا تطيق فيها غيابه أكثر من ذلك ، وذات يوم تجرى وتلقى بنفسها بين ذراعيه٠
ففى الحملتين ضد اتباع بومبى ، كان انطونيوس متحفظا وبمعزل عن قيصر ، وكانت كل رسالة تثيره : فلو علم أن أحد الضباط قد ارتكب خطأ كان يعرف أن ذلك أمرا ينبغى تجنبه ، ولم يكن ليطيق أن يراقب انتصار قيصر ، فمكانه الحقيقى هو أن يكون راكبا خلفه وملازما له الآن ! لكن ماذا بشأن الانتصار العظيم فى «مندا» مؤخرا، ومرة أخرى يعود الظافر الى وطنه ٠ لكم كان ذلك شديد الوقع على نفس أنطونيوس وركب أنطونيوس ليلقى قيصر عائدا فى مجده الى الوطن ، ويتذكر اليوم الذى التقى معه عند « الربيكون » ، عندما بدأ سويا مغامرة حياتهما العظيمة ـ الآن تحكى روما كلها كيف أن قيصر أخذه معه فى عربته ، وقضى معه يوما بأكمله ، ولم يكن قيصر الوحيد المسن ، أقل غنما من أنطونيوس ، بعودة الود القديم بينهما على هذا النحو ، وقد رأى بوضوح كاف أن دولابلا المتهور لا يكن له أى حب ومودة ٠ لقد استعاد أنطونيوس الرجل الوحيد الذى يمكنه أن ينقذ شخصيته القلقة من كارثة محققة ؛ وأكتسب قيصر صديقا ٠

ويراقب قيصر الملكة ، وباهتمام ، وهو يقص عليها الأمر ، ليرى كيف تتقبل الخبر من بين شفتيه ، لكن شكوكه تبددت كلها ٠ وبرغم أنه كان يشعر ، وهو فى القصر العائم بالنيل ، بغيرة غامضة من صديقه الغائب ، وهى غيرة ترجع الى سنوات مضت من زمن بعيد ، فانه ، وقد أصبح الآن أكثر قوة فى قمة مجده الراهن ، وللمرة الأولى لا ينازعه فى السلطان منازع ، يشـــعر بأن مجرد

حضوره كاف للتغلب على أى منافس· وفضلا عن ذلك فهو لايستطيع أن يفرق بين الشخصين الوحيدين اللذين يثق فيهما كل الثقة ، ومن هنا رأى ضرورة أن يجمع بينهما ، وقد كان ·

كان الوقت ربيعا أيضا عندما ذهب الرجلان لمقابلة الملكة وراء نهر « التيبر » ، وفى منتصف رواق السرو دلفوا من الأبواب الى الفيلا · ساعتها اهتزت مشاعر ثلاثتهم ·

احتضن قيصر محبوبته الرشيقة بنظرة المالك دون ماتحفظ وشعر بأنه يزداد غبطة بمديح رفيقه الشاب لها · وبسبب ما كان يبديه من حب أبوى نحو أنطونيوس ، اعتقد أن هـذا الأخير سوف ينظر الى مغامراته باحترام الابن لأبيه · وعلى هذا النحو من الثقة كان قيصر حتى أنه نسى أن يراقب الرجل والمرأة الواقفين أمامه ·

ورأى أنطونيوس بسـهولة المرأة التى كان ينحين الفرص لينظر اليها من بعيد · ويصبح أكثر قربا مما كانت تشعر به فى الغالب ؛ واليوم ، وللمرة الاولى يلمس يدها الرشـيقة الطويلة ويستطيع أن يتجرع حلاوة نظرها وابتسامتها وعطرها · منذ عشر سنوات مضت ، وعلى مائدة أبيها الملك ، كانت فى الرابعة عشرة · وهو اليوم ، بكل ما يزخر به من حيوية وقوة ، يفضل المرأة ذات الأربعة والعشرين عاما التى بلغتها · وبينما كان يشعر بها فقط كامرأة لم يحدث له ، وهو الذى امتلك نسوة كثيرات من قبل أن جرب حظه مع هذه المرأة · كما أنه لم يبح لنفسه ، فى حضـور قيصر ، أن يأتى بشىء ، فمجرد وجوده اليـوم يكفيه لكى يوجب احترام المرأة التى كانت تنتمى الى قيصر · أما كليوباترا التى أعاد سحرها الضيفين الى حالتهما الطبيعية بعد لحظة، فانها كانت الوحيدة بينهم التى ترى وتفهم الآخرين ، لأنها نسيت ذاتها فى لحظات توترها الجنسى الفائقة ــ كما نسيت ذاتها يوم أن نهضت من السجادة

المبسوطة أمام قيصر • وفي ومضة كانت حواسها اليقظه تقارن بين رجولة الرجلين اللذين كانا يمعنان النظر اليها •

ويغدو القائد الجميل الذى عرفته من زمن بعيد أكثر ظرفا اذ ذاك • كان رجلا فى الثامنة والثلاثين من عمره ، اكثر قوة وسطوة من ذى قبل ، تغطى رأسه جدائل الشعر وتحيط بخديه الممتلئين لحية ذهبية ؛ كان يبدو واثقا من نفسه ، وعلى وفاق مع الآلهة ومع الناس • وأحس الجانب الذى ورثته عن أجدادها ، أحس ذلك الجانب الذى يبحث الآن ومن جديد عن خلاصه ومنطلقه بانجذاب ، فى حضور هذا الرجل الممتلىء قوة وحياة ، الى ملذات لم تكن مثلهـا لتغريها قبلئذ ، حتى كانت تقصيها عنها بعيدا ، وفى حرارة الصيف فقط • غير أن الرجل الآخر ، ذلك الطويل النحيف ـ والذى لجسده العظمى قوة ضئيلة على ايقاظ الشهوة ـ هذا الرجل الذى صبغت جلده سنوات المعارك المضنية فتركت أثرها فيه ـ والذى بدا خداه النحيلان وذقنه الحاد وأنفه البارد كما كانت لمستهم تصدم المرء ـ بدا هذا الرجل الأصلع والذى يكبر الآخر بعشرين عاما ، بحيث تتدفق منه قوة آمرة جازمة ، وبحيث يملك ، فى ميدان الغرائز ، دفعة مبدعة بالغة القوة لا يمكن لذهن المرأة ، برغم كل فضـوله النظرى أن يشك فيها للحظة واحدة • شعرت كليوباترا أنه وحده الملك ـ من بين كليهما •

فى هذه اللحظات القليلة ، كان قيصر قد أحرز ـ دون فطنـة منه ـ أعظم انتصار له ـ ذلك هو الانتصار على صديقه وعلى خليلته ، على الرجل والمرأة اللذين اختارهما •

غير أنه كانت لهذا الصديق زوجة ، ولم تكن الملكة لتحتمل فولفيا هذه • هى لا تستطيع أن تفهم كيف يمكن لواحدة من بنات الطبقة الوسطى أن تطمح الى مقام الملكة • وحيث ارتفع بها طموحها الخاص الى العرش ، وسط مؤامرات المنافقين ؛ وجذبها فى السنتين الأخيرتين فى اتجاه السلطة بغير حد ، فان احساسها بمنزلتها كملكة رفعها فوق كل الآخرين عاليا حتى أن المواطنين والعبيد كانوا بالنسبة لها سواء بعدا وضعة • واعتبرت قيصر الاستثناء الوحيد فيهم ، غير أنه فى نهاية الأمر كان ينحدر أصله من فينوس • فلماذا التباهى بين الأسر القديمة ، فى هذه الجمهورية ، على هذا النحو بأصلها العريق ؟ ألم يكونوا جميعا أقرباء ، وكان أكثر أعضاء البيوت الرومانية شهرة ، رجالا ونساء ، يتزاوجون فيما بينهم ويطلقون ويعقدون زيجات سياسية من جديد ؟ والآن وقد انقضت سنة كاملة على اقامتها فى روما لم تكن الرذيلة وفساد الاخلاق هو ما يحير الملكة ، بل الذى أدهشها قليلا هو أن معظم أمور الحب كان يقررها المال ، وحالات الطلاق تقررها المصالح الحزبية •

لم يكن فى فولفيا من الانوثة شىء ، فى الحقيقة ، غير جسدها وفيما يرويه أحد الكتاب القدماء « فان طموحها كان أن تحكم هؤلاء الذين يحكمون ، وأن تسيطر على قادة الجيوش » • ومع ذلك لم تكن تجذب الرجال الفاترين ذوى المطامح ممن هم على شاكلتها ، ولقد تزوجت ثلاثة رجال مطلقين على التوالى ، وهى الآن أم لأطفال أربعة ؛ ثمرة تلك الزيجات الثلاث ، ولم تزل بعد فى العشرينات • هل كان زوجها الأول أو الثانى هو الأكثر عيبا وفسادا ؟ تلك مسألة كانت مثار ثرثرة الناس فى روما ؛ كان دوريوس ، الصديق الحميم

لأنطونيوس قد خسر ثروته على أية حال ، ثم زوجته بعد ذلك في مساومة ؛ ولم يتزوجها أنطونيوس الا بعد أن حرمه دولابلا ، ثالث الندماء ، من زوجته أنطونيا • وكانت لمثل هذه الامور نتائج حاسمة فالرجل يسهل عليه أن يصبح ناظرا عموميا أو قنصلا بما يكون له من صلات ذات نفوذ ، والرجل الذى يطلق أو يلقى خيانة كان يدلى بصوته فى مجلس السناتو لصالح العدو •

وكلما سبرت الملكة أغوار السياسات الحزبية في روما شعرت بالاحتقار الشديد لسلطان يقوم على نظام الاقتراع السرى ، الذى يمكن أن يشترى على الدوام بالرشوة وبالميراث وبالزواج والطلاق وبالتبنى • كان كل شىء يميل الى أن ترتبط سياستها مباشرة بالغاء قيصر للدستور واقامة نظام ملكى • لكنها كانت من الذكاء الشديد بحيث لا تثق الا فى القيصر وحده • ولقد قبلت صداقة أنطونيوس ، وحتى صداقة فولفيا لكراهيتهم جميعا أعداء قيصر ، وعدم ثقتهم فى الرجال والنساء موضع الريب ، فى الوقت الذى ظل فيه أصدقاء قيصر الجدد حانقين عليه ، وعليها بالتبعية• والآن أبصرت ما يبرر احساسها ، فقد علمت أن انطونيوس يكره شيشرون لأنه حكم على زوج أمه الثانى بالموت ، ذلك فضلا عن أن هذا المدافع العظيم عن الأخلاق كان يضاجع عبده الأثير « تيرون »•

وعندما حدثها قيصر ذات مساء عن مباذل أنطونيوس ومفاسده ــ وكيف أنه ، فى اليوم التالى لحفل زواج الممثل الهزلى هيبياس ، تقيأ من فرط الشراب ــ وهو يخطب فى الناس فى الفوريوم ، وكيف أنه أرسل ، فى مناسبة أخرى ، مغنيات ليرددن الأغانى الخليعة خارج بيوت الأسر الفاضلة ايقاظا لهم ــ فان البطل الدينيزيوزى راق لها بقصصه هذه ــ أكثر مما كان يروق لها شيشرون وبروتوس مائة مرة ــ وكثيرا ما كانت تسر الى قيصر بما

تراه • ويبتسم قيصر ، بالطبع ؛ مضيفا فى نغمة أبوية قائلا ان بروتوس فيلسوف عميق ، وان أنطونيوس قاد الميسرة الى النصر فى موقعه فارساليوس لكنه لم يذكر أبدا ، ابن أخته ، أوكتافيوس، لأنه قرأ بغض الملكة الصامت له ، وكرجل نبيل صمم قيصر على أن يحمى أسرته من النقد ، حتى ولو كان هذا النقد صادرا من كليوباترا •

لكن تظهر الى الوجود الآن ، أمام عينيه ، ووفاقا لرغبته ، عائلة جديدة ، وعندما ابصرت الملكة نظرته تستقر على الطفل ، الذى كان فى عامه الثالث ، والذى كان يشبهه « شبها ساخرا » ، فيما يرويه لنا أحد الكتاب القدماء ، عند ذلك عرفت كليوباترا حقيقة خططه ، برغم ما يبدو من عرقلة المشكلات الحزبية لها • كانت كليوباترا تقيم فى جزيرة لا يمكن أن تتطاول اليها يد أحد ، ويد قيصر تظللها بحمايتها برغم مئات الدسائس المحيطة • وبينما كانت ترقبها عيون الفضوليين الحاقدين كان يحميها صديقها الأوحد ـ وفى هذه السنة الثانية من اقامتها فى روما تغدو كليوباترا أكثر كبرياء وغطرسة • نادرا ما كانت فيلتها وحدائقها تفتح لزوار روما • وأصبحت هذه الغريبة التى استقبلها المجتمع الرومانى ملكة تحيط بها حاشيتها ؛ وكان شيشرون يدعوها فى رسائله ، ببساطة ، « بالملكة » •

وهى اذ توقعت أن يلغى قيصر الدستور ، ولم يكن هنالك شىء يمانعه من ذلك ، تخلصت من العقبة الشكلية الأخيرة التى كانت تعترض زواجها . ولسنا نعرف شيئا على وجه اليقين ، غير أن هنالك حقيقة بينة ، وهى أن أخاها بطليموس الصغير اختفى فى هذا الوقت تقريبا ، وفى خريف عامها الثانى بروما . فمن المؤكد أنه لم يسهل ان تتزوج من قيصر بأن يطلقها أخوها وزوجها الشرعى ، بل بالأحرى كان سيؤلب عليها أعداءها من

الرومان والمصريين . قلما تبقى عليه اذن ؟ لم يكن أبدا زوجـا فعليا لها ، وكانت طفولتها قد انقضت عند ولادته ، بعد ولادة أخته باثنى عشر عاما ، كانت أمه مجهولة وأبوه غريب الأطوار . ولم يكن ثمة شيء بين البطـالمة ـ من قبيل ما يعرف بالحب العائلى . فما الذى يمنعها اذن من التخلص من هذا الصبى الذى كان يقف فى طريقها ؟ ألكونه أخا لها ؟ لكن ، أى قانون أخـلاقى كان سيروعها ما دامت آلهة مصر واليونان ، وهى التى تشبعت بأساطيرهم ، اعتادت على قتل من تربطهم بهم صلات الدم بنفس السرعة التى يقدم بها على ذلك نبلاء الرومان ممن تحيا الآن بين ظهرانيهم ؟

اختفى بطليموس وأصبح الطريق ممهدا أمام كليوباترا !

- ٧ -

ومع ذلك فقد كان هنالك بين الاثنين ظل حائل ، برغم ما يبدو من أنه قدر لهما أن يبلغا القمة الباهرة للسعادة الدنيوية. كان ذلك الظل ظـل الاسـكندر . وقد عقد قيصر العزم على أن يمشى على دربه ويترسم خطاه .

ومنذ أيام شبابه وهو يرى فى الاسكندر مثاله الوحيد ، غير أن كل شيء عنه كان أسطوريا ومنقطع النظير . قد ينتخب المرء فى روما قنصلا ، يشاركه فى هذا المنصب رومانى آخر ، وربمـا يعاد انتخابه مرات قليلة متتالية ، لكنها تكون دائما لسنة واحدة فحسب . وماذا يستطيع المرء أن يفعل فى سنة واحدة قصيرة ! ولو أن أحدا فتح اقليما أو حتى ثلاثة أقاليم ، على نحو ما فعل قيصر ، فسيظل هنالك واليا لسنوات قليلة ، ولكن الحكومـة

المركزية كانت تنحيه ان آجلا أو عاجلا . أكان لصلا أو بومبى الحول والطول ؟ أو لم تقضى الأحزاب عليهما ؟ كلا ، لم يكن بالامكان ان يبرز رجل كالاسكندر فى جمهورية من الجمهوريات .

عندما أخضعت الحرب الأهلية الطويلة المواطنين للجنود ، والقوانين لمقتضيات المعركة - عندما بلغ قيصر بانتصاره فى فارساليوس مرتبة لم يبلغها أى عاهل رومانى من قبل - عند ذلك فقط كان بوسعه أن يبدأ نسج أشواق شبابه الرومانتيكية لتصبح سياسة ديكتاتور مسن ناضج . فى هذه السنوات الثلاث كان قيصر يقترب بسرعة من انجازات الاسكندر . فى النيل ، وفى القصر العائم على مياهه ، بجانب قبر الاسكندر بدت روح الاسكندر وقد أتت تناجيه ليكمل ما بدأه فقط فى فارساليوس . كان التفكير فى ركوب الاسكندر الى كاهن آمون فى الصحراء ، قد ملأه بأحاسيس المجد والعظمة ، وكشف للمتشكك عما كان بوسعه أن يفعله فى هذه السن الواعية المستنيرة . وكان تأسيس عاصمة الامبراطورية الشرقية فى أقصى الطرف الغربى متمثلا فى روما الذى كان موقعها ، خلافا لرغبته فى أغلب الأمر ، كان ذلك يدفعه دائما ، والى الآن ، صوب الشمال .

قضى قيصر مطلع شبابه ، وحارب معاركه الأولى فى معسكر الملك نيقوميدس ، والذى لا يزال موضع سخرية من أجل حبه له، والآن بلغ قيصر من العمر مبلغا . فما موضع العجب - وهو يسعى نحو تمام غايته - فى أن يشغله الجنوب ، مرة أخرى بكل ذكريات شبابه الأول الزاهية - الجنوب ، وروح البحر المتوسط والدفء والسماء الزرقاء والتى بدت تداعب خيال هذا الجندى العجوز وجسده الشاحب برأسه الأصلع ، فتبرىء أسقامه وتكون له بردا وسلاما وترجع به الى أيام الشباب ! لقد تساءل فى حيرة ، وهو فى أغنى بلاد العالم وأجملها ، وعلى مياه النيل

الهادئة ، لماذا أضاع أحلى سنوات عمره فى غابات « تيوتونية » وبين شعوب الألب المتوحشين ، ولماذا حارب البريطانيين المشاكسين فى جزيرة الضباب . وهنالك في الجنوب افيسوس وتارسوس ، تتلألآن ببركة الآلهة القدماء ، والجزر التى تغمرهما أشعة الشمس ويلطفها نسيم بحر هادىء ، وهنالك كريت وقبرص وانطاكيا وأثينا تدعو الأجنبى الفاتح الى مائدة الفطنة والعقل ، كانت تدعوه الى أن يتذوق حضارة انضج بدلا من أن يستعرض صرامته وقسوته . كان الاسكندر والبحر المتوسط كلاهما يناديان الجندى العجوز ليقبل ناحية الشرق .

ولا يذوق الفاتح طعم الراحة مطلقا . ولا يمضى الفاتح الجسور الذى يضيف فى شبابه نصرا الى نصر ويقهر الأمم ، دون عقاب ، فان ظلال انتصاراته تلاحقه ، كما تلاحق النساء دون جوان ، وهى لن تدعه يحيا آمنا فى هدوء . فما دام أقام سلطانه على السيف فعليه اذن أن يجرده دائما من جديد ، والعالم يطالب أبطاله دوما أن يكرروا بطولاتهم . فلئن رغب فى أن ينال التاج وأن يؤسس ، كما أسس الاسكندر امبراطورية عالمية وأن يقيم أسرة حاكمة ، الآن وهو يدنو من الستين عاما ، فلن تغدو انتصاراته القديمة كافية بعد . ولقد شعر أن الجمهورية لن تضحي بحرياتها الاخيرة الا لمن يحرز انتصارات جديدة حاسمة، ولن تسلم قيادها الا لمن يقهر فارس ، وذلك كما هو الشأن فى الأساطير القديمة عن العذراء التى لا تسلم نفسها الا بعد أن يواصل بطلها أشد المخاطر هولا .

ذلك لأن فارس ، مسرح انتصارات الاسكندر ، كانت أيضا هى المنافس الأزلى القوى الذى لا يقهر ، المنافس الذى كان على الجمهورية الرومانية العاتية أن تعانى منه منذ سقوط قرطاجنة. وتتابعت الحملات ، منذ نصف قرن وحتى الآن ، وتحقق لصلا

وبومبى الظفر لبعض الوقت . وقتـل لوكيوس وكراسيوس .
ولقد وجد عشرة آلاف يعيشون وهم يقاسون موت أو عبودية
اقاربهم منذ أن وقعت الكارثة الأخيرة ، التى لحقت بهم ، منـذ
ثمانى سنوات فقط . ولقد أتاح كراسيوس العجـوز ، بسبب
انتصار بومبى ، لنفسه أن يبلغ حتفه ومعه أربعون ألف رجـل
فحسب حاول أن يهزم بهم الامبراطورية الفارسية . ولقـد
أبصر رأس ابنه محمولة أمامه ، ومثبتة فى طرف رمح ، بعد أن
أوقع به الجيش الظافر ، ثم ما لبث هو أن سقط فى النهـاية
قتيلا فى زراية واحتقار . وظلت النسور والألوية ــ شـعارات
روما ــ مع أجساد القتلى فى فارس ، ومنذ ذلك اليوم كان ينبغى
على من يفـكر فى كسب ولاء الشـعب أن يخطط حربا للانتقام من
العدو الأسيوى .

ولم يكن ليعطل هذه الاستعدادات فى بلدهم غـير الحـرب
الأهلية فحسب . واليوم ، وطالما أن قيصر بقى وحده فى مركز
السلطة ، فان الشعب يتوقع منه العمل الحقيقى ، الذى كان
يتحرى شوقا اليه ويرجوه من الأعماق ، ويظل الشعب كذلك
الى أن يأخذ على عاتقه عبء انجازه . ولقد أدرك المقدر الحصيف
هذه الميزة فى الوقت نفسه ، فعلى الرغم من كل ما حققـه من
أمجاد انتصاراته فى اسبانيا ، لم يكن قد دفع لكتائبه رواتبهـا
حتى الآن ، وهذه البلاد الاسطورية تفيض بالذهب ، كما أن الهند
كانت متاخمة لفارس ، والهند ، فيما يعتقد فى تلك الأيام ، كانت
بلدا سـاحرا يطفح بالذهب وبالثروة ، ثمت دوافـع متباينة ــ
سياسية ــ ورومانتيكية ــ وأسرية كلها تشير لقيصر الى طريق
فارس ، الى العدو التقليدى لروما .

درس قيصر بعناية ، باعتباره قائدا ، أسـباب فشـل
كراسيوس . أفزعت كراسيوس شـائعات عن قوس هـائلة يطلق

منها الفرس سهامهم من مسافة لم يكن بمقدور أحد فى تلك الأيام أن يبلغها ، وأجبروه على لقائهم ، بعد مسيرة بدت بغير نهاية ، وشهرا بعد شهر كان العدو قد انسحب داخل أرضـــه التى لا تحدها حدود . ويعطى قيصر لنفسه مهلة ثلاث سنوات كاملة، وهو الذى لم تستغرق أحدث حملاته سوى أشهر قليلة ، فلم يكن هدف خططه البعيد أن يقف حتى حـدود الفرات أو حتى الهند . اذ بعد اخضاع الأقطار الشرقية التى أخضعها الاسكندر من قبل ، كان ينوى مواصلة السير عبر « هيركانيا » ، والى بحر الخزر مجتازا القوقاز فى أرض السيثيين Scythains المجاورين للجرمان ، ثم يهاجم الجرمان أنفسهم ، وســوف يعود الى روما عن طريق بلاد الغال Gaul فتصبح الامبراطورية الرومانيـــة ولا حدود تحدها على ذلك سوى المحيط . لمثل هذه الأهداف العظيمة الهائلة بدأ قيصر ، يجمع الذهب ، من بيـــع الاراضى ، ويقيم فى موانى البحر المتوسط كلها ترسانات أسلحة ، وحـالما أصبحت ايطاليا كلهـــا على قـدم وساق استعدادا للحرب . لكن أحدا لم يكن أكثر انشغالا من قيصر ذاته ، وهذه الخطة لانشاء امبراطورية عالمية تقتضى منه أن يبذل أقصى طاقاته . وفى هذا يتحدث بلوتارك ، بأسلوبه الأخاذ عن « غيرة قيصر من نفســه وخصامه لنفسه (كما لو كان ينازل شخصا آخر ويغـــار من شخص آخر) لكى يجعل انجـازاته المرتقبة تفـــوق كل مآثره الماضية » .

وتراقبه كليوباترا بدهشة وريبـة . فلئن كانت خطة قيصر هى أن يؤسس أسرة تحكم العالم من بعده ، فان كليوباترا المرأة المترجلة واشد النساء شجاعة وجرأة ، سرعان ما تصبح أما ، وقـد تخشى ألف خطر يتهـددها . وكانت تدرك أن سؤالها لقيصر لا يجدى ، ولأنه كان يثق فيها كما لم يثق فى أى شخص آخر من

قبل ، فلم تجرؤ على مجادلته فى قضية محددة ، كانت تعرف ما يقصد فى الحقيقة اليه ، كان يفكر فى التاج ، وفى قيصرون ، ومع ذلك فقد كان يبدو لها فى بعض الأحيان ولم ينته بعد الى قرار يختص بأعماله المستقبلة .

فى ذلك الوقت ، نظر الرومان فى دهشة وريبة الى أمر من الأمور ، كان قيصر يصدر من غرفته سيلا من الأوامر الى ابعد الولايات . ترى ، هل كان يشعر بأن هذه السنة ستكون نهاية سعيه ؟ أم كان يشعر فحسب ، بأنه يستطيع الآن ، وللمرة الأولى ، بعد أن قهر آخر أنصار بومبى ، أن يحكم كملك غير منصاع الا لتصوراته الخاصة ؟ وبدا قيصر ، وقد استحوذ عليه ضيق ونفاذ صبر لم يتعوده أبدا ، بحيث كان يحفزه الى أن يمتلك ناصية كل شىء فى قبضته : المالية والاصلاح والتعمير والحرب العالمية . وذات صباح علم الرومان أن قيصر يعمل على تحويل « الاينو » و « التيبر » الى خارج المدينة عن طريق قنوات عميقة ، وعلى تغيير مجراهما ليصبا فى البحر عند « تيراسينا » . وفى صباح يوم آخر أذيع فى روما أن قيصر ينوى تصريف المستنقعات حول « بونينيوم » و « سيتا » ، وبهذا يخلق تربة خصبة من أجل آلاف المواطنين . وفى صباح يوم ثالث أذيع قرار بأن قيصر يهدف الى بناء الكامبوس مارتيوس كله وأن يقيم أيضا مسرحا على صخرة تاربيان ، أروع من المسرح الذى شيده بومبى . وفى غضون الأسابيع التالية تصدر الأوامر الى فارو باقامة مكتبات فى كل أحياء العاصمة ، تحوى كتبا بمختلف اللغات . وفى الوقت نفسه عين قيصر طائفة من المهندسين ليشرفوا على تنفيذ ميناء رومانى جديد عند « أوستيا » ، وسوف يمكن التحكم فى مياه البحر باقامة سدود ، وسوف تبنى أحواض للسفن ، وسوف

تمهد كل الشعب الصخرية الخطرة وغير المرئيـــة وكل الأماكن الضحلة .

لكن ذهنه كان مشغولا أيضا بما هو أبعد من روما بكثير ، كان بصدد تنفيذ أعظم خططه ومشروعاته . وكان يعمـــل على وضع مجموعة كاملة للقوانين ـ أول مجموعة تشريعية ـ وعلى انشاء طريق عظيم عبر جبال الأبينين ، كذلك . ووقعت عيناه على البيلوبونيز فصمم على أن يحفر برزخ كورينثه وأن يعيـــد بنـاء المدينة ، واستقرت عيناه على افريقيا المغلوبة فقرر أن يعيد الحياة الى قرطاجنة ، التى كانت قد دمرت عند ســـقوط كورينثة . ترى ، ما الذى يمكن انجازه فى هذه السنة الواحدة الطويلة ! لقد منح الفلكيون المصريون ، الذين استقدمتهم كليوباترا لابتكار تقويم جديد ، منحوا سيد العالم سنة عدتها خمسة عشر شهرا ، لكى يتطابق التقويم مع الدورة الشمسية ، وتكون نهاية لما ساد المئة سنة الأخيرة من اضطراب وفوضى فى عدد السنين والحساب ، ولوضع تقديم جديد يصلح لآلاف السنين القادمة ـ وذلك هو التقويم الذى نتبعه اليوم ، والذى جعل منه الســـنة الأخيرة فى حياة قيصر أطول سنوات عمره جميعها . ولقد ساد هذا التقـــويم بعد ذلك كما لو أن التاريخ لم يكن راغبا فى أن يتخلى عنه .

- ٨ -

ولئن كانت هذه الأشياء كلها نتيجة خيال مبدع فهى أيضا ثمرة حكمة سياسية وكان سر عظمة قيصر يكمن فى الوحدة التى الف فيها بين الخيال وادارة سياسة الدولة . أراد أن يعطى الخبز لعشرة آلاف من العمال المتعطلين فأمرهم باقامة منشآت عامة

عظيمة . وانضوى تحت لوائه صناع وعمال من كل طائفة ، لكى يحاربوا في السنة القادمة ، وليعملوا أيضا فى مشروعاته العمرانية. وفرض فرضا اجبـــاريا تدفعه المدن ، وجعل من كل الالتزامات واجبـــا قوميا ، وسن قانونا يجبر الأغنيـــاء على شراء أرض من الدولة وذلك لكى يتمكن من أن يدفع ثلاثمائة « سيستيريس » لكل جندى من الجنود الأربعين ألفا الذين وعدهم بالأرض والمال قبل معركة فارساليوس ، وبما أنه كان ملكا فقد أضاف لكل منهم مائة سيستيريس أخرى ، كفائدة .

ولم تكن كل هذه الأموال موجودة فى الواقع ! ربما توجد فى فارس ، ربما فى الهند . وحيث لم يكن أحد راضيا فى نهاية هذه الحرب ، كما فى أعقاب كل حرب أهلية ، بل كان الجميع يشعرون بشىء من الاحباط وخيبة الأمل ، فان الظافر كان مدفوعا الى أن يحقق مزيدا من الانتصارات ، وكلما ازداد اقترابا من أن يصـبح ملكا ، كلما أصبح أكثر تحمسا واستعدادا لكسب مثل هــذه الخطوة عند الشعب على نحو لم يكن ليعوزه لو أنه ولـد وعلى رأسه التاج . ولم تستطع كليوباترا ، وهى ترقبـــه فى عجب ودهشة ، أن تقطع بما اذا كانت خططه هذه كلها مبعثها حبـه للناس أم احتقاره لهم .

كان احتفال قيصر بانتصاره الجديد فى أســبانيا مدعاة لذهول الكثيرين حتى من بين فئات الشـــعب ، فقد كان الانتصار انتصار رومان على رومان مثلهم . وعندما وجد نفسه ، بعـد فارساليوس ، فى موقف مماثل تجنب اقامة احتفال عام بالنصر . ولكن روما شغلت ــ هذه المرة الأولى بمأدبة كبيرة جدا قدمت فيها خمور ايطـالية وأعقبتها عروض مصارعة وألعـاب لم تشـهد روما مثلها من قبل ، غير أنه فى هذه المرة سمح لخمســة آلاف جندى فعلا أن يظهروا فى حلبة السيرك ، ثم أعقبهم رجـال من

مرتبة البريتور حاربوا حتى الموت ، وأخيرا رقص أبنـــاء أمراء آسيا الصغرى رقصة الحرب . وبينما كان المجتمـع الرومانى لا يزال يشعر بالقلق والانزعاج لمظاهر الزهو والكبرياء هذه ، أعلن قيصر عفوه الشامل عن كل انصار بومبى الســـابقين واعادة ممتلكاتهم المصادرة الى أبنائهم وأراملهم ، وفى الحقيقة ، أقـام قيصر فى أحد المعابد تمثالا لبومبى عدوه اللـدود ، الذى انتصر عليه الآن ، فى نهاية الأمر ، فى شخص ابنائه · وكان هذا عملا نبيلا حقـا حتى أن شيشرون كتب يقول : « باقامة هـــذا التمثال ثبت قيصر دعائم سلطانه على أساس راسخ مكين » .

مثل هذه الأعمال الملهمة جعلت كليوباترا فى دهشة من أمره ، وبسذاجتها الساخرة وهى التى مارست من أيام طفولتها الطريقة المتوارثة فى حماية حياتها بالانتقام من أعدائها ، بدأت تخشى على صديقها ، أكثر من ذى قبل ، عندما رأته مصرا على أن يعفو عن أعـــدائه .

ما الذى كان يقصد اليه ، فى الحقيقة ، وهو يستعد لمعركة عظيمة بتركه هؤلاء الساخطين جميعا فى مؤخرته ، هؤلاء الذين ما سعوا اليه الا طمعا فى الذهب أو فى المنصب ؟ أمن الممكن أن يعين بروتوس وكاسيوس بريتورز ، بدلا من أن يقصيهم ، على أقل تقدير ، ولاة لأبعد الأقاليم ؟! وهنا صممت كليـوباترا على أن تحذر قيصر . ولن يتم ذلك من خلال انطونيوس ، اذ ربمــا لا يفهم التحذير على حقيقته ولا يأخذه مأخذ الجد فيفســد الأمر كله .

كان هذا فى احدى الأمسيات الشتوية ، التى يحتمل أن يكون قضى مثلها من قبل يرتعد وحيدا فى معسكره الأســـبانى، على حين أنه مما يسره هذا العام أن يستمتع على الدوام بوقته فى الفيلا وراء نهر التيبر .

وما أن انقضى اليوم بضوضائه وضجيجه ، وبمئات الوجوه الدنيئة أو الشجاعة ، والحذرة أو المتوسلة ، التى مرت أمام ناظريه ، حتى وجد فى نفسه حنينا الى صوتها والى نظراتها العسلية المشرقة التى كان لمعانها يتحول فى ذلك الوقت الى بريق، والى روعة زيها وعطرها ، والى أضوائها وايوانها ، وعندما وقع بصره على ابنه مرت فترة راحة وصمت ظهر أنه يستنشق عبيرها على مهل بأنفاس عميقة . تريثت كليو باترا طويلا ، حتى فى هذه الفرصة السانحة ، قبل أن تدلى اليه بتحذيرها وهى تختار كلماتها بفتور بينما كانت تجلس على مقعدها أمامه . ربما بدا هذا التحذير — فى موضوعيته الفاترة — كأحد البلاغات الحربية ما لم يكن صادرا بصوتها العذب ، حينذاك .

استمع اليها صامتا دون حراك ، وربما تمتم اذ ذاك ببعض الكلمات التى رواها عنه شيشرون وأبيان ، فى هذه الأشهر الثلاثة الأخيرة من حياته ، أجابها قيصر بقوله : « لقد امتد بى العمر . وانه لأفضل لى أن أموت مرة واحدة ، من أن أنتظر الموت دوما » .

ومع ذلك . فان مثل هذه الكلمات لم تكن لتعبر الا عن تلك الحالة من الاكتئات التى تنتاب ، من وقت لآخر ، من يلتمس الفداء من الزمن ومن الموت . وبوسعنا أن نستنتج كيف أنه رسم لها حدود الأخطار التى تهدده . أو ربما يكون قد قفز فجأة فى حيوية وشباب ، ليقص عليها خبر مؤامرة شارك فيها بنفسه عندما كان شابا ، مع كراسيوس وصديقين آخرين ؟ فقد كان مقررا أن يدخلوا السناتو ، مسلحين بالخناجر ، وعندما تصدر الاشارة ينقضون على كل أعضائه المقيدين فى القائمة ، وكانت تلك الاشارة التى كلف بها قيصر ، هى أن يلقى عباءته من فوق كتفه ،

كاشفا عن صدره . وبعدها يصبح كراسيوس ديكتاتورا ويصبح قيصر قائدا للفرسان . فى اللحظة الأخيرة جبن كراســيوس ولم يحضر !

وفى مناسبة أخرى كانت المؤامرة ضد قيصر نفسه ! ولقد أخبرها كيف أنه ، عند نظر مؤامرة كاتيلينا ، فيما بعد ، تكلم فى مجلس السناتو ذاته ، معارضــــا حكم الموت الذى قضى به شيشرون ساعتها اندفع نحوه جمع من أعضاء السناتو الساخطين والسيوف فى أيديهم ، ولم ينقذ الرجل الأعزل سوى أولئك الذين كانوا يقفون الى جواره حينما ألقوا بأنفســـهم فى طريق القتلة ومضى وقت طويل قبل أن يدخل قيصر المجلس مرة أخرى . كل ذلك أخبرها قيصر به ليجعلها تفهم فحسب انه ليس هنـالك من هو أعرف منه بمثل هذه الأحابيل ، وليس بها من حاجـــة الى تحذيره . صمتت الملكة . فلم يكن بوسعها أن تدعى ضد هؤلاء الناس شيئا سوى ما تحسه بغريزتها ، تلك التى تسبق أفكار الرجل غالبا .

عندما يخلو قيصر الى نفسه مرة اخرى ، ربما وهو عائد الى منزله بعد أن غادر الفيلا ، يتذكر على طريقة الجندى كل واحد من هؤلاء الرجال الثلاثة الذين ساورت الملكة فى أمرهم الشكوك ، يتذكر الوجه والطباع والتاريخ السابق . أكاسيوس ؟ لقد أتى عملا عظيما خلال السنوات الثلاث الأخيرة ، كان حريقه للسفن ضربة فى الصميم . هو شديد الشحوب ، وصـــديق حميم لشيشرون ، فهذا حق . لا شك فى أنه مستاء لأننى لست شديد الألفة والمودة نحوه . لكن أيكون هذا سببا لاقصاء واحد من الرجال القلائل ؟ سوف يكون بريتورا فى الســنة القـــادمة . ثم ديسيميوس بروتوس ! لقد صمد لاختبار عشرين عاما ، هو لا يفقد رشده أبدا ، كان لا يزال يصـــدر أوامره الى الرجال عندما جرفته

الأمواج على الشاطىء البريطانى . هو قائد لا غنى عنه ، ويلى انطونيوس مباشرة ، وان كان يفضله فى أنه لا يشرب الخمر . لقد ولد هذا الرجل قنصلا . كان اسمه فى القائمة من قبل !

وبروتوس أيضا ؟ ذلك ما لا تفهمه . وتلك مسألة عجيبة . أربما تكون غيرة قديمة ؟ لكنها لم تكن ولدت بعد عندما كنت أنا وأم بروتوس .. كانت أصغر بكثير من أن تفهم شيئا . ما الذى يعنيه الظن بأنه ربما يكون ابنى ، عندما كنت أشعر بارتباط عميق نحو أمه ، ودون أن أعرف يقينا أنه يكون كذلك ـ هى لا تزال شغوفة جدا بأن تفهم الحقيقة . كانت كورنيلا ـ حب شبابى الأول ، وكانت أم بروتوس الثانية ، وكليوباترا هى ثالث من أحببت . ان اعتلال صحتى يتزايد . ربما يسقط المرء ميتا فى أية لحظة .

- ٩ -

تزايد قلق الملكة فى الشهور الأخيرة من الشتاء . وكلما أصبح قيصر أكثر ضيقا وغما ، تعاظم رجاؤها وخوفها . هى لم تكن تطمح فى أقل من السيطرة على العالم ، غير أن خصمها الوحيد كان هو ، فى الغالب ، عمر قيصر . فهل باستطاعة رجل قارب نهاية العقد السادس من عمره أن يقهر العالم ، بصحبة امرأة فى الخامسة والعشرين وابن يتعلم نطق الكلمات ؟ وهل ما زالت طاقته المبدعة من القوة بحيث تتغلب على ضعف صحته وغيرة معاونيه من الضباط وحقد المنهزمين ، وعناء الحرب فى فى مناطق حارة ؟ ان قيصر وهو يبصر رءوس ضباطه السمراء بشعرها الغزير الأسمر ويقارنها برأسه الأصلع كما يراها في المرآة أو كما يتخيلها ، عند ذلك يحس أنه اكبر الرجال سنا

فى روما كلها ، ومن حوله شباب · ولا يستطيع ، بكل سطوته وجبروته ، أن يستعير لنفسه شعرهم وأسنانهم وخطوهم القوى الواثق ونفسهم العميق . وعندما كانت أصابعه الطويلة تتخلل جدائل شعر معشوقته الذهبى ، أو عندما كان يمسح على رأس ابنه الناعمة الحريرية الملمس ، عند ذلك يحسد زيوس فالآلهة وحدها هى التى تستطيع أن تعيش شبابها أبدا .

ان ما يخاطر فى سبيل القيام به لهو أشد جرأة مما أنجزه الاسكندر ذلك لأن قيصر يضطلع به وقد تقدمت به السن . من العبث أن يبحث عن أمثلة أخرى ، عن أحد سبقه ويقارب سنوات عمره ، لم يكن هناك أحد سواه ، فما يجب على قيصر ، باعتباره ثانى اثنين هو أن يتعقب خطوه · ولم يكن أحد ، يحفز الديكتاتور ، الذى نال آخر الأمر سلطانا ملكيا بعد ثلاثين عاما من الجهد والاعداد ، كلا لم يكن أحد يستحثه ليعيد لروما الألوية والشعارات المدنسة بوادى الفرات . الآن ، يستطيع أن يحكم روما عشرين سنة أخرى تحميه كتائبه من أعدائه فى الخارج، ويستطيع أن يتزوج الملكة ويربى ابنه ، وبوسع مجلس السناتو ، الخاضع لنفوذه ، أن يخلع اللقب الملكى عليه وعلى ذريته من بعده.

لكن حلم الاسكندر أقوى من ذلك كله ، أقوى لأن شخصين يحلمان به · لم يكن الأمر أمر حاكمة أجنبية ذات دهاء تسعى الى غواية العاهل الرومانى بسحرها وفتنتها رغبة فى مزيد من القوة والسلطان . كلا ، بل الأمر ، وكما كان يدرك جيدا ، يتعلق بامرأة كانت أشواقها الغامضة تبلغ مشارف النجوم ، برغم أنها كانت عازمة ، فى الوقت نفسه ، على أن تتجرع كل متعة دنيوية . وكلاهما قد رضع أساطير قومه ، وتغذى على الدراسات اليونانية الملهمة منذ الطفولة واجتازا عبرها شواطىء متعددة من البحر

المتوسط ذاته فتغلغلت فى أعماق قلبيهما وبدا لهما المجد رسولا من رسل الآلهة اليهما .

غير أن هذا كله لم يكن من شأنه أن ينـــال من تقديرهما الموضوعى وتدبيرهما الرشيد لأمور الحكم . فقدرا بعيـــدا عن العاطفة والهوى ، الى حد ما ، ما الذى يمكن بالتحديد أن يجنياه ثمرة لتحالفهما وفتوحاتهما . كان قيصر يعرف جيدا مدى العون الذى يمكن أن يناله من الاسطول المصرى ومن كنز البطالمه ، فى حربه للفرس . لكن جانب التاريخ العالمى الذى فرضـــه حلم الشباب ونضج العقل كان يحثه على الانجاز بعظمة تناســب لقاءهما المدهش وما يعقبه من نتائج . ذلك لأن فارس الآن لم تعد مجرد قطر من الأقطار ، بل كانت الرمز العظيم للشرق ، والبلد الذى يجب أن يسقط فى يد الغرب ، وساعتها فقط يمكن للقلب الملكى أن يكتسب قوته الأسطورية . فقيصر ، وقد رسم حياته كفنان ، كان يعتبر احراز التاج أمرا صعبا وعظيما .

كان اقدامه على أن يعرض التاج للخطر ، مع ذلك ، بحملة تدوم أعواما ثلاثة ، مرتبطا بتحذير كليوباترا ، كملـــكة وكأم على السواء . فطالما كان قيصر على قيد الحياة فلديها ، اذن ، أكثـــر من معاهدة حماية ، لديها الضمان العظيم : الطفل ، الذى بفضله أراد قيصر أن يجعل من نفسه شخصا خالدا . لم تكن فى خشية من أن يكف عن حبها وهو الرجل الكبير السن على عدم الوفاء ، وكانت هى امرأة فاتنة . غير أنه كان هناك صفير ألف سهم من السهام الفارسية الطويلة ، وألف نهر من الأنهار ، وصنوف الحمى التى تسببها المستنقعات ، وفضلا عن ذلك فهناك المؤامرات تحاك فى داخـــل الوطن كل ذلك أحســت بخطورته كليوباترا بين كر الجيوش وفرها . ولقد كان العداء الشامل المحيط بها ، والذى رأته يتزايد فى الأشهر الثمانية عشر الأخـيرة ، وغيرة الرفقـــاء

القدامى ودوامة الحسد التى تدور من خلالها نســـاء رومـــا المشتغلات بالسياسة ، والاستياء العام يسيطر على جيـــل من الشباب لا يعرف معنى الوقار - فى هذا العصر الســاخر - فى خدمة روح تظللهم وتسمو عليهم ، وأمارات التدهـــور تبدو من حين لآخر على ملامح قيصر - كل ذلك كان من شأنه أن يغذى لديها الشك فيما اذا كان بالامكان أن يتحقق الهدف العظيم .

ومع أن روما كلها قد علمت أن قيصر اعترف بقيصرون ابنا له ، الا أنه لم تكن ثمت وثيقة مكتوبة دليلا على هذه الأبــوة . وربما كان هذا يعنى أكثر من زواج رومانى بالنسبة لها ، فقــد كان قيصر زوجها بموجب القانون المصرى . كان قيصر قد تقدم، فى الشتاء الماضى ، بمشروع قانون يبيح له تعدد الزوجات ، لكن ذلك لم يصبح قانونا بعد . أكان هذا اهمالا منه ؟ أهنا لك أسباب ســياسية مانعة لقصديهما ؟ ذلك ما كانت تتســاءل به كليوباترا فى قرارة نفسها . وهى لم تقف على خبر ما حدث فى هـــذه الأسابيع الأخيرة ، ذلك أن قيصر فض وصيته وأضاف لها اعترافه بتبنيه لابن أخته اوكتافيوس ، هذا التعديل فى الوصية ، التى لم يكن بوسع قيصر أن يتنبأ بعواقبه التاريخية ، يمكن تصــــوره فحسب بالنظر الى احتمال موت قيصر المفاجىء فى الحــرب أو نتيجة اصـــابته بمرض مباغت ، ولا ينم هــذا الا عن تدبير رجل غنى يوزع فى هذه الوصية السياسية أملاكه الشخصية ، وعن عزم رجل قوى يبغى أن تعمل أسرته فى أرفع مراكز الدولة . كانت يد قيصر اليسرى تمتد الى ماضيه ، الى أسرته والى زملائه الرومان والى أقرانه ، واليد اليمنى تشـــير الى المســـتقبل ، وتقبض على تاج لم يقصد به أن يكون من نصيب ابن الاخت هذا . وما كان من الممكن أن تذكر كليوباترا فى وصــية كانت مشروعة وثابتة فى الفترة السابقة للزواج وللتتويج . اذ أى سلطان وجاه

يمكن أن يوصي به ديكتاتور روماني ، بلا امبراطورية تورث ، لملكة مصر الثرية ؟ ولقد ذكرها فى جملة واحدة فقط ، ولم يذكرها اذ ذاك باسمها : فان قيصر عين أوصياء عدة لابن ثان له يتوقع ولادته مستقبلا ، ربما بعد وفاته . فأى امرأة أخرى يمكن أن تكون أمه ، وقد رأينا كالبورنيا العجوز لا تنجب على الاطلاق ؟ كانت الوصية ، فى مجموعها ، من الوصايا التى يأمل صاحبها أن يفض بنفسه أختامها يوما ما .

ترى ، أى تدابير يكون قيصر قد اتخذها خاصة بوراثته ؟ لقد عين من نفسه قنصلا ، منذ وقت قريب ، ولعشر سنوات ، وكان هذا بدعة فى تاريخ الرومان ، بيد أن السلطان الملكى يبطل نصفه بغير لقب «الملك » ، كما استبعد النصف الآخر تماما ، ذلك الذى يتعلق بوراثة الحكم . وبما أن الشعب الرومانى كان يعارض النظام الملكى ، على نحو خرافى ، منذ طرد الملوك القدماء ، وبما أن كل شيء كان يسير نحو هذا النظام سيرا حثيثا ، فان واحدا من الناس كشف عن ذريعة غريبة فى هذا الصدد . ذلك أن رجلا ماكرا ذا دهاء أعلن أنه اكتشف فى كتب العرافين أن فارس لن يهزمها الا ملك . وعلى هذا فمن الضرورى أن يرتقى قيصر العرش وينادى الشعب به ملكا على سائر أرجاء الامبراطورية فيما عدا ايطاليا التى ينبغى أن يمتنع فيها هذا اللقب وشعارات الملكية . كان الشيء الوحيد الذى لم يجرؤ أحد على أن يخوض الحديث فيه هو مسألة الوراثة .

أيمكن لقيصر ، وهو يوشك أن يدخل حربا قد تدوم لسنوات عدة ، أن تكون لديه أية رغبة فى أن يترك فى روما ملكة أجنبية تحكم نيابة عنه ، ثم يطالب الشعب بأن ينحنى لابنها باعتباره وريثا للعرش ، حتى وقبل أن يجد وسيلة يفرض بها على الشعب مقدم هذه الأسرة الجديدة ؟ أولا يمكن ، أن تثير

المرأة الأجنبية ، حينما تكون نائبته الوحيدة ، حقد الرومان الأصلاء الذى يتبع بالضرورة ، مهما يكن الأمر ، النهاية الشكلية للجمهورية ؟ ومع ذلك فلم يكن بالامكان أن تؤجل الحرب الفارسية وقد بلغت الاستعدادات لها شوطا بعيدا جدا ، والتوتر العام على أشده والأعداء فى الداخل أصبحوا غاية فى القوة .

لم يكن قيصر يدرى ، برغم ما يساور الملكة فى ذلك من مخـــاوف ، أن هؤلاء الأعداء المحليين قد بدءوا يجمعون صفوفهم ، لأنه أثار سخطهم أكثر وأكثر فى هذه الأسابيع الأخيرة . ومع ذلك فقد تصرف على غرار كليوباترا ، متبعا أساليبها فى كل ناحية ، معتبرا نفسه ملكا وان لم يكن أعلن ذلك بعد . فى ذلك الوقت صك نقودا تحمل صورا جانبية له ، وفى احدى المناسبات ركب عربة مصرية وعلى رأسه الأصلع تاج مكلل بأوراق الغار الذهبية ، وامر بأن يخصص له فى مجلس السناتو كرسى من الذهب ، بل انه قد أمر حتى باقامة تمثال له يوضع فى الكابيتول الى جـوار الملوك السبعة القدماء .

وفى نفس الوقت أمر ــ تحت تأثير مثاله « الملكة الصغيرة » بأن يقام له تمثال نصفى ويوضع بين صور الآلهة ، كما أعد لنفسه فى المعبد الكبير متكأ فاخرا وفى الصلوات العامة يبتهل الشعب الى Genius Caesar . ومنح ــ شـــأنه فى ذلك شـأن الاسكندر ــ حق دفن جثمانه داخل المدينة . فى هذه الأسابيع الأخيرة كان مثله مثل رجل لا يزال يفصله جدار عن المرأة التى أولع بها زمنا طويلا فأصبح غير قادر على أن يغمض له جفن .

وكان محاطا بألف من الحاقدين ، الذين لاحظوا بعين الرضا كيف أصبح أشد الحكام صفاء وصبرا وهدوءا ، فى النهـاية متغطرسا متقلب المزاج . وأصبح لدى الرومان ، كل يوم ، قصة

جديدة يقصونها فيما بينهم : فى احدى المناسبات عين حفنة من الرجال أعضاء فى السناتو — وكانوا فى حقيقتهم من بلاد الغال — ومرة أخرى منح أبناء المحكوم عليهم مرافق هامة . وفى وقت آخر قال عن « صلا » انه كان غبيا حينما اعتزل منصب الديكتاتور — وفى فرصة رابعة قال : « ان كلمتى لهى القول الفصل ، انها القانون » .

لكنه ، وقد جاءه مجلس السناتو مجتمعا بكل قناصله وحكامه Practors ليعرضوا عليه الحكم المطلق مدى الحياة، ظل جالسا فى مكانه فى صمت دون حراك . ويخلق مسلكه هذا شعورا عميقا بالاستياء ، ويترك القاعة كثير من الأعضاء . ووفق ما يرويه بلوتارك فانه حاول النهوض على قدميه ، الا أن «بالبوس» أمسك به ومنعه قائلا له : « أولا تذكر أنك قيصر ، أولا ترضى عن خضوعهم لك وأنت الأعلى ؟ » الذى حدث بعد ذلك فى الواقع أنه أمر بأن يحمل الى منزله ثم كشف عن رقبته صارخا بقوله : « الآن بوسع من يرغب أن يقطع عنقى ! » ويعتذر قيصر قائلا : « انه لا يمكن لأحد ، فى مثل حالتى أن يحتفظ بثباته وهدوئه اذا ما كان عليه أن يخاطب جمعا وهو واقف على قدميه ، بل سوف يعانى من الدوار والتشنجات ويفقد فى النهاية وعيه . »

وكانت كليوباترا تلاحظ عدم استقراره هذا ، بقلق بالغ وبانزعاج أحيانا ، فلا ترى فيه غير أعراض لضعف الحيوية وقد اهتزت ثقته التامة بنفسه . كانت اذا ما سألت أنطونيوس ، الرجل الوحيد الذى تثق به ، لا تلقى غير اجابة عسكرية مقتضبة. وكان أنطونيوس ، وقد بلغ من الحظوة عند قيصر شأوا بعيدا ، يتمتع بثقته المطلقة — فى هذا الشتاء الأخير ، وكان وحده المطلع على خطط الحرب المقبلة ، حتى أنه عين قنصلا مع قيصر وأنتخب

أخوه بريتورا وأخوه الثانى تربيونا للعامة(١)وعندما نهب أصدقاؤه خزانة الدولة لم يحـــرك قيصر ســــاكنا • ولم يكن بالامكان ، فى نظر أنطونيوس ، أن يتم التدبير السياسى الذى أراده قيصر فى الحال ، فحاول أن يضع مخططا له . ذلك أن الأزمة الملكية كانت قد تفاقمت فى فبراير بسبب أحداث ثلاثة : فى المرة الأولى ، عندما كان قيصر مارا بموكبه المهيب فى شوارع المدينة وحياه بعض المارة باعتباره ملكا أجابه بقوله : « أنا لست ملكا ، أنا قيصر» وفى مناسبة أخرى وعندما وجد أن البعض قد زينوا تمثاله بتيجان ملكية فأزالها تربيونات العامة ، عندئذ عزل واحدا منهم ناعتا اياه باحتقار بأنه بروتوس الجديد ، ذلك أن بروتوس القديم كان هو الذى أسقط الملـــكية ، كمـــا عزل أيضا كاميان الذى قال عنه انه حمار .

وفى المناسبة الثالثة ، جلس على عرش ذهبى فى الفوريوم لكى يلاحظ الشبان المتبارين فى الشوارع فى عيد «لوبيركاليوس" الرعوى : وهو مشـــهد قديم يضرب المتسابقون فيه بعضهم البعض بسيور جلدية من ذيول الماشية • وينضم أنطونيوس الى الشـــبان وهو نصف عار وذو ذيل ، وقد كان يسره دائما أن يقوم بدور جديد ، ويجرى مع بقيتهم ممسكا بين يديه تاجا من الغـــــار • وعندمـــــا أتى عرش قيصر رفع التـــاج محييـــا اياه باعتبـــــاره « لوبيركيوس » ــ وهو اله يجمع بين جوبيتر وآمون ، محييا اياه ملكا كذلك ، لكن ربما ملكا للاحتفال فحسب • ولئن كان هذا الهاما من أنطونيوس الديوينسوزى أو تم بنـــــاء على اتفـــاق فالحقيقة أن

---

(١) نقيبا للعامة وهو يمثل جبهة المعارضة الشعبية ، وله نفوذ قوى . انظر كتاب الدكتور ابراهيم نصحى «مصر فى عصر البطالمة» ، ويرى شيشرون أن هذه الوظيفة كانت تساعد على تحقيق الانسجام الاجتماعى وتمثل صمام الامن فى مواجهة ضغط السلطة التنفيذية (ص ١٧٧ من كتاب كوويل عن شيشرون) .

المشاهدين من حزب قيصر قد صفقوا له بينما نظر بقية الجمهور حولهم فى صمت . ويرفض قيصر الاكليل . ترى ، هل كان تاجا ؟ عندئذ يهتف الجمهور له . ويقدمه أنطونيوس اليه مرة ثانية ويكرر قيصر رفضه ، وسط تصفيق الشعب وهتافه . لكنه يأخذ التـاج الى الكابيتول ويكتب فى التقويم : اليوم رفض قيصر التاج مرتين .

هذه المقدمات كلها ، كان من الضرورى أن تملأ قلب كليوباترا بالريبة والهواجس . فها هنا يمزح الناس برمز تجرى حقيقتـه فى عروقها ، رمز مقدس . وما سمعته هو أن قيصر تمتم بكلمات عكست ضباب روحه العميق . فلقد قال : ان الموت أقل رعبا مما يتخيله الناس . وفى النهاية ، هوبلاء لا يشعر المرء بحاجة الى معاناته سوى مرة واحدة . » هذه الكلمات الشكية الغريبة يمكن أن تتضح مقرونة بملاحظة غريبة ، سجلها بلوتارك . فعندما حذره البعض من كاسيوس أجابهم بقـوله : « أنا لا أحب نظـراته الشاحبة » .

اذن ، كان قيصر مشغولا ، فى أعماقه ، بأفكار الموت ، وأفكار . تقلب الحظ . وفى الوقت نفسه عرفت أنه صرف الحراس من حوله ولم يسمح لأحد أن يصحبه سوى قلة من الضباط . كانت ، كليوباترا ، وهى التى ألفت منذ طفولتهـا السم والخنجر ، كانت تشعر بأمر فات أنطونيوس : لقد عرفت أن مؤامرة قد تنسج خيوطها من هذه الأحداث البسيطة . ولم يكن بوسعها أن تعرف أن هذه المؤامرة قد تم نسجها فعلا .

- ١٠ -

لم يكن الثلاثة الآخرون – الذين ارتابت فيهم الملكة الى حد بعيد – هم وحدهم المتآمرون ، بل كانوا رءوس المؤامرة . وقد تبين فى النهاية أن نحوا من ثمانين عضوا فى السناتو ضالعون فى المؤامرة ، لأنهم أرادوا أن يظهروا للشعب فيما بعد كم كان السخط على الديكتاتور عاما وشائعا . فلانقاذ الجمهورية وحرية الآباء ، التى بدا انها سوف تضيع بعد الانتصار على الفرس ، بادروا الى الاسراع فى تنفيذ الاغتيال ، كان المقرر أن يترك قيصر روما فى ١٧ مارس . وفى اجتماع السناتو الذى دعا قيصر اليه يوم ١٥ مارس – بعد فترة انقطاع طويلة – سوف يجد المتآمرون فرصتهم الأخيرة . من المؤكد أن بينهم رجالا يعملون من أجل الحرية ، غير أنهم لم يكونوا قط الزعماء الثلاثة .

هم ثلاثة من كبراء الدولة ، فى الثلاثينات ، وأبناء أسر عريقة ، ثلاثة غمرهم قيصر بفضله واحسانه ، ومع ذلك كان يسيطر عليهم طموح بغير حد ، لم يكونوا هم ولا غيرهم مدفوعين بدوافع انتقام شخصى أو من أجل فكرة أو مبدأ . لم يكن أحد منهم يسعى الى الانتقام لموت أو نفى ابن له أو أب ، وقيصر دائما كان يعفو عن أعدائه .

وديسيميوس بروتوس ، ذلك الذى كانت سيرته على غير مثال – وكل ما فعله يدين به لقيصر ، وأنجزه بقيادة قيصر – بروتوس الذى عامله قيصر معاملة الابن ما كان ليعمل الا مدفوعا برغبة الرجل الثانى فى أن يصبح الرجل الأول . فطالما كان قيصر وحده قائده أو قنصلا فانه يستطيع أن يتقبل سمو منزلته وتفوقه عليه ، فقيصر أكبر سنا بكثير وفى مقدور المرء أن يخلفه ولكل دوره ، وما هو بوقت طويل يمضى حتى يصبح المرء قائدا أو

قنصلا ، لكن قيصر كان يقترب من العرش فينأى بذلك بعيدا عنه، وفوق ذلك يسد امامه الطريق فينشىء أسرة تخلفه من بعده .

أما كاسيوس ، من ناحية أخرى ، وهو الحاقد بطبعه ، واحد انصار بومبى المهزومين الذين عفا قيصر عنهم ، فلم يكن ليطيق أفضال عدوه ، ومع ذلك فعليه أن يقاسى من هذا العفو وهذه الأفضال ولقد برر للتاريخ فعلته الشنعاء بحادثة الأسود وكأنها تجيز له أن يمتلك روح قيصر فيعبث بها كيفما شاء .

مهما يكن الأمر ، فان بروتوس الذى وجدت المؤامرة كلها فى شهرته الخلقية سندا لها ــ كان ، كما يبدو من خطابات شيشرون ، واحدا من الذين يتصور أنهم أهل الشرف والنبل وممن يحجبون كل مشاعرهم الانسانية تماما ومع ذلك يزينونها بدوافع أخلاقية وهكذا يدبرون لكل رغبة من رغباتهم قناعا لتظهر بمظهر رسالة من الرسالات . فلو أنه أقرض مالا فى الولايات بفائدة كبيرة فذلك، بالطبع ، من أجل مصلحة الوطن ، ولو طالب بمنصب رفيع فذلك لأنه كان يعتقد بوجوب التضحية بدراساته لصالح الدولة . هل كان على وشك أن يقتل قيصر حقيقة ؟ ان روح بروتوس القديم هى التى دعته الى ذلك العمل ، بروتوس القديم ذى اللحية والمنظر الآثم ، والأذنين الكبيرتين والذى كان يقف بين تماثيل ملوك ترافيا. والذى ضحى بأولاده من أجل اسقاط الملكية .

والحقيقة ان بروتوس كان يكره الرجل الذى يزعم انه والده • ولم يكن التصور النبيل لنقاء العائلة ليحتمل السمعة الملطخة لوالدته ، تلك التى لا تزال ، وهى الآن امرأة عجوز ــ تحيا بجانب ولدها . فان بروتوس يجب أن يكون مولودا على نحو شرعى ، بهذا فقط يمكن أن يكون سليلا لقاتل الملوك الشهير والمحرر : بروتوس . وان حكاية الحب القديمة ، التى استمرت

زمنا بين أمه وقيصر ،وكانت حديث الناس فى المدينة ، قد أصبحت اليوم أسطورة نصف منسية ، يمحوها الى الأبد ايمان الابن بأبيه الشرعى . ولقد كان من الممكن لبروتوس أن يكون ابنا حقيقيا لقيصر لو كانت روحه أكثر نبلا وعقله أكثر مرونة ورؤيته أكثر استقامة ووضوحا ، فما دام قيصر قد تبنى ابن أخته الأكبر الذى يمت اليه بصلة الدم من جانب واحد فى عائلته فقد كان سيتبنى بكل تأكيد ، الرجل الذى اعتقد أنه ابنه حقيقة ، وخاصة لو أن هذا الأخير منحه الحب والاعجاب اللذين كان يدين بهما الى شخصية قيصر وعبقريته .

لكن اعتداد بروتوس الخلقى بنفسه ، الذى كان يجب أن يجد مبررا له على الدوام ، جعل من السهل عليه أن يكره أباه الطبيعى ، حتى وان كان بموقفه هذا يخون قضية أبيه الشرعى ! ذلك ان بومبى قتل والده هذا ، وكانت روحه تدعو الابن بالضرورة الى الانتقام لموته بالانضمام الى صفوف قيصر ! وبدلا من أن ينتقم لمقتل أبيه ، بادر بالذهاب الى العدو عندما وقعت الواقعة بين قيصر وبومبى ، ولعامين كاملين حارب ضد قيصر الذى انتصر فى نهاية الأمر فى فارساليوس . ثم أنه ، بدلا من أن يتبع مخلصا أبناء بومبى ، بعد ذلك ، بادر للمرة الثانية فأخذ جانب السلطة الحاكمة، حالما عرف أن قيصر كان راغبا فى لقائه . الآن يجب أن ينتقم لنفسه من هذه الخيانة المزدوجة حتى يستعيد تقديره لذاته .

حقا كان يدرك تماما أنه بقتله قيصر انما يقتل الرجل الذى هزم قاتل أبيه ، ويقتل الرجل الذى غفر له خيانته الأولى ، والذى أغدق عليه نعمته بعد ذلك ، بل أغدق عليه كل نعمة متصورة . غير أن هذه المشاعر جميعها سكتت فى قلب بروتوس حينما فكر فى أنه بقتله قيصر سوف يقتل الرجل الذى أغوى أمه وفصله عن نسبه المجيد . ألم يكن جور قيصر على الحرية

تأكيدا قاطعا بأنه لا يمكن أن يكون أباه ؟ ما دام الرجل قد مشى على الأرض ذات مرة ، فالمعضلة حلت الى الأبد ، لسوف يسكن السؤال الأبدى ، ولسوف يثبت بروتوس بفعلته على أنه قد انحدر حقا من صلب بروتوس ، قاتل الملك .

لنذهب معه الى نهاية الشوط ـ ما الذى كان يقصده بروتوس ؟ كان سيذهب الى قيصر ، فى مجلس السناتو ؟ ويصيح عاليا ،... ويصرعه ، بمفرده رجلا لرجل . ولن يكون بذلك بطلا ، فى الحقيقة ، مثل قيصر لأنه سوف ينقض على رجل أعزل من السلاح ،لكنه على الأقل سوف يصبح رجلا . لكن ما الذى فعله حقا ؟ لقد كان واحدا ضمن عشرين قاتلا من الأنذال ، انقضوا، بغير تحذير ، ومعتمدين على تفوقهم العددى ، على جندى أعزل شق طريقه ببسالة خلال مائة معركة . نعم ،كان بروتوس حقيرا، وحتى بعد انقضاء ألفى عام لا نجد فيما اقترفه قيصر ضد قضية الحرية ما يشفع لهذا العمل الذى يدعو الى الرثاء حقا .

- ١١ -

قبل منتصف مارس ، قضى قيصر مع الملكة احدى أمسياته الأخيرة . كانت روحه المعنوية عالية ، وقد فارقته كآبته . فقرع الطبول ، ووقع خطى الكتائب تملأ طرقات روما فى سيرها نحو الموانىء ، واكتمال خطة أحكم تدبيرها فى خلوة من زمن بعيد ـ كل هذا جدد شباب القائد الذى كان يشعر بالسعادة دوما فى ميدان القتال أكثر مما يحسها فى المدينة ، على الرغم مما حاول اعتقاده خلافا لذلك فى ساعات استسلام للراحة والدعة . ان جلبة

الرحيل ، ونهاية هذه القصيدة الأرضية ، والوعد بقدر جديد والمخاطرة المسكرة ، كل ذلك بث فى كيانه حياة جديدة .

كانت خطة كليو باترا أن ترجع الى مصر ، بعد رحيله مباشرة، وهناك عن طريق الكتائب السورية وحاملى الرسائل فى جيشه العظيم ، سوف تبقى على اتصال به . الآن يضرب آخر ضربة عظيمة ، ويخوض الموقعة الأخيرة التى يكون فيها تحقيق حلمه .

لم يكن حلمها شيئا أقل من ذلك ، وفى ساعة نادرة كهذه من ساعات الفراغ ينهض قيصر ، مرة أخرى ، بقامته المديدة وقد تحرر من كل ملابسه الرسمية التى كان يرتديها فى يومه الحافل . هذا المســاء الأخير ربما يكون قـد انقضى فى استرجاع ذكريات حياتهما معا فى الاسكندرية ، وكل يذكر الآخر بما نسيه ، وكل يكمل ذكريات الآخر ، وكأنى بهما يهونان من شأن أخطار جديدة قادمة بالنظر الى ما تغلبا عليه من مصـــاعب ماضـية . اليوم ، وأكثر من أى يوم مضى ، كان كل شىء يعتمد على قيصرون ، وبدا أمامهما وقد شب وبلغ مبلغ الرجال ، يصون حلم الاسكندر .

لكن قيصر أبصر ، هذا المساء الأخير ، خلف ابتســامتها الذهول والحيرة التى تهدد بأن تباعد بينهما منذ أسابيع . ولقد سمعت بنذر السوء ، وملأت الاشاعات روما بأسرها ، كان الناس يتحدثون عن طيور غريبة استقرت فى الفوريوم ليـــلا وهى تنعب مصدرة صيحات عالية ، ويتحدثون عن قرابين وجدت بغير قلوب، وعن أضــواء تســطع فجأة فى السماء ، هذه النذر كانت تجد ما يؤيدها فى هواجس الملكة . لكنها لم تستطع أن تقص هذه الأشياء على الرجل الذى يوشك أن يستل سيفه من جديد ، لكنه قص عليها أمورا معينة : فمنذ زمن والخيول التى كان قد كرسها للآلهة بجــوار الربيكون ترفض أن ترعى الكلأ ، كما أن منتصف

مارس ، هـذا يـوم خطير ، وبالأمس حمل سرب من الطيور غصنا من أغصان الغار الى قاعة بومبى · أو لم يكن الأمر كذلك ؟ ويضحك قيصر .

لكن الملكة لم تشاركه الضحك ، ولهذا حاول أن يسرى عنها بألطف الوسائل · أكانت تتذكر الكلدانى الذى نصح الاسكندر أمام أبواب بابل أن يرجىء دخوله الى الغد ؟ لكن لماذا الانتظار ؟ وهل أظهرت كليوباترا أدنى خوف ، فى تلك الأسابيع الشريرة السوداء بالاسكندرية ؟ ان غربتها فى روما ، تلك المدينة الأجنبية هو ما يضايقها . لقد تغنى يوربيدس بقوله : « ان خير بصير من يبدى نصحا موفقا ! » . وكان قيصر وعدها أن يقضى مساءه الأخير معهما .

وفى المساء تناول العشاء مع ليبيديوس وبصحبتهم ديسيميوس بروتوس ، صامتا يستمتع بمعرفته بما سيحل غدا بسيد العالم . ربما يكون هو الذى حول الحديث الى موضوع الموت . كان قيصر يوقع بعض الوثائق أمامه وهو جالس الى المائدة وبينما هو يقرؤها اذ به يسمع سؤالا عن أى أنواع الموت أفضل ؟ فيقول : ما له نهاية مفاجئة سريعة » بينما كان يوقع على الورقة المبسوطة أمامه .

وفى صباح اليوم التالى كان يرتجف ثمانون رجلا أخفوا سيوفهم القصيرة وخناجرهم تحت أرديتهم ، أما قيصر فقط ، الذى لم يكن يحمل خنجرا فهو الثابت الجنان بينهم . بيد أنه شعر بأنه ليس على ما يرام ، فالأحلام المزعجة التى قصتها كالبورنيا عليه ، وتوسلاتها ، ورغبته فى أن يستجيب لهذه التوسلات ، فى اليوم الأخير قبل رحيله ، أبقته فى المنزل ، الى أن جاء ديسيميوس بروتوس ، مرسلا من قبل المتآمرين ، ليقنعه

بالذهاب الى السناتو على الرغم من توسل كالبورنيا ، اذ ماذا سيقول أعضاء السناتو ، لو علموا أن أحلام زوجته يمكن أن تدفعه الى تغيير قراراته ، بعد أن دعاهم الى الاجتماع ؟ وبينما ظل قيصر رافضا أن يصحبه ، قدم بروتوس اغراء أخيرا ابتدعه، فيما يبدو بوحي من الحاح اللحظة : فاليوم ، وفى الحال يود مجلس السناتو أن يسبغ على قيصر لقب « الملك » على جميع بلاد الامبراطورية وراء حدود ايطاليا ، وذلك قبل أن يرحل للحرب وفق الخطة التى ناقشها الأعضاء فيما بينهم ، وكان فى هذا فصل للمقال وافق خطط قيصر ومشروعاته تماما ·

لم يسمع قيصر ، وهو محمول على محفته الى قاعة بومبى ، صيحات أحد العبيد وهو يحاول أن يعطيه ، بحركات واشارات مضطربة ، رسالة أو مايشبهها ، ولم يكن قد قرأ البردية التى دفع بها بين يديه العالم الاغريقى أرتيميديوس ، بعد أن شق طريقه جاهدا وسط الزحام ، مشيرا عليه بأن يقرأها حالا وعلى وجه الضرورة · وكانت هذه البردية ، التى حوت أسماء المتآمرين والتى كانت تحذره من مقاصدهم هى الوثيقة الوحيدة التى كانت مع قيصر وهو يدلف الى القاعة ، وكان ينوى أن يقرأها بعد انتهاء الاجتماع على الفور ، فقد ترك اضطراب الفيلسوف انطباعا مؤثرا مس قلبه .

وعندما دنا أحد أعضاء السناتو منه أثناء دخوله المبنى واعترض طريقه بعض الوقت ، متحدثا اليه فى عبارات خافتة ، أيقن المتآمرون انهم قد كشفوا ، وحاول بعضهم الهرب . وفى الوقت نفسه كانوا قد احتجزوا أنطونيوس ـ الذى أرادوا الابقاء عليه ـ فى الرواق الخارجى .

وعندما دخل القاعة واتخذ مجلسه فى الكرسى المشابه للعرش ، كان « سيمبر » أول من اقترب منه ـ وفق الخطة

الموضوعة قبلا ـ متوسلا اليه أن يعيد أخاه المنفى خارج روما . وعندما أرجأه قيصر ، بحثا للمسائل العاجلة الأكثر أهمية ، أيد مطلب سيمبر عدد من المتآمرين واقبلوا على قيصر بعضهم يقبل رأسه والآخر رقبته كما لو كانوا يقدمون له فروض الولاء والاحترام ، وليتأكدوا فى الحقيقة مما اذا كان يخفى درعا لحماية صدره . وحاول قيصر ، وقد رأى نفسه محاصرا ، أن يدفعهم جانبا بذراعه الأيمن ، غير أن تيوليوس قبض على عباءته ، لكى تنزلق من فوق كتفه ، كاشفة عن صدره تحت القميص الرقيق. وكانت هذه هى الاشارة المتفق عليها . وهنا صاح قيصر : « هذا عنف ! » وقفز على قدمه . واذ ذاك طعنه كاسكا الذى كان أقرب المتآمرين منه موجها سيفه الى حلق قيصر ، لكن السيف انزلق جانبا وجرحه فى صدره . ويخلص قيصر عباءته من قبضة سيمبر ويمسك بيدكاسكا ، ثم يجذبه الى الأرض ويضغط عليه بعنف شديد وبينما كان يتصارع مع كاسكا أغمد آخر خنجرا فى جنبه الذى كان عاريا ، عندما استدار . وجرحه كاسيوس فى وجهه ، بينما طعنه بروتوس فى كليتيه . هذا ما يرويه أبيان . وكما يروى بلوتارك ـ فان البعض يقولون انه قاوم بقية المتآمرين واستمر يصارعهم ويصيح الى أن أبصر سيف بروتوس ، وهنا جذب رداءه على وجهه واستسلم لقدره . »

وسقط أخيرا مثخنا بثلاثة وعشرين جراحا . وفى لحظة من اللحظات حاول اثنان من أعضاء السناتو أن يخفا لنجدته ، حينئذ فر الجميع من المبنى . ولم يكن أحد راغبا فى أن يسمع ما كان ينبغى أن يقوله بروتوس ، وأسرع المتآمرون جميعا بالهرب، وقد أذهلهم وقع الحادث وسادهم الاضطراب والفزع . وترك قيصر المقتول وحيدا فى القاعة الخاوية لا ينظر الى جسده المسجى أحد فيما عدا التمثال الرخامى لبومبى ، عدوه اللدود ، والذى

قتل من قبل . وأخيرا حمل اثنان من العبيد جسده ليوصلاه الى منزله .

حينئـــذ لم يبق فى القاعة شىء غير بردية تســـجل أسماء المتآمرين .

- ١٢ -

ربما سمعت كليوباترا الأخبار ، وهى هنالك فى قصرها وراء التيبر ، بعد أن سمعتها روما بدقائق قليلة . كانت تتوقع حلول شر مستطير بقيصر وحينذاك أدركت الملكة الشابة فى الحال خطورة موقفها ، وبدلا من العويل والقـاء الاتهامات ، عملت لمصلحة ابنها الذى كان أيضا قيصرا . فى تلك الأيام تألق البريق المعدنى لطبيعتها تألقا أكثر بطولة . وبينما هرب مئات الرومان الأقوياء من ذوى النفوذ خارج روما ، بقيت المرأة التى لا يحميها أحد . كان من الممكن أن تقتل فى أية لحظة ، ولكنها ظلت هنالك شهرا كاملا . كان أنطونيوس ، وهو الرجل الوحيد الذى تثق به ، هو الشخص الذى التقت مصالحه بمصالحها .

واذا كان أنطونيوس ، خلال الأيام الأربعـة التالية ، قد استطاع أن يجد فرصة غير متوقعة فى الخطر الذى نجا منه ، فان ذلك يرجع أساسا الى زوجته فولفيا ، الذى وجد عقلها المبدع المتوثب دوما ، المجال ، أخيرا ، الذى يستطيع أن يؤدى فيه دوره الخطير ــ ولقد أدت هذا الدور لسنوات ، حتى واتتها المنية . وربما كانت فولفيا هى المرأة الوحيدة التى تعد قرينة كليوباترا فى الصراع المرتقب .

في غمرة الاضطراب والهرج ، الذى ضاعف منه افتقار المتآمرين الى التبصر والتدبير تحرك للعمل رجل واحد . فان انطونيوس الذى فر من القاعة واقام الاستحكامات حول بيته ، دعا كاسيوس الى العشاء معه فى المساء الذى أعقب القتل ، وكان بروتوس يتناول غذاءه مع صديق آخر لقيصر هو ليبيدبوس . وظهر أنطونيوس متوافقا مع رغبات جميع المتآمرين ، وقد وافق على وجوب منحهم عفوا عاما ، وأقر وجوب تكريمهم علانية بتبرئتهم من ارتكاب جريمة . كان بوسعه أن يغامر بالاقدام على ذلك لأنه كان يملك أداة السلطة التى لا يملكها سواه . ففى المساء ، بعد وقوع الحادثة ذهب الى منزل قيصر ، بصحبة عدد قليل من العبيد ، ودون أن يلحظه أحد وحصل من الأرملة الذاهلة على أوراق قيصر وأملاكه المنقولة ، لكى يضعها جميعا ، على حد قوله ، فى مكان أمين ، ثم أخذ ، مسرعا الى معبد الـ OPS ، خزانة الدولة وبها ما يوازى خمسة ملايين من الدولارات . على حين أن الآخرين ، وقد أفزعهم ما اقترفوه لاذوا بالفرار على غير هدى لا يملكون شيئا سوى حريتهم .

وكانت ضمن أوراق قيصر وصيته .

عندما تفحصها أنطونيوس ، أرسل الى الملكة رسولا ، راجيا اياها أن تحضر اليه . كان الشارع مضاء بحملة المشاعل ، لكنهم كانوا يهرولون من بيت الى بيت ، وكانت الأبواب تتأرجح ويسمع لها صرير وتفتح ثم لا تلبث أن تغلق ثانية بسرعة ، ولم يكن أحد يدرى من أى ركن كان ينتظره خنجر . وكانت هذه اليونانية المترجلة هى المرأة الوحيدة ـ بالتأكيد ـ التى خاطرت بالسير فى شوارع روما فى تلك الليلة . لكنها الآن فى بيت أنطونيوس تقرأ الوصية . ثلاثة من أبناء الأخت يرثون ثروة قيصر ويأخذ أوكتافيوس ، أكبرهم ، ثلاثة أرباع هذه الثروة . ولو لم يقدر

لأحدهم أن يرث يحل محله ديسيميوس بروتوس باعتباره وارثا بديلا . وفيهـا عين قيصر عـددا من أصدقائه ، ممن كانوا ضمن القتلة ، أوصـياء على ابن قد يولد من بعده . وتئول حدائق قيصر الواقعة وراء نهر التيبر بما فيها البيت الذى تعيش فيه الملكة ، الى الشعب الرومانى . ويرث كل رومانى منه سيسترسيس . وفى حاشية أضافها للوصية ، أعلن قيصر أوكتافيوس أبنا له بالتبنى .

وهنالك جلسا ، كلا فى مواجهة الآخر ، صـديق قيصر وزوجته الملكة المصرية دون أن يتمكنا من تكييف الوصية . ومادام لقاؤهما كان من أجل انقاذ حياتهما لا من أجل لوم الراحل فلديهما الوقت لمجرد التدبر فحسب فى مغزى الوصية ، ولم يدركا تماما مدى السخرية والمرارة فى أن فريقا من المتآمرين كان منتفعا بما جاء بها من نصـوص . الشرط الوحيد الذى كان يتعين عليهمـا مواجهته بحكمة هو ذلك الشوط الأخير ، المتعلق بأوكتافيوس :

ما الذى جعلهما يبقيان على الوصـية ولم يخفياهـا أو يمزقاها ؟ ولماذا لم يستبدلاها بأخرى تختم فى تلك الليلة ذاتها ؟ فى خلال الأسـابيع القليلة التالية قام فابريوس ، سكرتير قيصر الخاص ، بتزوير اثنتى عشرة ورقة بتوقيع قيصر ، من أجل فولفيا . واسـتطاع انطونيوس ، بمساعدة فابريوس أن يلفق قرارات خاصة بمجلس السناتو ، وأوامر عفو ، وملاحظات حول نقـل ملـكية ثروات أو منح أخرى لذلك . فلا يمكن أن تفوتهما بالضرورة ادراك الفرصة الأخيرة التى سوف تسنح لأوكتافيوس ، حينما يجد نفسه ، وهو فى التاسعة عشرة ، القطب الرئيسى لحزب مناوىء يعارضهما . ولربما ظهر هؤلاء الثلاثة ، الذين التقوا ليلا فى عزاء بعد مقتل قيصر بساعات ، وقد كبح جماحهم نوع من الاشفاق لرؤية توقيعه .

وبعد ليـال قليلة ، قام أنطونيوس باطلاع عدد من المتآمرين على الوثيقة الأصلية ـ وتلك فكرة أملاها عليه فى الواقع دهاء فولفيا ـ واغراهم بالموافقة على وجوب قراءتها على الشعب فى مناسبة الطقوس الجنائزية . وكان بروتوس وكاسيوس من الغباء بحيث وافقا على ذلك . اذ بالعبارة الوحيدة التى جعلت من كل رومانى وريثا لقيصر فانه كان يثير غضب الشعب على المتآمرين فيحدد شكل التاريخ للسـنوات القليلة القـادمة • واضطرت كليوباترا الى التفـكير فى قيصرون فحسب • ومن الضرورى أنه خطر فى ذهنها فى الدقائق الأولى القليلة أن الحلم قد تبدد . لكن ارتباطها السابق بالميت لا يزال باقيا ، والآن وقد رحل والد الطفل عليها أن تمهد له الطريق الذى سوف يسـلكه فى يوم من الأيام ـ حتى ولو لم يكن يملك حينذاك شيئا غير كونه ابنا لقيصر لحما ودما • ولكن أكان أنطونيوس ـ حقيقة ـ منافسا له ؟ كانت تميل الى الشك فى ذلك حينما تنظر الى فولفيا . غير أنهما كانا منافسين على السواء لأوكتافيوس الشاحب . ترى ، ما الذى كان بوسع أوكتافيوس هذا أن يفعله ؟ هو الآن فى بولونيا ، مع إحدى الكتائب التى ارسلهما قيصر لتسبقه الى اليونان ، يحيط به معلموه الذين كان عليهم أن يتموا تعليمه الفلسفى . كان ، فى ذلك الوقت ، ضابطا صغيرا ، اذ كان يعمل فى الحرب الأخيرة كمرافق لقيصر • لو أن روما هـذه كانت بلدها لأرسلت كليوباترا رسلهـا ـ هنا وهناك ـ لقتله وهو فى الطريق الى ايطاليا بحرا • حينئذ كان تاريخ العالم سيتبع مجرى آخر •

وفى ذلك الوقت قر عزمهما على حربه • كانت الملكة بحاجة الى أنطونيوس لتجعل من قيصرون ابنا شرعيا لقيصر . وكان أنطونيوس فى حاجة الى الطفل ذى الأعوام الثلاثة ، اذ يمكنه

أن يحكم باسمه فيمنع الشـاب ابن الأعوام التسعة عشر من ارتقاء العرش .

وهكذا ، وفى الليلة التى أعقبت مقتل قيصر عقد تحالف صامت بين صـديق قيصر وخليلته ، بين أنطونيوس وكليوباترا ، وربما تذكرت الملكة ، للحظة ، ذلك الصيف السعيد عندما قدم لها قيصر لأول مرة صديقه الوفى . كان صوت الحياة يدوى عاليا فى أعماقهما ، ولقد تصافحا عند الفراق وكان فراقا مؤثرا تأثيرا بالغا . وأعطاها أنطونيوس سرية أخرى من الجنود لتحرسها فى الشوارع المظلمة المؤدية الى بيتها ولتحميها فى فيلتها المنعزلة .

وتنقضى أيام قليلة ، يصبح مركز أنطونيوس بعدها ، وبفضل دهاء فولفيا ، قويا الى حد يدعو الى الدهشة حتى أنه كان قادرا على أن يواجه السناتو ــ وكان بالطبع قنصلا ــ بتلك العبـارة الرسمية التى اعترف قيصر فيها بأبوته الشرعية لابن ملكة مصر ، وأورد على ذلك دليل أوبيوس ، مستشار مالية قيصر القوى . وبذلك حقق أنطونيوس كل ما كان يطمح فى الوصول اليه، كمواطن وكجندى معتمدا على الوجود الرومانتيكى لابن قيصر ، حيث قبض على زمام السلطة دون عناء باعتباره قيما عليه . وكانت هذه ضربة موفقة غاية التوفيق . ولم يعارض أحد، ولم يتكلم عن أكتافيوس أحد .

لـكن أوكتافيـوس جاء ! أسرع الى روما عنـدما تلقى نبأ موت قيصر ، وبعد أسابيع قليلة وقـف بباب أنطونيوس ، وجلس فى مدخل القاعة لأن أنطونيوس تركه ينتظر . وعندمـا شرح أوكتافيوس بصـوته الهـادىء الحاذق قضيته وأنه جاء باعتباره وريثـا لقيصر ، وطـالب بكل أوراق قيصر وكل ذهبه ، وجد فى منافسه ، الذى كان يكبره بسنوات عمره ، قائدا يعنف ملازما

صغيرا وينتهره . كان جواب أنطونيوس أن أوكتافيوس ينبغى ألا يضع فى رأسه فكرة استخلاف قيصر وهو الشاب الصغير الطائش الغر ! وهنا ترك انطونيوس اكتافيوس وغادر الغرفة ـ فيمـــا يروى أبيان .

وكانت تلك غلطة مريعة ، وعلى انطونيوس أن يقاسى من نتائجها ما استطاع الى ذلك سبيلا !

تمكن أوكتافيوس من زيارة الملكة قبل رحيلها مباشرة . ولقد أدرك جيدا أن ابنها منافس له ، غير أن عيونه الفاترة الاخاذة كانت تسعى للتأكد من حقيقة أفكارها عنه . وقابلته كليو باترا بنظرة نافذة ، كانت عيونها الصائدة تبحث عن أية أمارة على صلة الدم التى تربطه بقيصر . لكنها لم تستطع أن تتبين أثرا لمثل هذه القرابة ، بل كان يبدو سليل ذلك الرجل الذى كانت هى ، على الخصوص ، تسميه « مرابى فيلليترى » .

وما زال كل شىء غير مستقر ، حتى ذلك اليـوم الذى استقلت الملكة فيه مع حاشيتها الكبيرة احدى السفن . كان كل شىء يدعوها الى العودة ؛ لم تكن حياة ابنها آمنة ، اذ بدأ الكثيرون يجدون فيه عقبة أمامهم ، كما استقبلت فى روما بنظرات غضبى ، وكان رجل الشارع فى روما يقول ، فى سخرية ، ان الحدائق التى لا تزال تعيش فيها هى ملك للشعب بنصوص وصـــية قيصر ، وفضلا عن ذلك ، قد يتسبب أعداؤها فى مصر فى أثارة الشغب والقلاقل ، ولقد مات الرجل الذى اقامت على أساس سلطانه مستقبل بلدها من قبل .

وذات صباح فى منتصف ابريل كانت كليوباترا تقف فى مقدمة السفينة التى حملتها الى الشرق ، وهى تنظر وراءها ، محملقــة . الى الشاطىء الايطالى طالما كان لا يزال فى مرمى البصر . وتسيطر

على أفكارها تلك النظرة الأخيرة تنظرها الى قيصر يوم جنازته .
ومرة اخرى رأت جمهور العامة يستجيبون لصوت رجل مجهول ، وبدلا من أن يحملوا جثمان قيصر ليحرق فى كامبيوس مارتيوس بدءوا يكدسون أكوام الحطب هنا وهناك لحرق الجثة . ورات الجنود والملاحين والمواطنين والأطفال ، رأت مائة ألف من الأقوياء وقد وضعوا أيديهم على أى شىء فى متناولهم يصلح للاشتعال ، وقد مزقوا ثيابهم ، وألقى الرجال بأسلحتهم والنساء بحليهن ، والموسيقيون بمزاميرهم ،رأتهم وهم يضحون بكل شىء يملكون فداء للبطل الذى كانت النار تحرق جسده ، والذى كانت روحه تصعد لتحتل مكانها بين الآلهة . لم يكن مثل هذا الوقود كله فى جنازة من قبل ، أقامه الناس هبة منهم للراحل العظيم . والآن وقد أبصرت ذلك كله ، وبدت من جديد تشم رائحة الدخان ، اذ بها تقف فى احدى النوافذ ، بعيدة جدا عن أن تلقى بأى شىء فى النار هنالك .

هكذا كانت الملكة تفكر — واذ ذاك بينما كانت ترى مدينة اوستيا تتضاءل أمام ناظريها — القت من نافذتها فى اللهب بحلم ، حلم عظيم عظمة النار نفسها ، عظيم عظمة الرجل الذى كانت النيران تحرقه . كان حلم الاسكندر والحلى والموكب الزاهى والثياب والعرش والتاج كانت جميعها تحترق فى النار الهائلة التى أشعلها شعب الجمهورية لقنصلهم الميت ، لأنهم لم يكونوا راغبين فى أن يصبح ملكا .

وبقلب مثقل ، وبفكر شارد تمثلت الملكة تقلب الحظ ، والملوك والميراث الملكى ، وهى تشعر أكثر من ذى قبل بمزيد

من النفور والاشمئزاز من الرعاع بينماكانت الكومة تخمد نيرانها أمام عينيها . وعندما تلاشت الرؤية الواضحة اختفى الساحل الايطالى . وهنا ، على ظهر هذه السفينة كان يرقد غلام نائم هو كل ما تبقى من سلطان قيصر .

ثم تذهب كليوباترا الى مقدم سفينتها ، وهى تحملق ناحية الجنوب عبر البحر كما لو كان بامكانها أن تبصر من قبل شواطىء وطنها .

الفصل الثالث

ديونيسوس

« فى الرجال عنف وصرامة ، دوما تتملكهم فكرتهم الأخيرة ، وسرعان ما تحيد بهم عن الدرب عقبة من العقبات • على حين أن المرأة ماهرة فى ابتكار وسائل فتصل الى هدفها ببراعة متبعة الطريق الملتوى » •

جوته

- ١ -

استقبل أعيان الاسكندرية مليكتهم باستياء صامت • كانت قد قضت خارج مصر سنين لتبرم معاهدة مع روما فأين هى اذن تلك المعاهدة بأختامها الرسمية ؟ وماذا وعد به الشعب الرومانى والسناتو المصريين ؟ كانت الجمهورية العظمى ، فى حالة من الفوضى، والرجل الذى علقت عليه سعادة بلدها قد مات ، والابن الذى ولدته منه أصبح يتيما • وأسوأ من ذلك ما كان يتهددها • فلو ظل

المتآمرون فى السلطة ، أفلن يقضـــوا على سياسة قيصر ؟ وماذا سيبقى لمصر حينئذ ؟

وكان باستطاعة كليوباترا اظهار أن مخاوف وزرائها واتهامات أعدائها لهـــا لم تكن قائمة على أساس ؛ استشهدت باحصـاءات التجارة مع روما ، والتى وصلت خلال العامين الأخيرين مستوى لم يسبق له مثيل • وتحدثت عن اعتراف مجلس السناتو بشرعيـة قيصرون ـ وذلك بتدبير أنطونيوس • وحينما كانت لا تزال تواجه صمتا متشـككا سألتهم بنفـاد صبر عن ذلك الوارث الآخر الذى يفـكرون فيه ويجـرى فى عـروقه الدم البطليموسى ـ ذلك لأن أرسينوى ـ وهى آخرمن بقى حيا من أسرتها ، وسجينة قيصر ، كانت قد اختفت فى غمار فوضى الأسابيع الأخيرة ، دون أن يدرى أحد مكانها • غير أنهم جميعا قد جمعوا من صلاتهم بروما مالا وفيرا حتى أنها سرعان ما نجحت فى تبـديد شكوكهم بالنسـبة للمستقبل •

ومع ذلك فقد كانت نفسـها ممتلئة شكوكا وريبة • وها هى بعد سنين الغيبة ترجع الى حجرات القصر الخاوية المعقودة فيداخلها الروع فى أول الأمر من عزلتها • هنا رأت والدها ، من قبل ، فى سكره وصحوه ، يحـكم ويعزف بمزماره ، وهنا شب الى جوارها أخوان وأختان • وبرغم ما كان هنالك من صراع شديد وكراهية فقد كانت هنالك حركة مستمرة على الأقل ، وهنالك ، على المائدة الـكبيرة ، شاركت أنطونيوس وأباها الوليمـة ، وهى فى الحادية عشرة من عمرها • وكان قيصر يرقد على هذه الوسائد ذاتها عندما هبت قائمة أمام عينيه من السجادة • أمن الممكن أن تكون أربع سنوات فقط تلك التى انقضت منذ التقت لأول مرة بسنا عيونه السوداء تحت حاجبه الملكى ؟

الآن ، تعود الى كوة نافذتها القديمة ، تجلس القرفصاء وتسند رأسها الى الحائط الرخامى فالجو حار والوقت فى مايو حيث لا تهب أية رياح • وهناك ، الى أسفل ، فى الميناء الشرقى ، حيث ترقب السفن الجديدة تستعد للابحـار ، بينما تسير سفن أخرى فى الميناء بأشرعتها القصيرة ــ فى هذا المعبر المائى الدائم الحركة سبح قيصر من السفينة الغارقة الى قوارب منقذيه ، ممسكا بين أسنانه بعباءته الأرجوانية التى أخذت تثقل شيئا فشيئا حتى سقطت عنه أخيرا ، وهنـــالك الى اليســار ، كانت سفينته قد انطلقت الى البحر ، وهى تحملق فى أثره ، بينما كان ينظر اليها بدوره ، اذ لم يكن كلاهما يعرف ما اذا كان هذا آخر وداع أم سيقدر لهما اللقاء • واليوم قد انقضى ذلك الوداع الأخير •

وبقدر ما لم تكن كليوباترا قد احترمت أبا ، أو صادقت أخا أو زوجا مطلقا ، فانها شعرت الآن بأنها مهجورة مخذولة ، شعرت بالقشعريرة تحيط بها فى قصر غرامها الأول • ربما تمنت ، حينئذ عودة الخصى الماكر بوثينيوس أو بطليموس الأصغر أو حتى الزمار السكير لساعة واحدة ، حتى يمكنها أن تحلم بعودة الأيام القديمة ؛ برغم أنها لم تكن تشعر بأى حنين لهم • وهى وقد عادت الى بيئتها الأصلية ، مستيقظة من الحلم العظيم الذى رفعها عاليا ، لســنوات مضــت ، فوق عالم أجدادها ، وجــدت كليوباترا أن مدينة آبائها ضيقة جدا وأن الامبراطورية كلها غاية فى الصغر ، وأن رونقهــا بغــير معنى • لم تكن روما هى ما افتقــدته ، فالأشــكال البرانية للجمهورية سببت لها دائما النفور والاشمئزاز ، ولكنها كانت تأسى على خسارتها الأولى التى أجدبت حياتها ، وعلى أول عدوان من القدر على أحلامها المسيطرة • افتقدت كليوباترا الرجل الذى أخضعت نفسها له ، ذلك الذى كان لها أبا ومعلما وعاشقا وأخا فى آن واحــد ؛ كانت تبكى قيصر ، وعليها الآن أن تكون شجاعة فتحيــا بدونه •

لكن أقداما صغيرة تقرقع الآن فى قاعات القصر ؛ لم تكن هذه الأقدام قد تعلمت أن تقف بعد عندما أبحرت الملكة الى روما ٠ والآن يرجع اليها قيصر وقد استعاد شبابه ، بما يشـبه المعجزة ، فى شخص هذا الطفل الصغير ، هذه المرأة التى لم تذرف فى حياتها أبدا دمعة من قبل تقتـرب الآن من البكاء ، لا حزنا وأسى بل فى سعادة حفيفية كانت تشعر بها تسرى فى كيانها ٠

ولقـد حاولت مائة مرة أن تتذكر أية ليلة من أسابيع الحرب الأولى تلك التى حملت فيها بالطفل وما اذا كان ذلك فى القصر أم فى المعسكر ؛ على الوسائد ، هنالك ، فى فترة من فترات النظر الصامت ، أو فى الليلة التى سمعا فيها موسيقى الكتائب ، وكانت قلة من النساء يتصايحن فى الخارج بين الجنود ٠ أو ربما فى أحد الأيام بعد الظهيرة ، عندما توارى العدو أخيرا ، وكان قيصر قد قص عليها قصة المعارك السابقة ٠ ويده اليمنى ، مبسوطة ، وقد أثاره النصر ، ويتحدث فى عبارات متقطعة ، وبدا أنه غارق فى حلم يوم من أيام المستقبل ؛ ولكنه حينئذ ، ما أن تحقق من وجود مستمعته الصامتة ، حتى ألقى بنفسه فجأة عليها بخفة شاب ٠

واليوم ، عاودتها ذكريات ساعات حبها هذه ٠ وأصبح المكان، ووجود الطفل ، والوحدة فوق ذلك كله ، تلك التى لم تدركها على ظهر السـفينة ، بينما كانت مشـغولة بخططها ، أصبح ذلك كله يوقظ فى نفسها ذكريات كتلك التى كان يحتمل أن يبعث مثلها ، والى حد ما ، علاقاتها غير المستمرة والأقل متعة ، فى روما ، مع قيصر ٠ والآن حدثتها بداهتها وطبيعتها الحسية بحاجتها الى رجل؛ غير أنها وقد استعرضت الشبان الظرفاء من حولها بدا لها كم يدعو الى الهزء والسخرية أن تفكر فى أى من هؤلاء يكون خلفا لقيصر ٠ قد يكون العثور على واحد من العبيد الشبان أمرا سهلا ، كما يكون اسكاته اذا ما جرؤ على الثرثرة أمرا سهلا كذلك ٠

تطرد منى هذه الأفكار ، بدفعة من رأسها المجعد ، كما كان دأبها . ثم التفتت الى الطفل وأشارت الى السفن وهى تحمله بين ذراعيها ؛ وعندما كان يسألها عن وجهتها كانت تخبره بأنها جميعها تقصد روما .

- ٢ -

وهنالك كان يأتيها من روما الرسل والعملاء والعيون والمرابون ، كحلقات متصلة ، بأخبار الحوادث التى كان يتوقف عليها مصيرها ومصير بلدها ؛ لم يكن أحد فى كل بلدان البحر المتوسط تأتيه الأخبار باتقان على هذا النحو ، مثل ما يحدث مع ملكة مصر . وبينما كان رعاياها يبذلون ما فى وسعهم لارسال بضائعهم الى ايطاليا ولا يأتون من تلك البلد بشىء سوى الذهب ، لم تكن هى ترسل الى هنالك شيئا ، غير أنها لم تمل من جمع المعلومات الخاصة بما وصل اليه الايطاليون وبالصراعات القائمة بينهم ، ومن خلال فوضى يعكسها مائة تقرير كان يمكنها استنباط الحقيقة المحتملة فحسب ، ومن خلال هذه القرارات وحدها التى يتخذها أناس يعنيهم الأمر .

لم تكن عبثا دراستها لروما . فبرغم أوصاف أبيها لها ، فان روحها الشاعرة صورت لها فحسب الشعب الرومانى فى صورة يكتنفها الضباب والغموض ؛ غير أن باستطاعتها الآن أن تتخيل بدقة كيف كان يحدث كل شىء : التعبيرات وحركات الممثلين ، وحين يتحدثون بلهجة التوكيد ، وفترات الصمت ، ونساء روما اللاتى تفوقن على رجالها بنفوذهن القاطع الذى أبصرت كليوباترا وتحققت من أنه يأخذ مكانه فعلا أمام عينيها .

فهنالك سيرفيلينا ، التى كانت خليلة لقيصر زمنا ، هى الآن نيوبى Niobe أخـرى ترمز ، فى عائلتها وحدها ، الى الحرب الأهلية نلها ابن وابن زوج فى معسكر المنتقمين لقيصر ، وابن زوج ثان هو فى صفوف المتآمرين ، وفضلا عن ذلك كان هناك بروتوس• هكذا كان اثنان من أبنائها يحاربان ضد بعضهما البعض ، وكلاهما فى الجانب الخاطىء ، وأدركت كليوباترا حقيقة الصدمة التى كانت على هذه العجوز أن تقاسيها بعد أن قتل قيصر بيد ابنها ، وربما كان فى موازنة آلام سيرفيليا بحالتها هى ما تشعر معه كليوباترا بشفقة ، كانت غريبة عن طبيعتها فى الواقع •

وفضلا عن كل ذلك ، تتبع عمالها كل لحظة من حياة فولفيا ، تلك التى ربما يكون حقدها ورغبتها فى السيطرة فى أوج اشتعالها للمرة الأولى بسبب هذا الموقف الجديد المنذر بالسوء • كانت قد رأت فى شبابها المبكر رجولة وموهبة تتبدد بلا طائل ، وحتى مع أنطونيوس لم تستطع حتى الآن أكثر من أن تجعله على وفاق مع قيصر ؛ وهى فى هذه السنوات الأخيرة مضطرة الى أن تؤدى دور الزوجة التى اكتشفت كل ما كان يحدث حولها لتحذر زوجها ، صاحب الحظوة عند قيصر ، الرجل الأول • لكن بموت قيصر ، وعلى الحقيقة يوم وفاته على التحديد بدأت تمارس لعبة أشد خطرا ، لأنها كانت هى وحدها التى تستطيع أن تحد من افراط أنطونيوس فى الملذات . وأن توقظ فيه بدورها الطموح العظيم لكى يصبح الرجل الأول فى روما بدلا من الرجل الثـــانى • وكبـداية كسبت الى صفها أخاه لوكيوس ، ومعا سيحولان الرجل الغارق فى الملذات ، ويغيران من استمتاعه بحياة الشهوة الى جهد هادف كانت تحول بينه وبين السعى اليه حتى الآن رؤيته لقائده العظيم •

لا ، لم يكن أنطونيوس أبدا يحط من قدر نفسه • وبأسلوبه العسكرى كان يبصق عند ذكر أوكتافيوس الشاب ، ولم يكن ليأخذ

أوامره منه أو من ليبيديوس ٠ أما عن المتآمرين فكان بوسعه أن يجعل موقف المتآمرين مستحيلا ، ومن ثم يتغلب عليهم ٠ لينظر حيث يشاء فليس هنالك من هو أعلى منه شأنا ٠ لكن هذا الرجل كان أمامه طريق طويل قبل أن يمكنه تغيير مجرى التاريخ ٠ لم يكن لهذا الديونيسوسى قوة زيوس حتى يدبر برؤاه أمر الزمان والمكان ، لكن هذا هو ما كان من طموح فولفيا الرجولى الذى بذلت قصارى جهدها لتجعله لا يرتاح الى حياة الدعة فيشعر بأن الانغماس فى الملذات عار خليق بالازدراء ، ولتجعل ديونيسوس يرى عرش زيوس الشاغر ٠ ولقد ظهر لأنطونيوس ، وقد دفعته الى ذلك رغباتها وأوجعه وخزها ، أن عليه أن يقلد قيصر اذا ما أراد أن يصبح ندا له ٠

وتمتلىء نفس كليوباترا جزعا من الأخبار التى سمعتها عن سلوك فولفيا المستبد ، وبغريزة المرأة تنبهت فى الحال الى الخطر الذى يهدد أنطونيوس ، ومن ثم يهددها أيضا ٠ وبرغم أن حلمها قد انقضى الا أن من الواجب عليها أن تكون حليفة روما لا عدوة لها ٠ فذلك هو مبدأ أساسى تلقنته منذ الطفولة ٠ وتمنت أن ترى أنطونيوس هذا الذى كان قنصلا وقائدا يعلن الحرب على المتآمرين، لكن أنطونيوس ، الذى بدأ يرتقى مكان قيصر والذى كان يبحث عن مغامرة عالمية ويؤدى دور الديكتاتور قبل أن يحرز نصرا حربيا واحدا ، أنطونيوس هذا كان خطرا على نفسه وعليها ٠

كان خطرا عليها بوجه خاص ، طالما أن فولفيا القوية ستدفع عنه كل النساء الأخريات ، كما حاولت أن تفعل هى من قبل ، وبالتأكيد كانت فولفيا تسىء الظن بالمصرية الى الحد الذى كانت تنظر به كليوباترا الى المرأة الرومانية ٠ ولم يكن حقد كليهما على أوكتافيوس يكفى أساسا لصداقة تجمعهما ٠ فان فولفيا ، هذه ، قد أصبحت من قبل أرملة للمرة الثانية ، وهى فى سن العشرين ،

وليست اليوم بأكبر سـنا من كليوباترا • ولقـد استنفدت كل استمتاع باللذة ؛ وبدت بطبيعتها وبمنطق تجربتهـا ، منافسـة لكليوباترا • ولقد أعدتها الأحداث الأخيرة في روما ، فيما يبـدو لعداء فعال • أولا تفرغ هذه المرأة كل ما في جعبتها لتجعل زوجها، الذي ارتفع الآن ، الى مرتبة الديكتاتورية ، يرى ابنها خلفا أفضل من قيصرون ذلك البعيد هنالك في مصر والذي كانت أمه تدعي وراثته لقيصر ؟ فهمت كليوباترا ذلك بالطبع لأنها قرأت نظرات فولفيا عندما كانت قد التقت بها في مناسبات اجتماعية من قبل ـ ان فولفيا سوف ترى في كالبورنيا المسنة والعاطلة من الولد أرملة قيصر الحقيقية وليست أرملته ملكة مصر الشابة ، بابنهـا المؤرق هـذا ؛ خاصة وان امرأة مثل كليوباترا بوسعها أن توقع زوجهـا بسـهولة في حبائل فتنتهـا • واذا كانت كليوباترا رأت في أنطونيوس صديقها الوحيد في روما ، فانها رأت من قبل في زوجته عدوها المرتقب •

وكانت المعلومات التي تلقتها تتحدث عن نفوذ فولفيا الحاسم• فالبساطة التي تصدر بها ، شهرا بعد شهر ، وثائق جديدة تحمل خاتم قيصر وتوقيعـه كانت مرتبطة بتضافر هؤلاء الذين خدعوا بالخيـانة ، حتى ولو لم يجرءوا على الكلام بصراحة بعد • ولقـد واصل السكرتير الخاص تزوير أوامر العفو وأوامر النفي أو الاعدام باسم قيصر ، وكل شيء في النهـاية مسـألة تتعلق بالمال ، كانت القوانين وقرارات السـناتو موضـع مزايدة • وكانت ثروة قيصر (التي تقدر بما يوازي خمسة ملايين دولار) تكفي لمساعدة أنطونيوس على أن يدفع ديونه ، وأن يشتري بسخاء كل من يجد فيه سندا وعونا لنفوذه وسلطانه •

ومع ذلك فلم يكن أنطونيوس سيد الموقف على الاطلاق• ففي النهاية ضيق عليه القنـاصل الخنـاق وقد كان معظمهم في جانب

المتآمرين · وبعد هزيمته فى مودينا كان مضطرا الى الهـــرب من ايطـــاليا ، فى الوقت الذى كان شيشرون فى روما يتهم زوجته بالخيانة والاختلاس فى أحاديث دامغة · فما خطب شيشرون هذا ؟ وهو الهوائى المتقلب دوما ، والذى كتب فى اليوم الذى أعقب مقتل قيصر أنه يأسى على شىء واحد فحسب : هو أنه لم يدع الى وليمه الآلهة هذه · شيشرون هذا الذى كتب ، وبعد انقضاء شهر واحد فقط ـ رسالة عاطفية مؤثرة يثنى فيها على عبقرية أنطونيوس · غير أنه ما تكاد تنقضى شهور قلائل حتى كان قد تحقق من عظمة أوكتافيوس الحقيقية ما لم يره فى أنطونيوس · وبما أن عقله كان يجاهد للوصول دائما الى نتائج ملموسة برغم أنه كان يفتقر الى الغلظة الخالصة التى تدفع الى العمل ، فان مراوغته البالغة الدهاء ، والتى لم تحجب عبقريته ، كانت فى أغلب الأمر ضررا على سمعته، وأدت به فى النهاية الى الموت ·

ومن ناحية أخرى ، رفضت كليوباترا أن تسـمح للأخبـار السيئة بزعزعة عطفها على أنطونيوس · كان طبيعتها الغريزية ، الأشد ثقة بكثير من طبيعة شيشرون ، محصنة من الاضطراب العقلى وذلك بهيـام فيزيقى كان اسـمه قيصر أو قيصرون · وما زال أوكتافيوس هو عدوها فى روما ، كما فى العالم الخارجى ـ هـذا القيصرون الآخر · ذلك ما أدركته حتى من قبل مقتل قيصر ، وظلت على يقين منه طوال أربعـة عشر عاما وحتى وفاتها · وفى الوقت ذاته ، كان اهتمامها بمصير أنطونيوس يتزايد ؛ ويظل يتزايد طالما كان عدوا لأوكتافيوس ، غير أن الأوقات التى كان يتقارب فيهـا هذان الاثنان ، حينئذ لم يكن أنطونيوس يعنى بالنسبة لها شيئا ·

لكن أنطونيوس المهزوم ـ الذى قص عليها رسلها قصته ـ كان رجلا قريبـا الى قلبهـا · سمعت كليوباترا كيف هرب عبر جبال الألب ، بحثا عن كتائب صديقه القديم ليبيديوس ، الذى

كان قد ساعده على أن يحقق سلاما مع قيصر ؛ وسمعت كيف أنه ظهر أمام الكتائب ، فى لباس أسود ولحية شعثاء وملطخا بالوحل من رأسه الى قدمه ، ممثلا لدور تابع قيصر المخلص المضطهد من عالم شرير • وكان يفصل بينه وبينهم فقط جدول ماء صغير وهو يتكلم فيهم • كانوا جميعا يعرفونه ويحبونه • وبما أنه سعى الى كسب تأييدهم بحديثه الطلق فان ليبيديوس ـ وقد أسقط فى يديه ـ لم يجد فى النهاية مناصا من أن يأمر بالنفخ فى الأبواق ليخفض أنطونيوس من صوته ! • وعندما رددت فولفيا خطبها مرارا بقصد اتهام أوكتافيوس والشكاية من أنه ـ وهو الوارث لقيصر ـ لم يفعل شيئا ينتقم به لمقتله ؛ وبدلا من أن يدفع الى الشعب بميراث قيصر كان يسعى الى قتل أنطونيوس ـ عندما سمعت الملكة على البعد مثل هذه التقارير شعرت فى بعض اللحظات بحب حتى نحو فولفيا الشرسة • بأى وضوح كان يمكنها أن ترى وتسمع كل حيل روما وأكاذيبها ـ كان يمكنها أن تشم رائحتها عبر البحار ! وأن تدرك كيف كان كل حزب من أحزاب روما الأربعة يحاول أن يوقع بالآخر ، وكيف أنها حاولت أن تندمج بعد ذلك ؛ وكيف حذرهم شيشرون بخطبه البليغة من خطر نشوب حرب أهلية سادسة لا يعرف مداها ، وكيف أن أوكتافيوس ، الفاتر ، باعتباره الوريث الشاب كان قد ترك أبواب بيت قيصر مفتوحة على مصراعيها ، ارضاء للشعب الذى يحتقره ، مع احتفاظه بالمال الموروث ، كما هو شأن جده المرابى ، وكيف كان الجميع يتقربون الى المحاربين القدماء المتمرسين بالقتال ، آملا فى شراء سيوفهم وأذرعتهم ! هذه الأشياء كلها كانت تتسلى بها المرأة وهى تسمعها أو تقرأها فى مصر •

غير أن رسائل تالية ترد اليها ، بعد أسابيع قليلة ، تتحدث عن رغبة الكتائب فى التوفيق بين خلفاء قيصر ، فهم لا يرغبون

فى قتال أصدقائهم. ويعلو وجه كليوباترا الشحوب لهذه الأنباء. ما الذى كان بوسعها أن تفعله ، وهى التى تشعر بالقطيعة البينة بينها وبين قتلة قيصر ، لو أن المنتقم ذهب الى ابنه المتبنى ! بيد أن ذلك حدث فعلا ، بعد هزيمة أنطونيوس وفراره بسبعة شهور فقط . ويجتمع الأعداء ، فى الشمال - ليشكلوا حكومة ثلاثية جديدة على غرار الحكومة الثلاثية القديمة بين قيصر ومنافسة بومبى والثرى كاسيوس منذ أربعة عشر عاما ، ويقوم الاتحاد الجديد على الحذر والريبة بين ثلاثة من الديكتاتوريين كل منهم يريد كسب الوقت وخدعة خصومه بمعاهدات زائفة لكى يطبق عليهم فيما بعد بسرعة وفى أقرب لحظة ممكنة ؛ وتلك ملهاة للرعايا الذين كانوا ، فى نهاية الأمر ، جنودا وممولين يدفعون الضرائب ليسدوا شره سادتهم وشهوتهم الى السلطان بالدم وبالذهب .

أى انحدار للشخصية ذلك الذى حدث ! ففى مكان قيصر الآن ابن أخت ضامر ؛ وفى مكان بومبى ، الارستقراطى العظيم ، قائد منغمس فى الملذات ! ومع ذلك كان كل واحد من هؤلاء الثلاثة، الذين أحيوا العرف القديم ، يعتبر نفسه ، يقينا ، قيصر المستقبل، حتى أن أوكتافيوس كان يبدأ كتابة اسمه مسبوقا ب جايوس جوليوس قيصر ؛ وتنقضى ثلاثون عاما يبدأ العالم بعدها فى الاعتقاد بأنه لم يوجد أبدا قيصر آخر من قبل .

فى مرارة صامتة تستمع كليوباترا الى تقرير أحد عيونها عما انتهى اليه أمر الحكومة الثلاثية الجديدة ؛ وكيف اجتمعت الجيوش على ضفاف نهر قريب من بولونا لتكون شاهدة على هذا الحلف ضامنة له ؛ وكيف رسا ليبيديوس على جزيرة صغيرة وأشار منها الى الشاطئين ؛ وكيف عبر أنطونيوس وأوكتافيوس النهر ولمس كل منهما الآخر ، تحت بصر كتائبهم المتهللة المبتهجة ، ليتأكد كل من أن صاحبه لا يخفى تحت ملابسه سلاحا . وعلى حين أن الجنود

كانوا لا يزالون يؤمنون بقيمة العلاقات الأسرية كرباط وثيق ، أرسلوا وفدا منهم الى الخصمين بعدما تلاقيا يستعجلونهما بعقد زواج يتطلعون اليه ؛ ينبغي أن يتزوج أوكتافيوس من ابنة فولفيا من زوجها الأول ؛ وهي بعد طفلة لم تزد على ثماني أو تسع سنوات ، أما فولفيا ، وهي التي كانت تبني آمالها دوما على صحة أوكتافيوس السيئة والتي صلت لموته طويلا ، فيجب عليها الآن أن تبادر ـ وهي ابنة السادسة والعشرين عاما ـ فتعانقه أما لزوجته المرتقبة ، ربما يكون أوكتافيوس ، ذو العشرين عاما ، قد فكر بالتأكيد في أنه كم يكون ممتعا لو يتزوج الأم ·

ولكليوباترا نفسها في هذا الزواج آمال ضعيفة ، لكنها آمال من نوع مختلف تماما · كان عليها أن تتخيل فقط هؤلاء الرجال على جزيرتهم لترى أن تحالفهم سيكون أمده قصيرا : فان ليبيديوس يأخذ الحياة مأخذا سهلا لكنه حاد المزاج قليلا ولا يريد الا أن يترك في سلام ، وذلك المسرف أنطونيوس ، وأوكتافيوس الجاف المتأرجح بين اعتدال ظاهري وافراط داعر ماجن ، العصبي المريض الجبان الشديد الحياء والبالغ القسوة من أجل ذلك · هؤلاء الثلاثة كانوا دون فولفيا نشاطا وخيالا ، كانوا يقتسمون امبراطورية قيصر كما لو كانت ارثا عن عائلتهم ·

لم تفزع القائمة الطويلة التي حالما أعدها ثلاثتهم ـ واقترحوا فيها قتل ألفين من أعدائهم الأثرياء ـ لم تفزع كليوباترا · ولقد امتنت لسماع مقتل شيشرون ؛ وكيف أن الجندي جذب رأسه من فوق المحفة وقطعها ببطء · لكن فولفيا حينما بصقت بعد ذلك على رأس عدوها الميت ورشقت لسانه البذيء بدبابيس شعرها بدا ما فعلته ، لكليوباترا ، زريا خسيسا · وسمعت كيف أن الجميع أخذوا يفرون انقاذا لحياتهم ، وكيف تنكر أعضاء السناتو كعبيد وكانوا يفرغون المراحيض تجنبا للقبض عليهم ، وكيف وزع

آخرون ثرواتهم فى اللحظة الأخيرة حتى لا يتركوا شـــيئا للجباة القـــادمين للحجز على ممتلكاتهم ، وكيف سجلت زوجات أسـماء أزواجهن المبغضين فى القوائم ـ ذلك كله عرفته كليوباترا فيما كان يرد اليها من تقارير عن الأحداث فى روما • لكنها تألمت وقد صح لديها أن الدافع الى هذه الأفعال لم يكن الرغبة المتأججة للانتقـــام بل كان البخل الفاتر والطمع فى المال ، ورأت أن وراء هؤلاء القتلة جميعـا ، وجوه مائتى ألف من المرتزقة الرعـــاع كانت قوتهـم الوحشية لازمة لحكم الحكام وتوطيد السلطان •

وربما حقدت الملكة على فولفيا وهى ترى رءوسا كثيرة لأعدائها تسقط فى التراب • لقـد كان على أحـد جيرانها الأثرياء ويدعى روفيوس ، سبق أن رفض بيع منزله لهـــا ، كان عليه الآن أن يستسلم لمشيئة فولفيا ، وعنـدما قال أنطونيوس ، وقد أحضرت اليه الرأس المبتورة وهو جالس فى مأدبة ، انه لم يكن يعرف الرجل ـ افترض أن الأمر ربمـا كان خاصا بزوجته ـ وتمسـك فولفيـا بالرأس ، فى شهوة انتقام ، وتأمر بأن تقام أمام المنزل حتى يعرف الملأ سبب مقتله • كانت قوتها تتزايد حينئذ ، لأنها كانت تحكم فى روما مع ليبيديوس التى أخضعته لأهوائها ، بينما أبحر العاهلان الآخران الى اليونان ليوقعا هزيمة نهائية بقتلة قيصر •

فى هـذا الصراع الذى كان يوشـك أن يهز الامبراطورية بأسرها ، بل وحتى كليوباترا ، فى شاطئها البعيد ، كان لزاما عليها أن تحدد موقفها من الأحزاب المتصارعة • لم يكن قلبها يعرف سوى حزبا واحدا ، غير أن الحرب عندما وصلت حتى حـــدود افريقيا ، من أجل التنازع على خلافة قيصر ، أصبحت مصالح بلدها فى خطر • فكيف يكون أمرها لو أن كاسيوس قاتل قيصر ، والذى يحتفظ بثمانى فرق فى سوريا ، صمم على أن يحصل على ذهب كثير من مصر كما حصل عليه من خمس سنوات مضت ؟ وأن واحدا

من الحزب الآخر ، واسـمه دولابلا ، كان قريبـا بحيث يمكنه أن يحميها ، لكنه على الرغم من عداوته للمتآمرين كان أيضا عدوا لأنطونيوس ، ولقد أعطته الملكة ، عندما طلب مساعدتها ، الفرق الأربع التى تركها قيصر فى الاسكندرية لتحمى مصـالح روما • ولكن الرجل الذى جاء يلتمسـها قد خانها ، أو ربما قبض عليه كاسيوس ، فمهما يكن الأمر ، سقط هؤلاء الجنود جميعهم الذين كانوا تحت امرة ملكة مصر ، سقطوا فى يدى واحد من قتلة قيصر•

يا له من موقف مهول ! أليس هنالك من الأسباب ما تخشى معهُ وصول أعدائها ؟ كان كاسيوس هذا قد أرسل لها أوامره من قبل طالبا أن تزوده بالسفن ، وكان حاكم قبرص ــ وتابعها ــ قد أعطاه فى الواقع بعض السفن • فتبادر الملكة الى تقوية أسطولها ؛ لكن من سيحمى مصر ، وميناء الاسكندرية المفتوح ؛ لو أن كاسيوس سلك فى ذلك الوقت ، بالضرورة ــ الطريق الصحراوى القديم من سوريا ، ذلك الطريق الذى سلكه غزاة مصر ، لآلاف السـنين ، وكان آخرهم الاسـكندر ؟ بوسعها أن تتمثله فى وقفتـه هنالك أمامها ، على نهر التيبر ، مستندا الى العمود الأيمن فى الردهة ناظرا اليها بنظرة فاحصة شملت قيصر كذلك • ماذا لو أن النزوة العاتية دفعته الى أن ينظر من قرب أكثر قليلا الى خليلة قيصر ، الذى سقط بخنجره ؟ • كان النيل منخفضا انخفاضا لم يحـدث من عشرات السنين ؛ فتصاب البلاد بمجاعة ويتفشى الطاعون فى العاصمة • ولم يكن جوابها لكاسيوس الا مراوغة قد تمكنها من كسب قليل من الوقت •

لكن بدا أن الآلهة لم تكن فى جانب قتلة قيصر • فبينما كان كاسيوس يضيق عليهـا الخناق ، استدعاه بروتوس الى مقدونيـة برسالة عاجلة ، فقد كان يستعد لخوض معركة فاصلة ضد الحكومة

الثلاثية • أى جانب سيكتب له النصر ؟ لم تكن كليوباترا تدرى من الأقوى ، أو من كان القائد الأفضل •

كانت نتيجة المعركة ، فى واقع الأمر ، غير حاسمة تماما • فقد واجه اثنان من القواد بعضهما البعض ، كلاهما كان عصبيا ؛ وفى حالة من نفاد صبر وعصبية ضرب بروتوس ضربتــه فى الحال، فأوقع الهزيمة بأوكتافيوس الذى أفزعه تماما هذا الهجوم الكاسح فاختبأ بين البرارى ؛ وكان بوسع بروتوس أن يكسب المعركة يومهـا ــ لو أنه زود جيش كاســـيوس بمدد قوى ، ذلك الجيش الذى هزم لتوه من أنطونيوس • كافح أنطونيوس ــ متأخرا ــ لكسب المعركة ، وواجه حليفه المهزوم أوكتافيوس كما واجه عــدو أوكتافيوس ، المنتصر ، الى أن سقط الأعداء المقهورون بأيديهم : بروتوس وكاسيوس اللذان جرؤا على قتل قيصر ، الرجل العظيم •

ومرة أخرى ، أثارت الأنباء الواردة من وراء البحار ، ذات العواطف فى قلب فولفيا وفى قلب كليوباترا • كلتاهما كان فى حيرة أو فى غضب من لين أنطونيوس الذى كان ينبغى عليه أن يقتل أوكتافيوس فى الحال ، لكن واحدة منهما فحسب استغرقتها تلك اللحظة التى شهر فيها بروتوس على نفسه ، بذات اليد ، السيف الذى أغمده منذ سنين فى كليتى قيصر الأعزل• واعتبرت كليوباترا هذا الانتحار ، الذى أعقبه انتحار اثنى عشر آخرين من المتآمرين ، انتقاما حقيقيا ، تحدثت به الآلهة فى عليائها •

أبدا لم تفقد كليوباترا ، وراء تقلبات المستقبل ووسط كل أفكار الشؤم ، رؤية نجمها الذى وثقت به • ولقد كان باستطاعتها، بعد مقتل قيصر مباشرة ، أن تراه بعينيها فى السماء فى هيئة مذنب متألق ساطع •

- ٣ -

نزل بالاسكندرية فى أحد الأيام ـ بعد انقضاء ستة شهور على معركة فيليبى ـ رومانى على قدر كبير من الرشاقة ، لم تكن تعرفه الملكة من قبل ؛ كان رجلا غامضا ، وفيلسوفا بقدر ما كان رسول غرام ، اسمه دليوس ، وموفدا من قبل أنطونيوس ٠

ولقد احتفظ أنطونيوس لنفسه بالشرق ، عند اقتسام الامبراطورية الرومانية ٠ انجذب اليه بطبيعته ، اذ كان فيه جانب كبير وأساسى من المزاج الاغريقي ؛ انجذب اليه بذكريات شبابه ، وبميراث قيصر الأخير ٠ هو لم يشأ أن يبدأ في الحال غزو فارس ، فهو ليس كالاسكندر حتى يقدم على مثل هذا العمل ٠ غير أن الأوراق التى استولى عليها أنطونيوس من منزل قيصر ليلة مقتله ـ وهى مجموعة المذكرات والأشكال والخرائط والرسوم التوضيحية التى يضعها قائد يخطط لحملة كبيرة ، وأسماء الموانى والطريق التى يسلكها وعدد الخيول والثيران وكمية العلف اللازمة، كل ذلك مجموع بطريقة ما ؛ ولذلك يمثل حافزا قويا لوارث يأتى من بعده ـ هذا الميراث الفريد الذى خلفه قيصر ، والذى وقع فى يد ضابطه الأول يكون له سلطان السحر على قلب وريثه المخلص وعلى عقله ، كما كان في الوقت نفسه رمزا وتحذيرا ولقد فكر أنطونيوس فى أنه سوف يمكنه أن يفعل يوما ما شيئا من ذلك ٠ لكنه كان يريد أن يقهر السواحل الجنوبية الشرقية لآسيا أولا ، تلك الجزر وأشباه الجزر التىتذكره بأيام شبابه ٠ كانت طبيعته تجذبه الى هنالك لا الى حيث البرابرة الباردين فى بلاد الغال ، وكان اعتراف قيصر ، أخيرا ، لا يزال مدويا فى أذنيه : فلقد بعد عن الجنوب زمنا طويلا ٠ وهنا تنتظره أمور ذات بال ، القيان الحسان وأحلى أنواع النبيذ ٠

ولدهشته ، كانت تنتظره هنالك ، فى هذه المرة ، أميرات

أيضـــا فى الجنوب · فان الملوك الصغار فى كابادوكيا وفريجيـا تباروا فى اقامة الولائم التى أعدوها للقائد الديونيزوسى ، ولـكن أن يجعل ملكا من هؤلاء الملوك الصغار ينتظره خارج خيمته ، فتلك لحظة ــ فى حد ذاتها ــ جديرة بأن يحيا من أجلها المرء ، وعندما أزال النقاب ، بعد ذلك ، من فوق وجه الملكة ، زوجة هذا الملك ، أحس بأن الوليمة قد بدأت حقا فى تلك الأثناء · على هذا النحو واصـل أنطونيوس تقدمه عبر جزر اليونان ، وبما أنه لم يكن ثمة عدو رومانى باق حتى الآن ، كما لم يكن ثمة عدو أجنبى ، فقد كان يحسن به أن يضم الى جيشـــه ، عالمه الخاص به ، عالما يتحرك فيه الراقصـــون والممثلون على أوتار الهارب وأنغام المزمار ، بينما تزدان الحراب ، التى لم تعد بعد أسلحة ، بأوراق الشجر ·

كان أنطونيوس فى حالة من حالات المزاج الشهوانى الى حد أن موازنته بين هؤلاء النسوة الثلاث وبمجموعة قيصر ملأته ضيقـا وكدرا ذات يوم ، هنا صمم أيضا أن يصبح رجل روما الثانى الرجل الأول · لكن ظل قيصر مازال يجثم ثقيلا على صدره · أو لم يكن قد أرسل اليها لتمثل أمام قضائه قبل أن يراها ؟ أو لم تكن قد أرسلت حينئذ أربع فرق لكاسيوس ؟ ربما كانت التقارير التى جعلتها تسلك هذا المسلك صحيحة أو زائفة ، لكن أمرا واحدا كان مؤكدا ، هو أن أنطونيوس فى معركة فيليبى ، اضطر الى التضحية بكثير من رجاله أمام هذه الكتائب التى تركها قيصر ــ وكان ذلك بسبب غلطتها ! لكنه لم يستطع أن يوجه اليها ببساطة ماتستحقه من لوم ؛ فقد كان احترام أنطونيوس لها عظيما جدا · ولهذا ترك الأمر لكياسة رسوله ولباقته ليجد شـكلا مناسبا للخطاب الذى سيكون شيئا بين الدعوة والأمر ، ولم يكد دليوس يمثل بين يدى الملكة حتى انحنى فى خشوع وولاء وتنبأ بمـا ينبغى أن يحـدث مستقبلا · ورأى أن أفضل ما يفعله هو أن يقتبس بيتا من الالياذة،

فيقول للملكة مبتسما وناصحا لها كما نصح بوزيدون هيرا :
« ارتدى أفضل ثيابك واذهبى الى كليكيا » •

ابتسمت كليوباترا وانتظرت أمرا رسميا بالحضور• ووصلتها رسائل عدة ، هى لم ترفض الدعوة ، لكنها بينت بوضعها الملكى ، أنها ان اعتزمت زيارة العاهل الرومانى فسيكون ذلك بمثابة نزهة سارة ؛ هى على أية حال سوف تفكر فى الأمر • ومرة أخرى تجلس وحيدة ، كما كانت منذ سبع سنوات ، حينما دعاها قيصر ؛ غير أنها لا تجلس فى خيمة كئيبة على حافة الصحراء ، بل فى قصرها البارد هنا ، تفكر فى الأمر الذى تقرره •

« أبدا ، لا تعادى روما » • هــذا ما كان ينصحها به والدها الزمار فى ساعات صحوه ، أو كان قدرا ألا يرضيها أى رجل من الاسكندرية طوال هذه الفترة ؟ أم كانت مسألة ذوق فحسب ؟ ها هو ذا رومانى ثان ! ليس أنطونيوس بقيصر ، فهذا أمر واضح• لن يكون بوسعها مطلقا أن تجد ، فى هذا العالم ، قيصر مرة ثانية ، ما لم يكن فى شخص قيصرون • لكن أوليس فى هذا الديونيزوسى الملتحى كثيرا مما كان يفتقده قيصر ؟ ترى ، كيف يكون الجنوس بجــانبه يجرهما اثنــان من الأسود عبر الطرقات ؟ هنالك أشياء كثيرة لم تكن كليوباترا جربتها بعد ، لكن دمها ، وبعد الأشعار اللاذعة تماما ، أثار فضولها وأشار لها الى الطريق •

كانت على ثقة من النصر ، ثقة قيصر التى اعتادها قبيل أية معركة • غير أنه لو كان يريدها ، فلن تملك الدفاع عن نفســها طويلا ، باعتبارها ضيفة عليه حينئذ ، فى ميناء غريب ؛ فقد كان بالغ القوة وكانت هى بالغة الجمــال • وحتى ان يكن فى ذهابها اغتصاب لفولفيا فسيكون ذلك هدفا ســـارا ، يكفى وحـــده لأن يدفعها للرحلة • وهكذا عرفت النتائج مقدما ، وفى النهاية تقوم ،

مختـارة ، برحلة بحـرية ربما كانت ستنتهي بمغـامرة · كانت تعرف ، قبل كل شيء ، أنه الرجل الوحيد الذى أحب قيصر حبـا خالصا حقا ، ومن ثم فلا يمكنه أن يكون غير مبال بقيصرون ·

لكن ، على أى نحو ينبغى لها أن تبدو أمامه ؟ لا يمكنها أن تطوى نفسها فى سجادة مرة أخرى ، وخاصة اذا كانت قد أصبحت، فى الوقت نفسه أما · فربما يحـدث لهـا شيء على وجه التأكيد ، فكرت كليوباترا واتخذت للرحلة عدتها ·

وفى الوقت نفسه ، كان جانبها الآخر الأكثر برودة ، يحسب تقديرات المسـتقبل · من الضرورى أن تكون صـديقة الرومانى المسيطر على الجزء الجنوبى من البحر المتوسط ، ومن الضرورى أن ترضى مثل هذا الرجل · وهذا ما حسم الأمر ، ذلك أن من الصعب على كبريائها أن تبحر الى رومانى ببساطة لمجرد أنه أرسل يدعوها، ومن ثم ، فلكى يمكنها أن تشعر بأنها تبحر كملكة ، كما كان شأنها حينما أبحرت الى روما من قبل ، جمعت ذهبا وعبيدا وحليا وأدوات للزينة ؛ وحملت معها من روائع الكنوز ما ملأت به مائة صندوق ، أنزلت من القصر ببطء الى السفن على أكتاف عبيد سود لايحصيهم العد ، ويملئون بها اثنتى عشرة سفينة من ذوات المجاديف ، ويفيض الكتاب القدماء فى ذكر الأسماء وأوصاف الأعمال الفنية العجيبة مصورين ما أخذته الملكة معها وهى مبحرة ، الى طرسوس ·

وفى أثناء الرحلة الى آسيا الصغرى ، كانت الملكة تردد مع ذلك فى خاطرها ، بأسلوبها العملى ، ما يمكن أن تتوقعه من هذا الرومانى الثانى :

وفق ما سمعته من قيصر ، ومن أعدائه ، وأخيرا من عمالها كان أنطونيوس طيبا كأمه غير ثابت كأبيه ؛ وذلك لأن البيت الذى جاء منه قد نسج من اسراف أبيه ومن دموع أمه الحزينة · لم يتلق

كثيرا من التعليم ؛ فقد هرب من دراسته فى أثينا ، مفضلا حياة المغامرة فى سوريا قائدا للفرسان ؛ وهكذا جاء الى مائدة أبيهـا الملكية ، عندما التقت عيونه بعيون الطفلة ذات الأربعة عشر ربيعا في تلك النظرة الجادة الغريبة · وفيما بعد ، عندما كان في الثلاثين يكتشفه قيصر ·

وان كان قيصر قد عزله ، فانه أولاه أخيرا ثقته المطلقة ، ذلك لأنه كان يشعر بأنه هنا يقف على أرض ثابتة · فمن النادر أن يكون المرء بمنأى عن الغيرة · أما فيما يتعلق بالاخلاص ، هل كان هنالك أخلاص مثل اخلاصه لقيصر ؟ وحتى مثل هذا الولاء الصادق ،متى وجد ، يكون أكثر ندرة عندما يرتبط بمقدرة فائقة في ميدان القتال، وشجاعة لم تعرف الحرص قط · من هذه النواحى بدا أنطونيوس لكليوباترا ثابتا لا يحيد ؛ كما أن الحسم والتصميم الذى استعد به للانتقام لموت قيصر ، أثناء تلك المناقشات الحادة ليلة مقتله ، كان على نقيض بين من ذلكالتردد الدبلوماسى الذى تقرببه أوكتافيوس، الوارث المختار والمنتقم الحقيقى ، الى شيشرون وآخرين من أعـدائه رويدا رويدا ·

وتفكر الملكة وهى على ظهر سفينتها ـ لكى تكون علىيقين منه، عليها أن تعرف أن فى طباعه شيئا من اللهو ؛ وهو ما جعله يألف الاختلاط بالممثلين · وبوسعها أن تسمعه ، كما سمعته من قبل فى ليلة جنازة قيصر ؛ يرفع صوته حينا ويخفضه حينا آخر الى أن يصبح همسا متكلفا · بأية مهارة استطاع حقا أن يعرض التمثال الشمعى للرجل المقتول ، وهو يشـير الى ثلاثة وثلاثين جرحا ، وكنهاية بارعة ، ينشر أمام الناس عباءة قيصر الملطخة بالدم ! ومع ذلك فقد كانت دموعه دموعا حقيقية لأنه كان يحب قيصر · أجل ، كانا ، هى وهو ، الوحيدين اللذين شعرا ، الى جوار جثمـانه ، بأنهما لن يشهدا نظيرا له مرة ثانية ·

أية أفكار ماجنة كانت لديه ، ويا له من طفل كبير ! عنـدما رجع الى الوطن بعد وفاقه مع قيصر ، وكان قد أذيع فى روما مرة أخرى أن قيصر قد قتل ، وأن جيشا معاديا يقترب من المدينة ، أسرع أنطونيوس ، وقد تنكر فى زى أحد العبيد ، وألقى على رأسه قماشا أسود وذهب الى زوجته ـ وكانت فولفيا نفسها هى التى أخبرتنى بذلك ـ يحمل رسالة من أنطونيوس • وصاحت فولفيا « هل هو حى » ؟ فأشار أنطونيوس الى الرسالة فى حزن • وفضت فولفيا الرسالة وقرأتها • كان أنطونيوس يعدها بأنه لن ينام مع المحبوبة سيثيريا بعد ذلك أبدا • وحينئذ مزق القماش من فوق رأسه ودخل معها فى جلبة وصخب الى حجرتها •

وفى مناسبة أخرى منح أحـد أصدقائه « نصف مليـون سيستيرس » هدية ، وعندما وضع وكيل الخراج الساخط أمامه كومة النقود بنظرة لوم ، أجابه أنطونيوس بقوله : « أهذا قليل جدا ؟ ، اذن اذهب واحضر له ضعفه ! » •

وبينما كانت تسترجع على هذا النحو شخصية الرجل الذى كانت السفينة تحملهـا اليه ، تحققت ، كلما تذكرت كل حـكاية من حكاياته ، أن أية واحدة من هذه القصص لا يمكن أن تصـدق على قيصر ، ولأن أنطونيوس كان أقل أهلية للملك من قيصر بكثـير فانه استطاع أن يكون أكثر لهوا وطفولة واسرافا ، ولهـذا السبب بعينه بدا ذلك الرجل الذى يرضى النساء •

النساء ؟ كانت فولفيا هى العقبة الحقيقية ؛ وبما أن أنطونيوس كان غير ثابت تماما فان نفوذ فولفيا المتوحشـة كان يلقى ظلاله عليه ويمنعه أن يقيم علاقات أخرى طالما كانت هى حاضرة ؛ ولقد تساءلت كليوباترا عن مدى استمرار هذا النفوذ عندما تكون بعيدة عنه • لكنها تذكرت حينئذ مرة ثانية حقد فولفيا على أوكتافيوس • النقطة

التى يتفق عليها ثلاثتهم • واذا ما كان من الممكن انتزاع أنطونيوس من ربقة مزاجه الخمرى ، واذكاء طاقته الحربية لأمكن أن يكون شيئا مذكورا • هذا ما أدركته فولفيا ، من فترة طويلة ، وما فطنت اليه عبقرية بلوتارك السيكلوجية ، بعد انقضاء قرن من الزمان ،حينما كتب يقول : « لقد تخرج أنطونيوس من مدرسة الحكومة النسوية المسيطرة قبل أن يسقط بين يدى كليوباترا ، وكان لدى هذه الأخيرة ما يوجب عليها أن تكون شاكرة لفولفيا ، التى كانت قد روضته من قبل لخليفتها وأسلمته وقد اعتاد الطاعة والخضوع » •

وربما سجل كاتب السير العظيم ، فى ايليزيوم ، الابتسامة التى صدرت عنها عند قراءة هذه الكلمات الفاصلة عن أنطونيوس !

- ٤ -

كان أنطونيوس يجلس فى ميدان فسيح ، وسيفه الكبير بجانبه ـ ذلك السيف الذى لا يفارقه أبدا ـ من غير أن يتمنطق به ، لأنه لم يكن ليطيق أى شيء يذكره بالزى العسكرى ، ويتكيء على كرسى من العاج، كان يلازمه فى انتقاله من روما الى المستعمرات • كان جالسا يقضى بين الناس ، اذ باعتباره واحدا من ثلاثة يحكمون فانه يتمتع بحق منح الحياة أو القضاء بالموت • حقا لم يفوضه أحد فى هذا الحق ، اللهم الا مجلس السناتو المؤلف من دمى • لكنه أيضا منحه لنفسه، بفضل القوة التى مكنته من امتلاك نصف الامبراطورية الرومانية ؛ وقد صار جانب ضئيل فحسب من نصيب ليبيديوس ، ثالث الثلاثة •

كان أنطونيوس ، اذ ذاك ، فى طرسوس ، ذلك الميناء الزاهر

على خليج الاسكندرونة ، على الطرف الشمالى حيث اتصاله بالبحر المتوسط ، فى مواجهة جزيرة قبرص وانطاكية القديمة ٠ من هذا المكان تحـرك جيش من القاعدة السـورية ، ليقهر الممالك الكبرى لآسيا الصغرى ـ أرمينيا ، وميديا وفارس ، ثم أرض البارثيين ، كما كانت تسمى حينذاك فى الغالب ٠ والى الداخل قليلا ، كانت تقع طرسوس ، تحت سفح قمة طرسوس ، وهؤلاء الذين يأتون اليها من البحر كان عليهم أن يعبروا نهر « الكيدنيوس » ، الصغير الملئ بالبوص والبردى ٠ لكن النهر ينتشر بعد ذلك مكونا بحيرة تزيد المنظر الرعائى للمدينة جمالا وروعة ٠

كان ذلك وقت الغروب تقريبا ، لأن السيد العظيم كان يختار أبرد ساعات النهار للعمل خلالها ٠ وهنالك فى أثناء انشغاله ، أحس بهرج يعم الساحة ؛ أمام مقعده المرتفع ؛ ورأى كيف كان الجمهور يختفى بالتدريج ـ الشباب أولا ثم النساء ، ورجال طرسوس والجنود الرومانيون ٠ ولكونه فضوليا ، شأن كل الديكتاتوريين ، فانه طلب تفسيرا للأمر ٠ ويخبره بعضهم ، متمتما قليلا ، بحدوث معجزة ، وهو أمر يعتقد فى حدوثه منذ الزمان الماضى : لقد جاءت أفروديت ؛ تبحر عبر الكيدنيوس ، وسوف تنزل فى الحال الى البر ٠

كان أنطونيوس جنديا وكوميديا فى آن واحـد ، ولم يكن يعتقد فى الأساطير ٠ فأصـدر أوامره بضرورة احضـار السـيدة الغامضة ، على الفور ، أمام مقعد قضائه ٠ وفى الوقت نفسـه كان الهرج يتزايد ، والناس يهرولون ويتصايحون ؛ وبدا أن هنالك موسيقى تنساب عبر الهواء ؛ ويجرى الرسل هنا وهناك ؛ ويخطف الجنود أسلحتهم ؛ ولكل واحد طائفة من الأخبار الجديدة عن المرأة العجيبة ، غير أنهم كانوا متفقين جميعا ، على أن السـيدة الغريبة بخدمها ، لا يبدون حراكا ، ترى ، ما الذى مزقه أنطونيوس القاهر بين الفضول والغضب ؟ لقد نهض من مقعده متجها الى الشاطىء ٠

كتب بلوتارك يقول ، ومنه استوحى شيكسبير : « لقد قدمت عبر نهر الكيدنيوس فى مركب مؤخرتها من الذهب وأشرعتهـــا أرجوانية ، ومجاديفها من فضة • تتوافق حركاتها مع أنغام المزامير وآلات الهارب • وتبدو الملكة فى زى أفروديت وهيئتها ، راقدة على وسادة مدبجة بالذهب ، كما يتطلع المرء الى صورة مرسومة أمامه : بينما يحيط بها فتيان حسان ، وقد تزينوا فبدوا فى صورة كيوبيد وهم يروحون لها ، وفتيات لابسات زى بنات البحر وربات الجمال، البعض يأتون بحركات كما لو كانوا يجدفون والبعض الآخر ينشغل فى الأشرعة • وتســبح الى الشاطىء كل صنوف الروائح الذكية تنبعث من السفينة ، وعلى الشاطىء يتجمع الآلاف للتطلع اليها •

الآن ، وقد فتح الطريق للسيد أنطونيوس ، تعلو وتهبط عصى مقوســة عليها مصابيح ، باشارة من كليوباترا لتشكل مزيجا من الزخارف الأرابيسك • وفى عذوبة بالغة يختلط نور الشفق بضوء المصابيح المتعددة الألوان ؛ كان الضوء لا يزال كافيا ليكشف عن ومضات ابتسامة تعلو شفتى الملكة • وبينما كانت تستلقى هنالك متراخية فى هدوء ، رفعت يدها الرشيقة البيضاء لتمسك بأصابع الجندى الخشنة السمراء • وتحييه نصف ملكة ونصف الهة ، بينما كان الرومانى ، ذو الجـــانب الكوميدى من طبيعته مهيئـــا تهيؤاً مضاعفا لتقدير هذا المنظر المسرحى •

فى ذلك المساء بعينه بدأ الاحتفال • ويصف كاتب اغريقى الوليمـــة الأولى التى أقامتها للرومانى ، بقـــوله : « كانت الأوانى والأطباق كلها من ذهب ، ومرصعة بالأحجار الكريمة ومزدانة بفن أرفع الفنانين وأعلاهم قدرا ومهارة • وكانت الجدران تزينها ستائر أرجوانية ومطرزة بالذهب ، وأعدت اثنتا عشرة سفينة ذات مجاديف لاستقبال السيد الرومانى وحاشيته • وعنـــدما أبدى أنطونيوس عجبه من روعة الوليمة التى أعدت بمثل هذه السرعة السحرية ،

تطلب منه ، مبتسمة ،أن يعتبر وصولها فى عجلة ، عذرا لها عن أى تقصير ؛ ولو يعودون غدا فسوف يكون هنالك ما هو أكثر مما يسر العين • وتتوسل اليه ، فى الوقت نفسه ، أن يقبل ، كل مايراه الآن ، هدية متواضعة منها •وفى اليوم التالى وجد انطونيوس نفسه على مائدة أبهى وأروع من سابقتها ، وفى النهاية يئول اليه كل ما يراه ، مرة ثانية • ويأخذ كل قائد من ضباط أنطونيوس الوسادة التى يتكىء عليها ، مع الأقداح والأطباق والأوانى الذهبية كما يأخذ محفة بمن يحملها ؛ بينما يأخذ الضباط الآخرون هدية لهم أقداحا وأطباقا من ذهب وخيولا مسرجة وعبيدا • وفى اليوم الرابع انفقت الملكة طالنتا بعدد كل ضيف حاضر ، على الزهور التى غطت الأرض بعمق قدم كامل ، بينما كانت ضفائر الزهور تتدلى من سقف القاعة » •

وعندما غادر آرس ظهر السفينة ، فى النهاية ، متأخرا جدا ، كانت كليوباترا تسر الى نفسها قائلة : هذا رومانى أصغر بعشرين عاما • يبدو دائم الحيوية وافر القوة • هو جدير بعناء الرحلة • ولقد قاست خزانة الدولة من ذلك قليلا • غير أن مصر، قد أصبحت الآن ، على أقل تقدير ، آمنة •

- ٥ -

استيقظ أنطونيوس ، بعد الظهر ، وقد أخذ قسطا كافيا من النوم ، لم تكن الوليمة الجديدة قد بدأت بعد ، وجلس بجانب الملكة المضجعة على ظهر قصرها العائم ، وأخذ يقص عليها ماحدث فى روما فعلا منذ أن افترقا • وبينما كانت هنالك ، ورأسها مستندة الى يدها ، عاودتها رؤية قيصر ، وهو جالس ، كأنطونيوس ، بجانب

وسادتها ، وهما يبحران عبر النيل سويا : لكنها لم تفصح له عما رأت • من المؤكد ، أنها لم تذكره في السنوات التالية ، بقيصر أبدا ؛ ما لم يكن ذلك حفزا لهمته وحثا له •

حقا، لم يكن ذلك ضروريا لمسألة الحب بينهما، فان أنطونيوس، الذى كان فى مبدأ الأمر يتمثل قيصر على الدوام وهو يؤدى دوره من بعده مع الملكة الجميلة ، أنطونيوس هذا كان مدفوعا ، دون وعى منه ، الى توكيد رجولته المفرطة ، كما لو كان اثباتا له ولها على أنه ، فى هذا الجانب على الأقل ، أقوى من الديكتاتور الذى لايغلب• والحق ، فان امتلاكه لهذه المرأة قد انتزعه لأول مرة من عربدته الباخوسية • فهى ، كامرأة وكملكة قد تركت فيه أثرا عظيما عند لقائهما الأول فى روما ؛ ولم تكن قوة فى الأرض ولا مانع يمكن أن يردعه عن الظفر بها ما لم يعترض قيصر طريقه • لكنه الآن حر طليق ، وقيصر ميت ، وهو يجمع بين قبضتيه نصف الامبراطورية• وبوسعه أن يبدو ديكتاتورا مثل قيصر ، ولا يضيع وقتا ، فيظهر أمامها على رأس جيشه فى عرض رائع • ولو أنه رأى ابتسامتها أثناء العرض ؛ لعرف أنه ما استطاع أن يفتن خيالها ثانية الا برجولته •

لم يكن هنالك اثنان أكثر منهما بهاء على وجه الأرض • فلأنطونيوس ، وهو فى الثانية والأربعين من العمر ، برغم شبابه الصاخب ، قوة هرقل ؛ وكانت كليوباترا ، وهى فى الثامنة والعشرين ، امرأة ناضجة ، لكنها لا تزال رشيقة ؛ ولا تزال المرأة المترجلة ، لكنها ولدت وأرضعت ابنا من قبل • كان يمتلك كليهما شعور بانهما فى ذروة حياتهما الباهرة ؛ وكلاهما مدفوع بأن يجعل من نفسه مثالا للآخر تحتذيه الانسانية ، وفضلا عن ذلك برغبة آلاف المشاهدين فى رؤية امتزاج القوة بالجمال ، ينبعث حينا ، ويسكن حينا ، ثم يهتاج مرة ثانية بفعل ألحان موسيقى العرس :

يا له من التقاء للجنسين هنا ! ويا له من منظر تشهده آلهة الشعبين التى هى مع ذلك نفس الآلهة برغم اختلاف أسمائها !

حينئذ ، وبعد أسبوع من الأعياد والاحتفال بالعرس ، شعر أنطونيوس حقا بأنه فى أوج مجده وعظمته • وعندما عاد أنطونيوس الى صحوه أدرك أن الشىء الأخير والوحيد الذى كان يعوزه ليصبح قيصر ذاته ، ذلك الشىء هو خليلة قيصر ؛ لكن أفكاره وقد تلونت مرة أخرى بسورة الخمر الدافئة فأصبح يعتقد أنه قد اكتشف فى الواقع فى هذه المرأة مفتاح قيصر السحرى • فالفراغ الذى أحس به من حوله منذ مقتل قيصر ، والذى كان يندفع فيه مترددا مع تشجيع فولفيا ، قد امتلأ الآن فجأة باعصار • ولم تعد هنالك تلك الفترات الغريبة التى كان ينصت فيها ، بين أوامره ، الى كلمة الأمر المعتادة ؛ وأصبح الجندى أنطونيوس سيد نفسه • ومع ذلك فقد كانت هنـالك مفاجآت لأنطونيوس الديونيزوسى ولا عهـد لأنطونيوس الجنـدى بها ، وهى مفاجآت نادرة حتى فى روما كتلك التى لا يتيحها الا ترف الاسكندرية ، ولقد ملأت نفس الجندى بحيرة صامتة • ويتعلم فى عامه الثانى والأربعين كيف يقدر جمال فم امرأة : فلم يكن قد رأى أبدا من قبل فما بمثل هذا الجمال •

شعرت كليوباترا ، بدورها ، بأن ثمة فراغا يشغل بداخلها ؛ غير أن دمها وليس عقلها هو الذى كان يشعر بالحاجة الى الاشباع الكامل • ولقد بدأت بألعاب داعرة مشاكسة مدفوعة فى ذلك الى حماقات الشباب بحواسها المتعبة ، ثم أنها كرست نفسها لهوى رجل مسن واسع الخبرة ؛ ولقد شعرت بأنها خدعت فى شىء ما على نحو من الأنحـاء • والآن ينتابها نفس الاعصـار الذى ينتـاب أنطونيوس • وبينما كان فى حيرة من أسلوب الحب المهـذب الذى شملته به ، ألقت هى بنفسها فى خضم القوة الحسية التى بدت تفيض من كيان هذا الرجل • وعندما خرت منهكة ، عاودتها حكاية

الأسدين ، والحيـاة التي فرضت عليها ساعات أليمة منـذ موت قيصر ، انبعثت الآن ثانية الى مستوى خيالها الزاخر • وهنا بداية فصل ثان جديد •

وعلى أى الحالات ، فيجب أن يفصل فى المسألة الأولى • فعندما كان أنطونيوس يجلس الى جوار الملكة المتكئة فى عصر أحد الأيام الباردة بعد أن زارها ، وصـل فى حديثه ، الى النقطـة التى كان يتصورها بمثابة اتهام ، والتى يلمسها الآن متسائلا فحسب ، كانت الملكة قادرة ، بما لها من حذق ولباقة أن تدير القضية لصالحها ، فهل كان يظن أنها ساعدت كاسيوس ؟ وأنها أرسلت سفنا وجنودا، الى قاتل قيصر ؟ ان هـؤلاء الذين أرسـلتهم الى دولابلا أعاقتهم العواصف • غير أنها أبحرت بنفسها مع سفنها حتى وصلت البحر الأيونى ، وهى فى خطر دائم من أن يداهمها كاسيوس ويأسرها ، الى أن رجعت بسبب عواصف جديدة وبسبب مرضها ! ان ماتستحقه لهو الشكر والعرفان ! وعليه أن يفسر لها لماذا لم يساعدها قومه فى موقف شديد الخطورة كهذا مساعدة أكثر فاعلية •

ولا يدرى أحد أصدق أنطونيوس مزاعمها أم لا ، فالوثائق لا تحفظ لنا من ذلك شيئا ؛ وربما كان أبيان على حق حينما قال: « لم يكن اعجاب أنطونيوس بها لأنها معجزة الجمال والحب فحسب بل لأنها كانت معجزة الفطنة أيضا ، ولقد شعر بانجذابه اليهـا فجأة بوجد شاب ، على الرغم من أنه قد تجاوز الأربعين من عمره » •

لمع فى خاطر الملكة المتهمة أن هذا الوقت وقت تقديم المطالب! فما زال هناك أشخاص ثلاثة يهددون سلطانها فى مصر : أرسينوى، الطليقة من سجنها بعد موت قيصر ، اذ ساعدها مجهولون فهربت الى معبد « أرتميس » فى ميليتوس ؛ وذلك الحاكم المصرى لقبرص الذى لا يزال حيا ، والذى انحاز بمحض ارادته الى كاسيوس ؛

وأخيرا هنالك مغامر شاب يدعى أنه بطليموس ، أخوها الأكبر الذى غرق فى النيل ٠ ولابد من أن يقتل أولئك جميعا ! ويومىء قيصر موافقا ، فينتشر جنـوده على طول السـواحل الثلاثة ، وسرعان ما يحضرون الى سيدهم رءوس القتلة ، كما هو البرهان المألوف على الطاعة ، ويريها أنطونيوس للملكة :

أخيرا تشعر هذه البطليموسية الآن بالطمأنينة على عرشها ٠ فلقد لقيت اختان وأخوان مصرعهم تنفيذا لأوامرها أو من أجل خاطرها ؛ وأصبحت هى البطليموسية الأخيرة والوحيدة ، وليس بجانبها سوى قيصرون ٠ وتخيلت فى الحال ، وهى تتأمل هـذا الموقف الجديد ، مولد طفل ثان ، من هذا الرومانى الآخر ، فقد كان لكليوباترا ، مع كل رقتها وترفها الاسكندرى ، المشاعر الطبيعية لامرأة عاشقة تهفو الى انجاب الأطفال ٠

وعندما فكرت فى فولفيا ـ التى كان غالبا ما يتكلم عنها أنطونيوس الساذج الثرثار ـ رأت فيها امرأة رومانية ناضجة فى مثل سنها ، أنجبت من قبل أطفالا أربعة من ثلاثة رجال تزوجتهم، وقامت بتربية الأبناء فى أول الأمر ٠ والآن ، وقد بلغ نشاطها ذروته ، فيمكنها أن تفكر فى الدولة وفى السلطان ، فى أنطونيوس وأوكتافيوس ، وفى موت أوكتافيوس الذى تمنته برغم أنه كان ـ من الناحية النظرية ـ حليفها وزوجا لابنتها ٠ ذلك أن أوكتافيوس سقط مريضا مرضا خطيرا ، بعد معركة فيليبى ، ويرجو حزب أنطونيوس الخلاص منه فى ذلك الوقت الذى كانت شهرة سيدهم على كل لسان فى ايطاليا ٠ ولأن الجميع قد سمعوا بجبن أوكتافيـوس وهزيمته ٠

وفى روما ، كانت مطـالب الكتائب ، العـائدة من الحـرب ، للحصول على الأرض التى وعدت بها ، تأخذ فى الازدياد وتشكل

خطرا جديدا ؛ وأصبح ليبيديوس ، الذى كان يتصرف وفق هوى فولفيا ، أصبح صعبا تماما • وعارضت فولفيا مصادرة أوكتافيوس لأملاك كانت تخص أعضاء من حزبها ، ويضطر لوسيوس ، وهو أخ لأنطونيوس ، الى أن يصدر أوامر منسوبة اليه ، معظمها زورا وبهتانا • وتستبقى فولفيا فرقتين كانت وعدت بها أوكتافيوس ، كنوع من الرهينة أو الضمان ، ويكتب أوكتافيوس نكات بذيئة عن فولفيا ويأمر بتوزيعها على الجيش • وتصيخ كليوباترا ؛ الى بهذه النكات ! وتأخذ ، حينئذ ، بالطبع ـ فى الضحك ، وبما أن أنطونيوس كان يشاركها الضحك ، فانها جعلته يكرر الأشـياء الخبيثة التى قيلت عن زوجته الى أن كانا يهتزان من شدة الضحك، وينظر عبيدها ، القابعون خلفهم فى انزواء ، ينظرون الى بعضهم البعض ، فلم يسبق لهم من قبل أن سمعوا سيدتهم من قبل تضحك على هذا النحو من الشدة •

فى أحوال كهذه ، وجدت الملكة الشديدة الفطنة أن من السهل اقناع أنطونيوس ، وقد أخذت تهواه بعد كل وليمة أكثر وأكثر ، بأن يقوم بزيارتها فى مدينتها وقصرها ، فلماذا البقاء هنا فى عزلة؛ خاصة وأن الشتاء مقبل ؟ حقا ، كان قد دفع ببعض كتائبه الى الشمال ، اذ كان من المقرر أن يغزو فارس • ولم يتكلم عن خطته كثيرا ، عندما كان يتحدث عنها كانت تغير موضوع الحديث ؛ ذلك أن غريزتها أسرت اليها بأن هذا الأمر ليس الا مجرد حركة منه ، ورثها عن قيصر ، خاصة وأنه كان يعتقد بضرورة تقليده ، ودون أن يكون ملهمـا بأية حالة جوانية تدفعـه الى غزو فارس • كان بامكانها بسهولة أن تقنعه بارجاء تنفيذ هذه الخطة • أما الخطر الآخر ، وهو قطع علاقته بأوكتافيوس ، فلم يكن فى تقديره ، خطرا ملحـا ، وذلك لأنه لم يكن بوسع فولفيا أن تشـعل الحرب بدون أنطونيوس ، ولقد عزم على احتمال حلفائه ما أمكنه ذلك •

أولا ينبغى أن يشير حس أنطونيوس وتقديره الى أين كان يمكن أن تسوقه هذه المغامرة مع الملكة ؟ كانت تتحدث من قبل عن رحلة عودتها ؛ هنالك فى مصر توجد الكنوز وما أسهل الحصول عليها من تلك التى فى فارس المجهولة • كان باعتباره عاشقا لملكة مصر ، فى غير حاجة الى خوض معركة ليحصل على الذهب ، كما أنها كانت تعزيه بهذا الذهب الذى تملكه • وأى شىء يمكن له أن يبدو فى ناظريه طلسما أفضل من هذه الزيارة الى الاسكندرية ، لو كان سيسلك طريق الاسكندر وينفذ خطط قيصر ، وهو الذى كان يعتقد فى الطوالع والنبوءات ؟ وبحق الآلهة جميعا ، ما الذى يمنع رومانيا من أصل فقير ، لكن طيب ، من أن ينزل ضيفا على ملكة• ووعد أنطونيوس بأنه سيتبع الملكة الى الاسكندرية ، وذلك، كما يقول بلوتارك : « ليعب من كل متعة من متع الشباب ويقدم الى حرم الترف والمتعة أعظم التضحيات جميعا ، يقدم الزمن » •

- ٦ -

ومرة أخرى ، دوى قصر البطالمة القديم بالحياة ورددت جنباته أصداء الصخب • فسواس الخيل وصناع الأسلحة ، وحاملو المحفات ومحركو المراوح وصناع البراميل وسقاة الخمر وطهاة كثيرون ، هؤلاء جميعهم كانوا منهمكين يعملون فى الطابق الأسفل الرطب المقبى ؛ كما كان هنالك عبيد ممن يصدرون أوامر بعضهم بعضا ، وذلك ليشعر الواحد منهم بقدر نفسه ، ومن وقت لآخر يزحفون صوب القاعات العليا دون ضجة ، وينحنون حتى الأرض ، وهنالك تنهال عليهم ضربات ومكافآت وأسئلة وأوامر ؛ لو انصرف سادتهم، فعليهم أن ينتظروا — ينتظرون حتى يحل المساء ، أو ربما حتى صباح اليوم التالى ، فالسادة العظماء قد نسوهم طويلا — والى أن

يجدهم واحد من الخصيان نائمين على الأرض الرخامية ، ويركلهم فيذهبون فى نشيج وبكاء خافت ، وهم يعرجون عائدين الى الطابق الأسفل ، الى اخوتهم ، الذين مازالوا فى انتظار خدمة نزوات الآلهة فى الطابق الأعلى ٠

فيجب أن يكونوا جميعا فى كل ساعة من ساعات النهار أو الليل مستعدين دائما ٠ وذات مرة يسأل طالب شاب ، هو أحد أبناء رئيس الطهاة (وقد قص القصة فيما بعد على والد بلوتارك) : لابد أن لديكم من الضيوف عددا كبيرا بكل تأكيد ٠ ويجيبه الطاهى ضاحكا : « ليس هناك أكثر من اثنى عشر يتناولون العشاء ٠ لكن يجب أن يكون كل طبق معدا فى أى وقت ، وما لم يقدم أى شىء فى حينه فانه يرمى به بعيدا فى الحال ٠ قد يطلب الرومانى عشاءه الآن ، فى خلال دقيقتين ، وربما فيما بعد ، أو قد يرسل فى طلب النبيذ ، أو قد يتسلى على نحو آخر ، وكل شىء آخر يجب أن ينتظر ٠ ولذا فان عددا من أطعمة العشاء يكون جاهزا على الدوام ، فلا أحد يستطيع القول متى سيطلب الطعام ! » ٠

كان الباخوسى يستمتع بأجازته ، وليس معه سوى عدد قليل من كتائبه ، ولم يكن لديه لباس رسمى ٠ كان يرتدى ثوبا اغريقيا وحذاء أتيكيا أبيض ، على نحو ما يلبس الكهنة والعلماء ، وكان يصطاد فى البر ويصطاد السمك ، أو يجلس بين الفلاسفة فى الموزيون ، مقدما بعض المشكلات التى يتذكرها من أيام دراسته فى أثينا ، منصتا الى المناقشة ، ويغفو من آن لآخر ، ثم يستيقظ ثانية ، متتبعا جدالهم ، ويجادل معهم ويحسم كل معضلة فى السماء أو فى الأرض ، وفى النهاية يدعو العلماء الى تناول النبيذ معه فى المساء ٠ ولكنه كان دائما ، سواء فى الماء أو على ظهر جواد ، أو راكبا جملا فى طرف الصحراء ، فى صحبة الملكة تساير أية نزوة من نزواته من غير أن تكل أبدا ، أو تتألم على الاطلاق ، بل

مستعدة دائما لأى شيء ، كما لو لم تكن قضت ساعات الصباح الطويلة ، حيث كان هو نائما ، تعمل مع وزرائها وتحسم مئات الأمور التى تنتظر الفصل يوميا ، وكما لو أن عنايتها بمطالب قيصرون لم تأخذ منها ساعات من النهار من قبل ؛ وبرغم من أن الساعات فى هذه الأوقات المجنونة يمكن أن تقل الى نصف ساعة. ومنذ شهور طويلة ، وحتى هذا الطفل نفسه ، حتى ابن قيصر لم يكن له فى حياتها الا دورا صغيرا ، فلشد ما كان تعصبها لخدمة هذا الرجل فحسب وتكريس نفسها له • وللمرة الأولى حاولت هكذا ، وبلا انقطاع ، أن ترضيه • وأرادت أن تحتل فى نفسه مكان جميع صنوف السكر والعربدة التى تخطر بذاكرة هذا الرومانى ، ومكان جميع الولائم ، والأسود المسرجة ، ومكان متع فولفيا كلها • لقد أرادته لنفسها فقط بكل ما فيه ، وذلك لأن كليوباترا أصبحت عاشقة •

ان هذا الرجل ، بصدره العظيم ، الذى ربما كان يلقيها الى الهواء ، وهو فى حالة مرح ، ثم يتلقاها دون أن تنثنى ذراعاه غالبا ــ هذا الرجل المتوحش ــ الذى كان فى الاسكندرية هنا ــ خلوا من المشاغل التى تلهيه ، كان راغبا فيها على الدوام ، حتى أنه قد يمسك بها ويستمتع بها فى أشد اللحظات خطورة ، ولا تحجبه عن أعين عبيدها اذ ذاك غير مجرد ستارة ؛ هذا القائد ، الذى قد يأخذها فجأة من مائدة العشاء ويعود بها بعد ذلك مبتسما ؛ هذا الشخص الخرافى العابث الذى لا يعبأ بشيء ، والذى بدت وقاحته ظرفا ، والذى ذابت اللعنات على لسانه كحبات الكرم ــ هذا الرجل الذى نالها كلية فى هذه الشهور المحمومة ، فطفح على السطح من أعماق وجودها المستورة ما يمكن أن تكون ورثته من عربدة ومجون والدها الزمار •

ولئن كانت قد قضت الخمسة عشر عاما من حياتها الناضجة

في تحفظ قاس ووقار شديد لانها افتقدت رفيقها الحقيقى ، فهى الآن ، فى شهور الشتاء هذه ، قد انغمست فى عربدة هذا الرومانى كما لو كان يجب أن تبرهن لنفسها على أنها ند لحيويته • وللمرة الأولى فى حياتها وللمرة الأخيرة أيضا أضاعت فى ساعات كثيرة احساسها بالجمال وبالظرف وبالرقة وألقت بنفسها عليه كحيوان صغير متوحش ، أو جذبته نحوها حتى أصبح لا يسمع ولا يبصر شيئا سواها • ومع ذلك كله ، فانها لم تسكر أبدا ولم تذهب الخمر بعقلها مطلقا ، واذا كانت الأسطورة تتحدث عن خاتم سحرى كان يمنحها القدرة على أن تعب جرار خمر بأكملها دون أن تفقد الوعى، فانها لاتخبرنا الا بما رآه كل واحد حقا ـ أو بالأحرى، بما لم يره أحد من قبل •

وبفضل هذه القوة الملحوظة استطاعت أن تعب من النبيذ قدرا عجيبا وتبقى ـ بالرغم من كل شىء ـ فى هذا أيضا الملكة الجليلة دون أن يستطيع أحد من الضباط الكثيرين ومن الاسكندريين الذين شاركوها مباذلها أن ينالوها قط • لم تكن بالعفيفة ولا بالمحصنة ، ولكن بالنسبة لرجل واحد فحسب • وكان لهذا الرجل كذلك ، حتى أوقات سكره التى أسف فيها على أنها لم تنغمس معه فى الفوضى الجنسية الشاملة • وفى الوقت نفسه لم تكن تتقبل دائما سلوكه دون مراجعة ، كانت تذكره ، فى ساعات صحوه ، بأنه يتعامل مع ملكة •

وفى بعض الأحيان كانا يتجولان عبر الشوارع ليلا ، متنكرين فى زى خدم ، لكى يستمتعا بايقاظ الناس ، ويدقا على أبوابهم الى أن يأتى النائمون الى نوافذهم ويجرون وراءهما لضربهما مع أنهم كانوا يدركون حقيقة شخصيتهما ••• « فعلى الرغم من أن بعض

الاسكندرانيين لم يكونوا يطربون لهذا المزاح الغريب الأطوار ، فان آخرين ـ كما يقول بلوتارك : « كانوا يستمتعون بذلك ، ويقولون: حسنا ما يفعله أنطونيوس حينما يؤدى أدواره الكوميدية في الاسكندرية ويحتفظ بمآسيه لروما ! » • وربما كان يحلو للملكة أن تضايقه فى بعض الأحيان : فذات يوم بينما كان يصطاد السمك ولم يظفر بشيء ، استأجر غطاسا فى المرة التالية ، ليضع له السمك في سنارته تحت الماء • وفى المرة التالية ذهب يصطاد فتعمل كليوباترا على وضع سمكة مجففة مملحة فى سنارته ، ويضج أنطونيوس بالضحك ، وتنتشر القصة فى أرجاء المدينة •

هذا هو الوقت الذى أقاما في أثنائه « نادى المتفردين » • كان على طائفة من أثرياء الاسكندرية أن تستضيف المجتمع كله فى أمسيات معينة ، وهنا يجاهد كل واحد لكى يبز الباقين ترفا وخيالا• وفي أمسية واحدة كانت تتبدد ثروات ، فالمضيف يعتبر أن صداقته للملكة سوف تساعده على استعادة كل ما أنفقه • وحينما كان يجلس أنطونيوس للشراب في وليمة من هذه الولائم فسوف يبدأ، بالطبع ، يقص قصصه ، وكانت كليوباترا تشعر بالحيرة ازاء هذا الرجل المفرط الذى يستطيع أن يتكلم بكثرة هائلة بقدر ما يأكل ويشرب • وربما كان يستلقى هناك مادحا جمال زوجته الأولى ، أنطونيا ، ويحكى كيف أن دولابلا الوغد قد أخذها منه ؛ لكنه بدوره ، سرق فولفيا من صديقه كلوديوس ، قبل أن يتزوجها بفترة طويلة • والآن ، مات الرجلان ، ولايزال هو حيا يشرب جرة بأكملها من خمر رودس المعتقة ، ولا يعنيه ما يجرى فى روما من أحداث أكثر مما تعنيه قطرات الخمر التى تسقط هنا على الأرض ، هذا ما كان يثرثر به أنطونيوس ، السكير ، فى « نادى المتفردين » •

الشخص الوحيد الذى ماتكلم أبدا عنه هو قيصر •

- ٧ -

مع ذلك ، كانت فولفيا ، زوجة أنطونيوس الأخرى ، هنالك على الجانب الآخر من البحر المتوسط ، ليست أقل منه حرارة وهياما ، برغم أنها اليوم ، وبعد شباب انقضى فى صحبة ثلاثة من الماجنين ، كانت أقل مبالاة بالباخوسى منها بالحكم الثلاثى • كانت العشيقة المصرية مدار حديث روما بأكملها ، ولم تستطع فولفيا أن تدرى حتى الآن أى تهديد أو اغراء يمكن أن يرجع به الى ايطاليا • كانت تعرفه جيدا ، غير وفى بطبيعته ونهما الى مزيد من النساء ، كما كانت تعرف مفاتن الملكة وسحرها • من الممكن ، وقد رحل الى الحياة الجنوبية الشرقية ، أن يقضى أنطونيوس سنوات معها ومع غيرها من النساء ، وهو ، فى الحقيقة ، يستطيع أن يقضى حياته المتمردة كلها هنالك دون أن يتذكر زوجته وأولاده ، اذن ، فليست هنالك وسيلة تضمن عودته وعودة السلطان الذى عرضه للخطر الا وسيلة واحدة ، صممت فولفيا على أن تلجأ اليها • فلكى تنتزع زوجها من بين ذراعى امرأة أخرى صممت على أن تشعل نيران حرب أهلية •

لم يكن هذا الهاما شيطانيا ؛ بل كان تطبيقا مفاجئا لخطط أسبق ؛ لكن أما كان بدافع الغيرة انسياقها فى هذا الطريق الوعر السحيق ؟ هكذا كانت خطتها : لو أنها بطلب مزيف أحدثت الوقيعة بينه وبين أوكتافيوس ، فسوف يسرع أنطونيوس بالعودة لهزيمة منافسه ؛ ولن يكون بوسعه أن يظل هكذا بعيدا شاردا لو أراد أن يحافظ على السلام بينهما • ومهما يكن الأمر ، فسوف تحمله هذه الأنباء على العودة تاركا ملكة مصر البغيضة •

وكانت رسائلها ورسائل عمالها صارفة وقاطعة للقصيدة الرائعة تتردد فى القصر السكندرى • فلقد اتخذت فولفيا اجراءات

متطرفة ، فى النزاع القائم حول اقطاعيات الفرق من الأراضى ، وبواسطة كتائب أنطونيوس استحوذت على ثمانى عشرة مدينة من مدن الامبراطورية ، وقامت بتوزيع الأراضى ، محرضة بهذا كتائب أوكتافيوس على التمرد ، وحينذاك تفر من روما ، بعد أن لم تعد آمنة فيها ، الى قلعة « بواينستى » ، فى صحبة كثير من الفرسان وأعضاء السناتو • وهناك قامت بدور القائد ، تجمع السلاح والمال والرجال والخيل ، وتلهب الكتائب بخطب نارية ، الى أن تتبعها العدو وقطع الطريق على قوات أخ لأنطونيوس كان ، حينئذ ، قنصلا وحليفا لفولفيا ، فى بيروجيا •

وتقرأ كليوباترا هذه الرسائل العاجلة فتتأرجح مشاعرها ، بين الغيرة والازدراء • وفكرت فى معارك قيصر فى مصر ، فى المدينة وفى القطر ، وكيف أنها كانت له بمثابة العين المرشدة والمرأة المترجلة ، وكيف نشبت هذه المعارك فى سبيل عرش واحد ، هو عرشها • لكن ما الذى أوحى الى المواطنة فولفيا أن تؤدى دور المحارب ، وهنالك فى ايطاليا ؟ ذلك أنها كانت ببساطة تريد زوجها ! وما كان لها أن تأمل هزيمة تلك المرأة ــ من أجل أنطونيوس فحسب ــ ومع ذلك فقد تمنت كليوباترا هزيمة فولفيا •

لم يمض وقت طويل حتى جاءتها بالانباء رسائل عاجلة أخرى : فقد استسلم أخو انطونيوس فى بيروجيا ،وأبقىأوكتافيوس عليه ، ولكنه أحرق المدينة كلها انتقاما ، وسرعان ما سالت الدماء غزيرة : فى يوم ذكرى موت قيصر أمر بقتل أربعمائة من الفرسان وأعضاء السناتو أمام معبده فى روما ! وكل هذا تم بعد عامين مضيا على مقتل آخر المتآمرين ! وفى الوقت نفسه بصل الى الاسكندرية رسل أوكتافيوس ليشرحوا لعضو الحكومة الثلاثية

الآخر ، أن فولفيا وحدها هى التى أذكت نار الحرب ، أما أوكتافيوس فانه يود العيش مع حلفائه فى سلام · وعندما يقرآن هذا يعرف أنطونيوس وتعرف كليوباترا على السواء أن حب أوكتافيوس للسلام كان وليدا لخوفه من بومبى ، الذى أصبح مسيطرا على البحر ·

وحالما يقوم الدليل على ذلك : فان فولفيا فرت مع ثلاثة آلاف من الفرسان ، على ظهر سفن خمس فى برنديزى الى أثينا ، ومعها أم أنطونيوس العجوز ، وكانت فى حماية سيكستيوس بومبيوس ! بيد أنه ما زال هناك ما هو أكثر ! فالحرب الاهلية الجديدة شجعت الفرس على أن يزحفوا من جديد،وفى الحال توغلوا فى آسياالصغرى وتحالف معهم أمراء سـوريون ، وهم الآن يضـغطون على الحاكم الرومانى بقوة بينما كانت تتوغل كتائب فارسية جديدة داخـل سوريا قادمة من الفرات ·

ويصحو أنطونيوس فجأة بفعل هذه الاخبار ، يجب عليـه أن يسرع بالرحيل حالا ، وتجد الملكة لديها كل سـبب يوجب مساعدتها له ، فما الذى يحـدث لو أن أوكتـافيوس ، الذى كان لا يزال متلهفا على السلام أصبح هو الظافر فى نهاية الصراع الجديد وماذا سيصبح من أمر مصر اذن ؟ ان كل ما تملكه هـو ملك له أيضـا ، ولقد جمعت مائتى سفينة ، ولسوف تقـدم من خزانتها ما يطلبه من مال ·

تجيش نفس كليوباترا بعواطف متصارعة · أصبحت حاملا من فترة قريبة · ما الذى سيكون من أمرها وأمر أولادها لو أن هذا الرجل اختفى الى الابد ؟أكانتشخصيته تمنحها أى نوع منالضمان ـ وهل كانت تسبح لها حتى بالأمل ربما كانت تتمنى حقا أن تكون فولفيا قد ألقت بورقتها الأخيرة ، ولن يغفر لها أنطونيوس أبدا ما سببته له بدافع من غيرتها · ولو يفقد الرجل زوجته فانها سوف

تكسبه الى جانبها فى الآن نفسه • ولكن فى العالم توجد نســـاء كثيرات جدا ، ولو أنه نسى الاثنتين كليهما فسوف تفتنه امرأة ثالثة والى أن تصبح حاملا فلا تعود تثير حواسه وتخلب لبه •

وتتحقق الملكة فجأة من أن هذه المغامرة الســـارة بدأت تظهر شؤما • ولربما تجد نفسها ، قبل أن ينقضى وقت طويل ، وبين مواطنين يضمرون لها العـــداوة ، أما لطفلين من أبوين رومانيين ، دون أن تكون على يقين من المدة التى سيتغاضى عنها خلالها ، أهـــل الاسكندرية بخبثهم المتردد ، وهـــل سيرضى بهـــذا وجهاء البلاط ذوو الشأن والمكانة عندما يكون الرومانى الاخير قد غادر المدينة ، أم سيستغلونه ضـــدها • بدأ حبهـــا للرومانى الأول بمعركة من أجل الحياة أو الموت وانتهى بوليمة — فماذا لو أن حبها الثـــانى الذى بدأ بوليمة ينتهى فى معركة يائسة !

وتفـــكر كليوباترا ، لم يكن أنطونيـــوس يهتم بقيصرون الا قليلا ، ولقد كان لديه ابن فى روما ، أو ربما فى أثينا الآن • لو أن زوجته وأمه وضعوا رءوسهم معا ، وهناك ابنه وابنته ، وبكوا أمامه جميعا •• فماذا سيكون وقع ذلك على قلب أنطونيوس السريع التأثر ؟ ليس هنالك شيء مؤكد ، كان النصر أقرب منالا مع قيصر برغم أنه كان يبدو مهددا من كل جانب !

وعندما ودعها أنطونيوس أخبرته بثمارحبهما ، فضحكمتمنيا لها مع الطفل حظا سعيدا ، كانت أفكاره كلها موجهة الى جيشه، وكان يقف تحيط به التقارير والاوامر • وسرعان ما كان يعبر البحر ليلاقى الفرس ، ثم يسوى الامر مع زوجته بعد ذلك •

- ٨ -

عندما رأت كليوباترا ، وهى قابعة فى كوة نافذتها ، رجلها الرومانى الثانى يبحر بعيدا لم تبتسم ، كما ابتسمت عند رحيل الأول • فحينذاك كان سيد العالم قد دعاها لزيارة روما ، وانتظرها حتى وصلت اليه سالمة ، وتفرس فى ملامح الطفل المغضنة ، وفوق هذا الرباط الرقيق الذى كان يجمعهما بلغ قوس الحلم العظيم الى السماء • واليوم هى أكبر مما كانت بسبع سنوات ، لكن العالم بدا وقد كبر فى نظرها قرنا من الزمان ، ترى ، هل كان بمقدورها الآن أن ترى رجلا عظيما ، ذا عقل راجح يستطيع السيطرة على الفوضى • لقد كان الاضطراب عاما شائعا ، وكانت هى نفسها واقعة فى حبائله •

لماذا ؟ ذلك سؤال لم تكن براءتها الساخرة لتسمح لها به • وهى لم تحاول البحث لمعرفة ما يرجع الى الذنب والخطأ وما يرجع الى القدر • كان امتحان النفس وكان الندم أمرين غريبين عن طبيعتها • فالاشياء هى ما كانت عليه • والآن تجلس فى كوة نافذتها ، وحيدة فى قصر آبائها ، تحمل فى أحشائها طفلا من جندى عائد الى زوجته وراء البحر ، ربما لا يعود اليها أبدا • لقد وعد بالطبع ، أن يعود مقسما أقدس الايمان ومعانقا اياها فى حرارة • ومع ذلك فبين مقصده اليوم وعودته اليها توجد نساء أخريات لا عدد لهن ، وهنالك أوكتافيوس الذى يجب على المرء أن يعيش معه أو أن يقهره ، وبينها شعوب غريبة • تكافح وتقاتل من أجل السيادة والتسلط ، وحتى لو لم يكن هنالك شىء من هذا كله ، فهناك البحر ، الذى كان يلتهم سفنه كما يلتهم القدر قلوب الرجال •

لسوف يكون لديها ولدان ، وربما تأتى أخت لقيصرون •
وسوف يتزوجها بعد مرور أعوام عشرة ، وفقا لتقاليد البطالمة ،
وسوف يكون الزوجان الملكيان نصف رومانيين • لكن ماذا سيكون
من أمرها هى ؟ أتصبح امرأة فى نهاية الثلاثينات ، ربما ترسل ،
فى أمسيات الصيف ، تطلب عبدا سوريا ناقص الرشد ، وتعلمه
كيف يكون الحب ؟ يجب أن تظل البلاد آمنة ، وكذلك الخزانة ، أو
أنهـــا ستفقد حرية العمل وفق مشيئتها ! عليها أن تعقد محالفات
جديدة ، ان لم يكن ضد روما ، فمع أشد الرومان قوة اذن • فهل
سيكون ذلك هو أنطونيوس

كانت ــ فى أغلب الأمر ــ شاكرة لذهابه كثيرا • ذلك أنه
هب عليها كاعصار قلب كل شىء رأسا على عقب ، واتخذ طريقـه
مع البلاد والمجتمع الاسكندرى ، وهز الاحزاب القديمـة ، وخيب
آمال الكثيرين من أصدقاء روما • لهذا أحبه رجل الشارع كثيرا ،
وأوجد استهلاك البلاط الاسطورى للسلع عملا مستمرا للتجـار
والصناع ، وحتى الجماهير كان لها نصيب من المصلحة والفائدة
فى نزوات الاجنبى • كلا ، لم يكن أنطونيوس محبوبا كل هـذا
الحب فى روما كما هو محبوب هنا ، وكان قد أغرق نفسه فيمـا
هيـأته له العـاصمة من الأنس والسرور • وحتى الموزيون ،
ذلك الذى استخف بثقافته ، لم يستطع الا أن يحبـه ، كما هو
الشأن مع كل من يقابل أنطونيوس ، لكن دون أن يتخيل أحد أنه
سيهيم به حبا • كانت كليوباترا ، وهى توازن فى صمت ، تقول
لنفسها انه كان على الطرف الآخر من قيصر تماما •

ومع ذلك فقد كان بوسعها أن تقدر أنطونيوس «كامبراطور»
وكقائد وكعضو فى الحكومة الثلاثية ، وتأكد لها أن من السياسة
الحكيمة أن تصادق سيد العالم الشرقى ــ فذلك ، على المدى ، أفضل

لها من أن تكون عشيقته . ولقد بدا لها،أنه عندما يكون غائبا ، لا يكون لها سوى نفوذ قليل عليه . الشيء الوحيد الذي كان يربط بين هذين المخلوقين الخرافيين معا ، هو عراف أرسلته الملكه معه وكان ماهرا محنكا فى أن يجعل سحره المصرى فى خدمة العاصمة السياسية . وهى الآن تنصت بآلاف الآذان غير أن الاخبار التى سرعان ما وصلتها كانت مضطربة مشوشة .

وكان لقـــاء الزوجين فى أثينا مخيفا مرعبـــا . وبوســـع كليوباترا أن ترى ، بوضوح شديد ، فولفيا الشاحبة ، الهزيلة ، المتقدة النظرات ، وأن تعرف كيف كان يحلو لها أن تأخذ بين أصابعها بلحية هذا الجبار الاسمر وتدغدغها ، ربما كانت تفعـــل ذلك الآن ، اذ أين كان مختفيا عنها طوال هذه المدة ؟ وما الذى كان يرجوه من المرأة المصرية ، ومصير العالم يتقرر فى روما ؟ لكنها سمعت ، حينئذ خبر انقطاع جلجلة صوت فولفيا الشرسة ،وصوت هرقل الرومانى الجبار متوعدا مرعدا ، فمن الذى أعطاها صكـــا بتحطيم الحلف مع أوكتافيوس ، وبأخـــذ المـــدن وتحصـــين القلاع والمخاطرة باقامة الحصارات ، وبأن تتخذ قرارا مبتسرا بالقتال مع أن زوجها لم يكن حتى الآن مستعدا لذلك تماما ؟

وفى مقدور كليوباترا أن تسمع صوتيهما من وراء البحر ، وأن ترى هذين الشخصين يجدفان هائجين جيئة وذهابا فى قاعة تردد صداهما ، ويهزان قبضتهما عندما يمر كل بالآخر ، ربما ظنت كليـــوباترا أنه قد ضربها فعلا ، فيما يحتمل . وتشـــعر بالرضى فقد نالت بغيتها ، لكنها ما زالت قلقة مرتابة ، فهل كان يمكنه أن يجد سبيلا لطلاقها دون أن يكون فى ذلك قوة لحلفائه ؟ ولو طلقهـــا أفلن تدس له السم ؟ كانت فولفيا تجرؤ على القيام بأى شيء ، ذلك أنها امرأة مجنونة عندما تكون فى ثورة غضبها .

لكن ظهرت الآن امرأة أخرى على المسرح ، وكان على كليوباترا أن تعلم فى الحال بآخر حيلة سياسيةلاوكتافيوس فأن سيكستيوس بومبيوس ، آخر أبناء بومبى العظيم ، والذى حمى زوجة انطونيوس وأمه بسفنه ، وهو الآن حليفها ، بامكانه الآن باعتباره قرصانا مرهوب الجانب ، أن يزود أسطول أنطونيوس بقوة خطيرة وفى الحال يرسل أوكتافيوس ، ابن قيصر هذا الذى قاتله ابناء بومبىلسنوات طويلة ، يرسل الى سيكستيوس رسولا ليخطب سكريبونيا ـ ابنة أخيه ـ زوجة له وليجعل السلام بينهما • حقا كانت سكريبونيا أكبر سنا منه ، وسبق أن ترملت من قبل مرتين ولا تزال مع ذلك حاملا مرة أخرى ، ربما من زوجها الأخير ، لكن سيد روما أبطل القانون الذى يقضى بانتظار المطلقة عشرة شهور قبل زواجهـــا مرة أخرى ، وسرعان ما طلق أوكتافيوس ابنة فولفيا ، متخـــذا المرأة البومبية زوجا له ، وأقام فى منتصف الصيف حفلات زفاف دفعت بالرومان جميعا الى الضحك •

يمكن الى حـــد ما تفسير شخصية أوكتافيوس المتحفظة بوراثة السلطان دون استعداد وأهلية له ، فى سن التاسعة عشرة • كان هذا الشاب الخجول العليل ، الذى يكتنفه نوع من الغسق الفلسفى كما لو كان أصيب بصاعقة خفية • من قبل كان يغتصب الفتيات، اللاتى تستقر عليهن نظرته الباردة عند مرورهن به ، من بيوتهن وفى السنوات الاخيرة كان يأتى رجاله بهن مجردات من الثياب للتأكد من عذريتهن •

أما أنطونيوس ، الذى ما زال فى ثورة غضبه وهياجه وقد استفزه ، طلاق ابنة فولفيا ، وردة بومبى ، فانه ينـــدفع كمجنون تاركا أثينا دون أن يودع زوجته • ويأخذ كتائبه فجأة ، ويصيح حينئذ ، لا بد من الانتقام لبيروجيا ، لكنه رأى الجنود يحجمون عن قتال رفقائهم مرة أخرى • ويجبرهم ، برغم ذلك على القتال ، وكان

يتقدم من نصر الى نصر الى أن جاءه رسول من اثينا فجاءه يخبره بموت فولفيا · كانت فى الثلاثين من عمرها تقريباً ، لكن الرغبة فى السيطرة ، تغذيها الكراهية والانتقام أكثر من رغبتها فى التألق والظهور ، قد عجلت بمنيتها قبل الأوان ·

كان طموح فولفيا هداما وعدميا ، وكان طموح قيصر بناء · وكانت غاية أنطونيوس أن يحكم ليستمتع بحياته، على حين أن طموح أوكتافيوس كان شوقا لا شعوريا الى أن يذيب الدرع الثلجى الذى كان يطوقه · وكان طموح كليوباترا هو أن تظل محتفظة بحريتها المطلقة فى الاختيار ·

لم تطرب كليوباترا لموت منافستها ، بل كان ذلك تحذيرا لها · فاختفاء فولفيا سوف يقرب بين الحليفين بالضرورة مرة ثانية وهذا ما كانا يرغبان فيه على الحقيقة · لكن ماذا سيصبح من أمر قيصرون ، ومن أمرها لو أباح أنطونيوس لنفسه الاقتناع بأن الاوان قد آن لجعل مصر ولاية رومانية ؟ فعلاقات الصداقة بين عضوى الحكومة الثلاثية خطر عليها ، وسرعان ما قام برهان مفاجىء على هذا ·

الآن ، وعلى غير توقع ، يطالب أكثر الجنود رشدا بأن يقوم قادتهم ، بالضرورة ، بما كانوا هم يحاولون القيام به وبطريقة دبلوماسية · فمنذ خمسة عشر عاما والرومان مضطرون الى قتال رومان ، يندفعون هنا وهناك بقيادة قواد مشهورين وقواد غامضين لمجرد ارضاء هوى رؤساء الاحزاب التى كان كل حزب فيها يعتبر نفسه الممثل الأول لنظام أخلاقى فاضل ، مدعيا أنه « يضع نهاية للفوضى » أو « ينقذ الوطن » أو « العائلة » أو أنه ، خير من ذلك كله ، « يحمى الملكية الخاصة » تلك الملكية التى لم يكن يهددها أحد ·

أخيرا ، بدا من الضرورى أن يوضع حد للعراك المجنون الذى لامبرر له • وتعقد معاهدة فى برنديزى ، تكون اكثر دقة وتحديدا من معاهدة السنوات الثلاث الماضية فى توزيعها لتركة قيصر بين الأعضاء الثلاثة • انحصرنصيب ليبيديوس فى افريقيا الرومانية؛ واختص أنطونيوس بالشرق حتى حدود ألبانيا ؛ بينما تركت ايطاليا والغرب كله لاوكتافيوس • فكيف يمكن لرومانى أن يرتكب مثل هذا الحماقة المطبقة ما لم يكن يشعر فى قلبه بأنه لم يعد رومانيا ؟ كان تخليه عن روما لمنافسه يعنى الطرد والنفى ، يعنى أنه أصبح واليا Proconsul ، برغم أنه كان سيجمع بين قبضتيه ست ولايات دون أن يكون هنالك من يناقشه الحساب •

ووجد الاثنان ، وقد عقدت معاهدة السلام هذه ، أن من السهل اقناع سيكستوس بومبيوس ، آخر أبناء بومبى العظيم بأن يعقد معهما معاهدة : خصوصا بعد أن تركت له سيسيليان وسردينيا • لكنه كان أقل من الآخرين للحفاظ على كلمته • وعندما دعى الأصدقاء الجدد ، على ظهر احدى السفن ، جاءه القرصان ويناس ، وهم يجلسون الى المائدة ، وسأله : « هل سأقبض على الرفاق ؟ أترغب فى أن تكون سيد الامبراطورية الرومانية كلها ؟ ما على الا شد المراسى ورفع القلاع فى الممر ، ويتم كل شيء » • ومضت فترة صمت ، كان بومبيوس يفكر خلالها وأخيرا قال : فيناس ، كان يجب عليك أن تفعل ذلك دون أن تسألنى ! أما الآن فلم يعد ذلك ممكنا : لقد أصبحت رهين كلمتى »•

حينذاك (وفىبداية العام التاسع والثلاثين قبل الميلاد) بدا أن الحرب الأهلية قد انتهت فعلا • وللمرة الأولى ، وعلى مدى أربعة عشر عاما صدقت ايطاليا بأن السلام قد حل بأرضها • ويكتب ديون كاسيوس فيقول : عندما أكد العاهلون الثلاثة تحالفهم، تحت

بصر أساطيلهم وجيوشهم ، متصافحين بالايدى متبادلين القبلات فيما بينهم رمزا للسلام ، هنالك ارتفع هتاف لا حد له ، من البر ومن البحر • وفجأة يصدر عن هذه الالوف جميعها ، الجنود والناس الذين أصبحوا يمقتون الحرب ، يصدر عنهم هتاف هادر رددت أصداءه الجبال ، حتى أن كثيرين من هـؤلاء الصائحين سـقطوا مغشيا عليهم ، وفى خضم الضجيج تطأهم الأقدام وتقضى عليهم ، وأولئك الواقفون على ظهور المراكب لم يطيقوا الانتظار حتى يرسوا على الشاطىء ، فقفزوا فى البحر ، وآخرون تدافعوا نحوهم من الشاطىء وقفزوا فى البحر لعناقهم • وجد الكثيرون ، خلافا لما كانوا يتوقعون ، أن أصدقاءهم الذين فقدوهم من زمن طويل مازالوا أحيـاء ، بينما وقف آخرون وقد أخذتهم الصـاعقة ذهولا ، حينما أبصروا من لم يكن لديهم أمل فى رؤيتهم مرة أخرى على الاطلاق ، بل كانوا يعتقدون فى موتهم ، وهم لا يصدقون أعينهم ومع ذلك فما أشد ما يتمنون تصديقها • لم يكونوا مقتنعين بما هـو واقع الى أن نادى كل صاحبه باسمه وسمع صوته فاطمأن قلبه •

« وبكى من شدة الفرح كثيرون ، وآخرون ممن اعتقدوا فى أن أبنـاء لهم وآباء ماتوا من زمن طـويل ما زالوا أحيـاء • كان هؤلاء يهرولون هنـا وهناك جيئة وذهابا وهم يسـألون كل من يقابلهم ، كمن أصابهم مس من الجنون ، لأنهم كانوا يرجون لقاءهم ويخشون أن يكونوا قد افتقدوهم الى الابد • وحينئذ ، يمزقون شعورهم ويشقون ثيابهم ، نائحين على الفقيد مولولين كما لو كان قد مات لتوه الآن فقط ويرقد أمامهم • وأولئك الذين كانوا مجرد متفرجين غمرهم الحزن والفرح كذلك ، ويدوم هذا طوال ذلك اليوم وطوال الجزء الأكبر من الليل » •

- ٩ -

كانت كليوباترا تتوقع أن تضع طفلها يوما بعد يوم ، ولا يجرؤ الرسول ـ الذى جاءها بعد أنباء المصالحة مباشرة ـ على تبليغ رسالته • وعندما تأمره الملكة بعنف ، عندئذ فقط يخبرها أن أنطونيوس قد تزوج أخت أوكتافيوس ، فى روما •

وكان هذا طبيعيا تماما ، بالنظر الى مصالح وشخصيات الممثلين ، التى كان مستحيلا فى الواقع أن تؤدى الى خلاف ذلك لم يكن الاثنان قد تقابلا منذ تحالفهما الأول ، لكنهما لم يتبادلا من ناحية أخرى ، أية رسائل عدائية • وماذا يخشيانه اليوم من مكائد فولفيا الراحلة ، التى كانت تود اغراق ايطاليا كلها فى حرب لكى تنتشل زوجها من غرامياته ؟ وأغضبت النوادر التى أباحها بومبى الأصغر لنفسه وهو جالس الى الخمر وحديثهم يدور حول مصر ـ أغضبت أنطونيوس ، بينما كان أوكتافيوس أشد حرصا • فلقد تريث فترة ، ثم أسر بعدها برغبته الى قلة من الضباط ، وهؤلاء رددوها بدورهم بين ممثلى الجيش الذين أعلنوها كرغبة تلقائية للجنود • وكان بوسع أوكتافيوس بعد ذلك أن يخبر صديقه برقة ولطف برجاء الجنود فى أن يصبحا صهرين ، لكن ، ألم يكن من شأن صلاته بالملكة ، فحسب ، أن يصبح الامر مستحيلا دون شك ؟ • لم ينكر أنطونيوس (فيما يرويه بلوتارك) أن الملكة خليلته ، لكنه أضاف فى النهاية ، أنها ليست زوجته • وبهذا حاول أن يهدىء من ضميره ويكافح هواه •

من هذه النقطة الكاشفة أصبح بين انطونيوس وبين الموافقة الفعلية خطوة واحدة فقط • ولم يكن وضعه كقائد ، وضعا محمودا أو فى صالحه وقد حان وقت الرجوع الى سوريا ، لكنه كان فى حاجة

أيضا الى كتائب من اوكتافيوس لذلك ، ولأنه كان مضطرا الى الاقتراب مرة اخرى من مصر ثان زواجا جديدا بدا فى نظره نوعا من الحماية ضد كليوباترا . كان أنطونيوس يثق فى الطوالع كثيرا ، تلك التى كان يفسرها على الدوام بما يتفق مع مصلحته وفى ألعاب الحرب التقليدية المصاحبة للأعياد الكبرى كان أوكتافيوس يتفوق عليه دائما . ربما أصبح أنطونيوس مفرط السمنة ، وقد ثقل جسمه كثيرا لافراطه فى الشراب ، بينما كان الرجل الاصغر سنا ، والاكثر رشاقة منتصرا دائما . ويأتى الى أنطونيوس العراف المصرى ، موطن ثقة كليوباترا وعينها . ويقول له :

« ينتظرك يا أنطونيوس ، حظ عظيم ، لكن لو تجنبت فقط ظل أوكتافيوس ! تجنب هـذا الشاب فشيطانه يهدد شيطانك ! عندما يكون بعيدا عنك فان شيطانك يكون شجاعا وفخورا ، لكنه عندما يحضر يكون ضعيفا وجبانا ! » .

وبما أن هذه الطوالع تهدد مصالحه ، فان أنطونيوس ، بضعف ارادته الطبيعى ، أدار هـذه الأمور فى رأسه حتى تصبح موافقة له . ومن الواضح أن أخت أوكتافيوس هى الوسيط الذى عليه أن يصلح بين الشيطانين ! ومن الواضح أنها كانت الروح الحارسة التى سوف تحفظه بعيدا عن المرأة المصرية ، حتى وان ذهب الى سوريا ! ألم يكن بسبب كليوباترا أنه فقد فى وطنه فرصا كثيرة ــ نعم ، كانت غلطتها أن سمح لفولفيا أن تحكم بدلا منه وسرعان ما سيولد له طفل وحينئذ سيكون عليه أن يتبع نهج قيصر ، فى كل جانب من الجوانب ، الا أن الدائرة ستكون قد اكتملت ، وسيكون السحر قد تحطم : لقد انتهت المغامرة .

أو لم يكن واضحا أن ارادة الآلهة هى التى قضت بموت زوجته وزوج اوكتافيا فى الوقت نفسه ؟ كانت اوكتافيا جميلة ، فهـذا

ما كان يعرفه كل رومانى · ولم يحدث ان أغوته أبدا من قبل ، وعلى ذلك كانت محصنة جدا . لكن ماذا لو أن المرء علم هؤلاء السيدات النبيلات أمورا تحمر وجوههن لها خجلا ؟ لقد سمع ، فى غالب الأمر ، أن من النســوة من يشعرن بالخجل ، فيالها من خبرة جديدة ! كانت شخصيتها خيرا من أخيها ، هذا لأنها لم تكن شقيقة له ، ولم تكن سليلة الجد المرابى · كانت قد أحبت مارسيليوس وهى الآن تحمل فى أحشائها ابنا ثانيا منه · عليها أن تجلس فى حفل الزفاف ما أمكنها ذلك ، والا فسيضحك النـــاس قائلين فى سخرية ان انطونيوس يأخذ الطفل كمهر له · مهما يكن من شىء فان على أخيها أن يسلم فرقه الى انطونيوس ـ فذلك هو مهرها وبعد ذلك سيكون قادرا على أن يمضى قدما ·

فى نفس الوقت تزوج اوكتافيوس ، مثلما تزوج صهره الجديد أنطونيوس · فمنذ أن تمت مصالحته لســـيكستيوس بومبيوس أضبحت ابنة أخيه الاخيرة غير نافعة له ، وقد وقعت عيناه أخيرا على امرأة أشد جمالا ، فطلق أوكتافيوس للمرة الثانية ، ليعقـد صفقة مع ليفيا ، التى كان زوجها الذى طلقها قد أعطاها مهرا · وكانت أيضا حاملا عندما صلت فى المعبد لتنعم الآلهة عليها بنعمة الاخصاب ، وربما كان يحلو للحاكمين أن يتبادلا الدعابات حـول عروستيهما فى مناسبة حفل زفافهما المزدوج هذا ·

وسمعت كليوباترا بعضـا من هذه الأمور عنـــدما أخبرها الرسول بزواج أنطونيوس ، وببرود شديد ، سألته بما هو معهود فيها من ضبط النفس ، عما اذا كان أنطونيوس بكى حقـا عند موت فولفيا ، وعما اذا كان قد شرب خمرا فى اليوم نفسه ، وعما اذا كان قد شوهد بعد ذلك مباشرة وفى صحبة مغنيات ، وأى

نوع من الجنازة أعده لتشييعها ، وكم انقضى من الوقت بين موت فولفيا وبين الخطبة الجديدة ٠

غير أنها عندما خلت الى نفسها حاولت عبثا أن تنظر الى موقفها الجديد هذا ببرود ٠ وأضعفتها حالتها الجسمانية ، وانتزعتها من فتوتها وشراستها التى كانت تلهمها تصرفاتها عادة ٠ أسيكون الليلة أم لن يكون حتى الغد ؟ ذلك كان سؤالها ، كان موقفها اذ ذاك أكثر كآبة وصبرها أقل مما كان فى أية فرصة سابقة ٠ واستبقت قيصرون قريبا منها ، وأوضحت أنه لن يترك منذ الآن وحيدا ، وتسأله وفق ما تسمح به أفكاره الصبيانية ، وتقبله ٠ وتظل مدة ربع ساعة تتخيل أن هذا الطفل الثانى هو أيضا ابن قيصر ، أوجده بروحه بطريقة ما خفية ٠ ومرة أخرى حاولت أن تسترجع فى ذاكرتها وجه أنطونيوس وهيئته بأعظم قدر من الدقة وكيف كان يبدو حقيقة عاشقا ٠ ويرد الى خاطرها تعبير فج استعمله ذات مرة في احدى المناسبات عندما صاح ، ضاحكا ، بقوله انه الآن قد أنجب ابنا بكل تأكيد ٠

وفجأة تنتابها بعد ذلك نوبة من حنق وحشى حينما تفكر فى أنها قد اسلمت نفسها اليه ، وأنها أغوته حقا ٠ وألقت بنفسها على الارض ، ممزقة ثوبها ضاربة الاماء وقد أخذنها بين أذرعتهن لكى يرفعنها من الارض ٠ وترقد على ظهرها ، تئن ، وقد أنهكها التعب ، ولم تستطع أن تستريح في أى وضع ، ثم نطقت ، برقة بالغة ، اسم أنطونيوس ، وفجأة نطقت حتى باسم أمها الذى نسيته من زمن طويل ٠ وأدركت كيف كانت وحيدة ، وأنها عملت على قتل اخوتها وأخواتها لكى تتمكن من الانفراد بالحكم ٠

ولم تستطع أن تفهم الجرأة التى استبقت بها مرتين أجنبيا فى بلاطها ، الامر الذى تسبب فى كونها الآن وحيدة فى قصرها

مع طفلين من أبوين مختلفين ، ولقد قتل أحد هذين الرجلين وأحرق جسده ، على حين أن الآخر ربما فى هذه اللحظة ذاتها كان يحتفل بعرسه بين الموسيقى والولائم ٠

وفجأة ، أبصرت ، بين الراقصين فى بيت أنطونيوس القريب من الكابيتول ، عينى أوكتافيوس الباردتين ، عدوهـــا الأكبر . وصرخت بأعلى صوتها أن يأتوها بقيصرون ، وعندما جاء الطفـــل أمرتهم بألا يتركوها وحيدة ٠ كان الطفل خائفا ، ولم يتعرف على أمه ، وفر عنها بعيدا ، حينئذ صرفت عبدها وأصبحت وحيدة ، وتخيلت نفسها وقد عادت الى ليلة من تلك الليالى عندما كانت تشارك أنطونيوس فراشه ، وكانت تجذب شعر صدره الكث حتى يصرخ ويلطمها ٠

فى اليوم التالى تضـــع كليوباترا توأمين ، ابنا وابنة ومن هذه اللحظة لم تعد تنتابها الرؤى بعد ، وتساءلت عما يمكن أن تعنيه هذه الهبة الغريبة ٠ أعطاها الكهنة اجابات مضطربة غامضة وعلى أية حال ، فهى ترى أن التوأمين ربما كان لهما والدان ،قيصر وأنطونيوس ، وحينئذ كانت تأخذ فى الضحك ٠ ولقد اســـمت الطفلين « اله الشمس الصغير » و « الاهة القمر الصغيرة » وأقسمت لنفسها أنها لن تفكر أبدا فى أنطونيوس بعد ذلك مرة أخرى ، لكنها انفجرت باكية فجأة ٠ فأنطونيوس كان بعيدا جدا ، كان نائما مع زوجته الجديدة ، وهو لن يرجع اليها أبدا ٠

فى هذه اللحظة الشـــديدة الاكتئاب لم تكن كليوباترا ولا أوكتافيوس ولا أى شخص آخر قد عرف خبر عبارة معينة كتبها أنطونيوس وقت زفافه فى روما ٠ لم يكن يعرفها سوى الصديقين اللذين وقعا على الوصية كشاهدين ، فالرجل الثرثار كانت له أيضا أسراره النادرة التى يعترف بها لنفسه فقط فى اللحظات الخطيرة ٠

وفى وقت كهذه الاوقات تذكر موت قيصر المفاجىء ، والنتائجالتى ترتبت على وصيته • ولسوف يخرج فى الحال لمحاربة الفرس ، وهكذا ، فى عامه الثالث والاربعين ، وفي وقت زواجه الثالث كتب وصيته التى ذكر فيها أولاده وأصدقاءه •

فى العبارة الاخيرة منها أعلن رغبته فى أن يحمل جثمانــه بعد وفاته ، فى موكب مهيب الى الفوريوم الرومانى • لكن بقاياه يجب أن تحمل ، بعد ذلك ، عبر البحر الى الاسكندرية ، ليدفن بجانب الملكة كليوباترا •

هذه كانت آخر رغبة وآخر وصية لأنطونيوس ، بعدها ختم الوثيقة وسلمها فىرعاية كاهنة فستال الكبرى Supreme Vestal

الفصل الرابع

أرس

« يجلب الهوى فى طيـاته الأسى ٠ ترى ، من سيمنحك السلام ، أيها القلب المعذب ، يا من خسر الكثير جدا ؟ أين تلك الساعات البالغة القصر ؟ آه ، ما الذى منحك الجمال ، أكان ذلك قدراً ؟ »

جوتة

- ١ -

حكمت كليوباترا بمفردها فى الاسكندرية مـدة سنوات ثلاث (هى فيما نرى فى الفترة من عام ٣٩ الى عام ٣٦ ق٠م) دون أن يكون لها أى دور فى تاريخ روما خلال هذه الفترة ٠ وكانت السفن تبحر ، كما كان الشأن أيام والدها ، جيئة وذهابا ، وحيث كان قمح وادى النيل الذى يملأ عنابرها يفرغ فى ميناء « أوستيا » كانت تعـود ، فيما يحتمل ، بالفضـــة الاسبانية أو أخشـاب بلاد الغـال ٠ كان المصارعون والممثلون والتجار والصيارفة والخطباء والمضاربون ، كان

أولئك يصلون ما بين المملكة الآفلة وبين الجمهورية المتداعية ، غير أن لتاريخ كل دولة منهما وجهة أخرى مستقلة عن الاخرى ، وسمحت فترة السلم القصيرة للأمتين ولشعوب البحر المتوسط الاخرى أن تلتقط أنفاسا قليلة هادئة · خلال هذه السنوات الثلاث عاشت كليوباترا كأية ملكة أخرى من ملكات شواطىء البحر المتوسط زمن القياصرة ، وذلك على الرغم من أنها عاشت حقا حياة أكثر امتلاء ·

غير أنه كان ثمت خلاف ، فهي كامرأة لها ثلاثة أطفال لا أب لهم وفي مقام خليلة مهجورة كان بامكان المجتمع أن يهاجمها ما لم يبعد سلطان البطالمة عنها أعداءها · وبرغم كل ما لها من سلطان ، فان الخطر كان محيطا بها · ألم يكن من المألوف أن يوضع السم لملكة بدون ورثة شرعيين وبدون مدافعين عنها ــ وذلك لكى تقام أسرة جديدة ، اذا ما ظهر أحد النبلاء الساخطين من بين الذين كانوا يعيشون حينئذ في البلاط في الاسكندرية ؟ ماذا يمكن أن يبدو أسهل من التفاهم مع أوكتافيوس في روما على ذلك ، وهو الذى يكره قيصرون ، منافسه الوحيد · لا توجد لدينا وثائق تسجل دسائس البلاط خلال هذه السنوات الثلاث ، الا أنه بوسعنا أن نستنبط من الموقف العام شيئا من أفكار الملكة ومشاعرها ، تلك التي كانت تتأرجح ، ضرورة ، بين الحذر والاقدام ، والأمل وفقدان الرجاء ·

هذه المرأة المترجلة الجسورة ، التى أكلت خبز الجيش اليابس زمن الحرب ونامت في خيمة في الهواء البارد ، كانت في الوقت نفسه أشد نساء عصرها ترفاً ودلالا · فلم تكن تعرف عدد العبيد والخصيان الذين يخدمونها في صمت · كان ينتظرها ــ وهي ترقد في حمامها صباحا ، في أحد الأحواض الفخمة الرخامية التى لا تزال موجودة الى الآن ــ ست من الاماء بمناشف ساخنة لتدليكها ودهن جسدها · ثم تضطجع على الوسائد الكتانية الباردة ، أمام مرآة كبيرة تعطى انعكاسا براقا مائلا الى الخضرة ، ومتكئة برأسها على احدى يديها كما كانت

عادتها ، تمشط شعرها العسجدى (دون أن تصبغه بأى لون أو باللون الأشقر الذى كان شائعا حينذاك) ؛ لكن ليس وفقا لتسريحة الشعر الرومانية العالية التى تحاول سيدات روما أن يتفوقن فيها كل على غيرها ، وبدون الجدائل المرسلة التى كانت تفضلها أيام طفولتها .. وهى تجعل شعرها ، كما يظهر من تماثيلها النصفية ، على سبعة أمواج دون أن تفرقه فى منتصفه . وتمسكه فى عقصة ، عالية قليلا خلف رأسها ، ولا يخرج به عن صرامة الشكل الاغريقى سوى خصلة صغيرة تمثل الدلال والاغراء . فالنمط نمط ملكة ، وليست جديلة الشعر على الجبين غير جديلة كليوباترة .

لم تكن تهوى لبس « المافورت » Mafortes ، وهو رداء ، لا يعدو فى الحقيقة ، غير خمار رقيق ، تلبسه اثارة وفتنة لكل رجل يحادثها ، وهو يحاول بالضرورة أن يتخيل ثدييها من تحته . ولو كان الخمار ورديا قرنفلى اللون فانه يجعل بشرتها البيضاء فى لون الورود ، كما لو كان بفعل شوق لم يجرؤ بعد على أن يصبح رغبة . وفوق هذا تقدم اليها احدى امائها شملة من الحرير الميلسينى ، فى لون الزعفران الاصفر ، أو الياقوت الأزرق ؛ واذا ما رغبت فى أن ترتدى دلماسيا ، وهو لباس بأكمام فانها تحتاج الى مساعدة اثنتين من عبيدها ، لترتديه فى زمن أسرع . ولو حدث وأخفقت واحدة فى تقديم فتحة الذراع فى اللحظة المناسبة ، فان كليوباترا تركلها على الفور ، ذلك أنها لم تلوث يديها أبدا بضرب احدى عبيدها . كان هذا الركل من بقايا الفراعنة .

وعندما تستقبل أجنبيا بارزا ذا خطر ، فانها كانت تحب أن تلبس رداء بزنار وابزيم ، فالأبزيم والأحزمة تجعل يد الرجل تتلهف على حلها ، وتشغل خياله ، فيصبح مشتتا موزع الخاطر ، ويسهل خداعه فى المهمة المتعلقة به . وكانت أحذيتها الجلدية الصغيرة تصنع لها بكعوب عالية ، لتبدو أطول مما هى عليه ، وفى أيام معينة اذا ملأ

كان عليها أن تستقبل سفيرا هاما ، فالخرافة تدفعها الى أن تخفى فى نعليها ، سرا ، تعويذة غرام ، مع أنه لا يكون لديهـــا أقل قصـــد لطارحة الرجل الغرام ، على الاطلاق ٠

وكانت تحب زيت الأرز لأنه يذكرها بحرارة الصحراء الجافة ؛ واذا ما أخفقت الجارية فى هذا الصـــباح بالذات فى معرفة أن الملكة تفضل المر ، فسرعان ما يقذف بالقارورة وتتحطم على الأرض ، وبما أن رائحة زيت الأرز هى الرائحة الأقوى حينئذ عن ذى قبل ، فان الجوارى كان ينتابهن الذعر ٠ لا ينبغى لأحد أن يناولهـــا حلية لم تطلبها ؛ وربما كانت تأمر بوضع عدد من القلائد أمامها ؛ ثم تومىء بذقنها فى اتجاه تلك التى اختارتها ٠ وغالبا ما كانت تفضل أحجار الياقوت الأصفر ، فالبريق الذهبى لألوانه الناصعـــة كان يذكرهـــا بالعسل ، وفى أيام أخرى ربما لم تكن تتزين بشىء سوى الفضة اللامعة الباردة ٠ كان هذا عندما تفكر فى قيصر ٠

وقد يأتى التوأمان مندفعين فى صحبة عدد من القطط والقردة الأليفة وجمع من الخدم ، لكنهما قد تعلما أنه لا يجب لمس أمهما بعد اتمام زينتها ، وهكذا كان يرتجف المربون فكيف لهم أن يعرفوا ما اذا كان يجب كبح جماح الطفلين أم أن يتركا وشأنهما ؟ وبحرص ، ترفع كليوباترا الصبى الاسكندر بين ذراعيها ، فهو وحده من بين أبنائها الثلاثة كان شبيها بها ، وقد ورث أنفها الحاد ، وكان يجاهد فى أن يكتسب فما مثل فمها الجميل ، وفضلا عن ذلك ، كان رشيقا جميلا كأمه ٠ بينما كانت كليوباترا الصغيرة تشبه أنطونيوس تمام الشبه ، ويضحك الناس وهم يرون الملامح العريضة الفتية ، بما تنطق به من مرح نابض بالحياة وقد تجسدت على نحو ساخر فى هذه الطفلة التى تبلغ العامين ٠ وتضحك الأم من هذا التبادل السار للأدوار ، فقد كان بامكانها أن ترى الطفلة الصغيرة وهى تمسك الصوت لعبيدها وتصدر أوامرها فى يسر ، بينما يشغل اسكندر الرشيق بالفكر والبحث ٠

ذلك النمط من الفتيان الذى كانت ستشب على غراره ، غير أنها لم
ترغب أبدا فى أن تكون قد ولدت من الجنس الآخر ٠

ويجب أن تظل القاعة المتوسطة ، حيث تستقبل زوارها ، خالية تماما حتى تدخلها ، ولم تكن تطيق حضور الخدم حتى تفرغ من رؤية أوراقها ٠ كان قيصرون هو الوحيد الذى يسمح له بالانتظار هنا ٠ وكان الغلام وقد بلغ من العمر عشر سنين ، وبلغ من طول القامة ما بلغته أمه ، شبيها بأبيه « شكلا وصوتا » على حد تعبير هيرميروس ، ذلك أنه كان طويلا وجليلا ، وكان يتكلم بحرارة وعن روية وتدبر ، ويرى المرء فيه الجدية التى ربما كانت لاتزال من خصال قيصر قبل أن يحيا حياة مدنية ودعة ، والتى كان يكشف عنها ، مرة أخرى فى آخر سنوات حياته عندما أنجب الطفل ٠ بهذه الجدية ورث الطفل تركة زادت من آمال أمه فى أن يرث العرش مستقبلا ، حتى أنه شعر ، بموجب أصله وطبيعته ، بأنه مطالب ، وكما لو كان من نواح ثلاث ، أن يتعلم كل شىء ، وأن يختزن المعرفة ، مبكرا على قدر ما يستطيع ، كما كانت تفعل والدته ٠

كانت كليوباترا تعلم قيصرون شئون الحكم ٠ اذ يجب عليه أن يتعلم بسرعة الظروف المعقدة للامبراطورية المصرية وعاصمتها ، وكل المشكلات المالية ومشكلات الاجناس والسلالات ، ومنتجات البلاد والى من تباع ، وفضلا عن ذلك ، عليه أن يعرف كل تعقيدات البيوت الحاكمة على شواطىء البحر المتوسط ٠ هذا ما تقصد اليه عندما كانت تطلب حضوره كل صباح « هنا فى قاعة الاستقبال » ولم تشأ أن تضيع وقتا فى أن يعتاد موظفوها طاعة مليكهم المرتقب ٠ وباعتبارها امرأة ، أيضا ، شعرت بأن فى وجوده سندا لها ٠ كما أوحت لها ذكريات طفولتها المبكرة ، وتاريخ أسرتها القديم أيضا ، بوجود أخ أصغر ، هو زوج لها من الناحية النظرية ، يشاركها فى الحكم ٠ بل أنها كانت تنظر اليه ، سرا ، فى الحقيقة ، باعتباره

حاميا لها على نحو من الانحاء ، وكما لو كان قيصر يعينها فى ادارة الدولة ، فى شخص ابنه هذا ٠

قبل كل شيء ، كان هنالك البلاط الذى تعلم الغلام أن يميز مراتبه ودرجاته خلال دروس الصباح ٠ تعلم ألقـابا مثل : قريب الملك ، والصديق الاول للملك ، وكبير الحراس ، وهى تلك الالقاب التى كانت تتجسد أمامه فى أشخاص وجهاء الامبراطورية ، الذين يحنون رءوسهم للملكة وله ٠ وكان هنـالك الكتبة ، بعدد رمال الصحراء الليبية ، كما كان الحال فى عهد الفراعنة ، والذين كانت مرتبة رئيسهم مساوية لمرتبة وزير ، كان يقرأ قرارات الامس ، من سجله الرسمى ، تلك القرارات التى كانت تصبح بالتدريج ، قواعد قانونية ٠ وبعد ذلك يأتى المستشـارون الذين يقترحون المراسيم المؤثرة فى الاسـكندرية ، والمأمورون Prytanes الموكول اليهم تنفيذها ؛ ذلك لأن الاسـكندرية كانت لا تزال تتمتع بامتيازات «مدينة حرة» بالمعنى الاغريقى لهذه الكلمة ، باعتبارها «خارج حدود مصر» ٠ وتعلم الصبى أن يميز بين الـ demi والـ Phyla ، والقبـائل والأسر التى كان سموها وكانت امتيـازاتها تؤدى الى ما لا ينتهى من المنازعات القانونية والقضايا ، وامتيازات الاغريق ومكايدهم ضد المصريين ؛ والوضع القانونى لليهـود ، الذين كان منهم بمصر مالا يقل عن مليون فرد ؛ والحقوق الدينية التى اكتسبها كثير منهم ، وتعالى الاسكندرانيين ، وانتقام المصريين عندما يصلون الى السلطة ، وغيرة الاغارقة من المقدونيين ، أو من أولئك الذين كانوا يسمون أنفسهم كذلك ، فحتى الآن ، وبعد انقضـاء قرنين ونصف من الزمان ، على تأسيس الاسرة الملكية مازالوا يصرون على أن موطنهم الأصلى هو مسقط رأس الاسكندر ، وكان كل واحد يريد أن يبرهن على أنه ينحدر أصلا من مقدونية ٠

وعندما يحضر الكهنة الكبار بمـلابسهم وحركاتهم ، هؤلاء

الذين كان كبيرهم ، كاهن الاله الاسكندر ، هو الرجل الاول فى الامبراطورية بعد الملك ـ يتعلم قيصرون امتزاج الطقوس والنظام الكهنوتى الذى كان يمارسه الاغريق فى الاسكندرية ، بعد أن مزجوه بعقائد المصريين مزجا ذكيا ، حتى أن ايزيس كانت هى أيضا افروديت ، وكان بلوتون هو سيرابيس .

ولقد تبين له بأى شغف زائف كانت تستفسر الملكة عن صحة الثور المقدس ، كما تبين اهتمامها الخالص عندما كانت قوائم الجرد الخاصة بكنوز المعابد تقدم اليها لتفحصها ، من أغلاها قيمة الى آخر قدح ذهبى وملعقة فضية . ويلى هذه الامور المقدسة التقليدية مباشرة تقرير ضابط الشرطة ، الذى يبين كيف قضى على الاضطراب الذى أحدثه بالأمس بائعو العدس بالسوق ، ولماذا ينبغى اعطاء بائعى بذور البطيخ موقفا قريبا من البحيرة ، حيث أن القلاقل والاضطرابات كانت ترجع الى هذا المصدر الجديد من مصادر المنافسة .

حينئذ كان قيصرون يظل واقفا الى الخلف قليلا، لكنه منتصب تماما ، ويسمع الجمنازى Gymnasiarch وهو واحد من أعلى موظفى الامبراطورية ، وهو فى ردائه الأحمر وأحذيته البيضاء ، يتلو نبأ انتصار المصارعين المصريين فى مباريات «بيرجامون» ، ثم يعلن ، بعد ذلك ، عن وصول كمية من أجود أنواع الزيت ، والمصارعون فى حاجة اليها لتدليك أجسامهم ، علما بأنه مستثنى من احتكار الدولة . ثم يأتى المدير الاكبر للنيل ، ويشرح بالرسوم والخرائط، أى القنوات أزيل منها الطمى ، وأى القنوات يجب توسيعها ، ولماذا كان محصول الخضر ضئيلا فى أعالى طيبة ، وأى الضرائب ينبغى لها أن تفرض لشراء بضع مئات من السواقى الجديدة اللازمة لأغراض الرى . وبعد ذلك يأتى مدير الاحتكارات فيقدم للملكة الحسابات المبينة لانتاج البردى والقمح والزيت والملح لكل شهر من شهور السنة . وفى ذلك الوقت يدرك الوارث أن احتكار الدولة

مصدر للكنز الشهير الذى كان سيرثه ذات يوم ، ومصدر للسلطان، ومصدر للحرية ، أيضا كما أعلنت أمه ، وعرف الغلام كيف كان زراع الدولة ، وعمال المراكب الملكية ، ومستغلو الاقطاعيات الملكية كيف كان أولئك جميعا يحسبون نصيبهم من الارباح ، ومع أن جميع التجار كانوا يزدادون غنى وثروة ، فان ذلك كله ، كان من شأنه أن يجلب ، أيضا ، وبرغم هذا ، الذهب الى خزانة البطالمة فى مصر ٠

لكن قيصرون كان يشعر بالزهو حينما يرى الرومان يدخلون كانوا اذا ما قدموا من أجل صفقة قمح كبيرة يأخذون طريقهم الى الملكة ، أو ربما كانوا يرغبون فى اخبارها بشىء عن عدائيهم فى السنة القادمة ، أو كانوا يتذرعون بذلك ظفرا برؤية الملكة الشهيرة التى كانت اسطورتها فى روما لم تذبل بعد ٠ كانوا يحسون الى حد كبير جدا بأقدارهم على الدوام ، وهم فى العادة شديدو اللجاجة والالحاف ، ولاحظ قيصرون كيف أن الملكة ، وهى تتعامل مع رومانى تكون مستعدة على الدوام لاجابة مطلبه مضاعفا ولزيادة الرقم ، ومع ذلك فانها كانت تمنح ، فى نهاية الامر ، غالبا أكثر مما كانت تريده فى الظاهر بكثير ٠ فى مثل هذه اللحظات كان الغلام يشعر بأنه قد جاء من أرومة أعرق من أمه واسمى، وعلى الرغم من أنه كان يعجب بها ، الا أن قيصر قد احتل فى خياله مكانة أرفع، وكان اسم قيصر يثير فى نفسه من الاجلال والاحترام مالا يثيره اسم بطليموس ٠

ويشتد اعجاب الصبى وطموحه عندما يرى أمين البلاط يقدم، فى قاعة الاستقبال الكبرى سفراء وأجانب ، تعلم قيصرون أن يميزهم بأسلحتهم وملابسهم : كان يرى تراقيين وبيثيين وليبيين وفرس وتروجلوديتيين من البحر الاحمر ونوبيين من أعالى النيل أو جالاتيين وحتى صينيين أيضا ٠ حينئذ كان يشعر باحترام متجدد نحو أمه ، طالما كان يسمعها تخاطب كثيرا من هؤلاء الناس بلغاتهم

الخـــاصة ، حتى أن الاجانب والمصريين على السوء ، كان يأخذهم العجب والحيرة لذلك ٠

وفي ساعات الحسر ، فى أثنـــاء النهـــار فيما بين الثانية والسادسة مساء ، لم يكن الصبى يرى أمه ، كما لم تكن أمه ترى أحدا ٠ فهذه هى الساعات التى لا ترغب فى أن تكون فيها ملكة أو أما ٠ كانت حينئذ ترقد وحيدة لســاعات بحرية تامة فى ايوانها المفضل ، تتصفح نسخة حديثة من الســافو أصدرها الميوزيون ، وتنظر الى مرآة ، بينما تلاطف بيديهــا احدى القطط الفاخرة ، أو تلتقط لفافة من البردى تحـوى أشـــعارا بذيئة من آخر كوميديا سياسية تجلب لها نفحة من نفحات روما ٠ وبعد ذلك كانت تطلب الرسائل الواردة من عملائها بروما ، وتقرأ الرسالة منها مرة ومرة ، ملوحة بها الى أعلى والى أسفل فى يدها الطويلة الرشـــيقة كما لو كانت تزن مقدار ما تحويه من حقيقة ، ثم تقطب جبينهــا قليلا ، ربما كانت تفكر فيما لو كان سيكستيوس على درجة من القوة تكفى لاضعاف اوكتافيوس وتقوية أنطونيوس بالتالى ٠ لكن ظلا يقف مرة أخرى بينهــا وبينه ـ ذلك هو ظل زوجة أنطونيوس الرومانية ـ وتمزق الرسالة الى قصاصات أينبغى عليهـــا أن تسمها ؟ وللمرة المئة نبذت كليوباترا الفكرة ، وأخذت فى مداعبة القط ٠

فى بعض الاحيان ـ وهكذا يهمس الخصى لجواسيس القصر ـ كان يرقد بجانب الملكة عبد شاب بدلا من القط ، ولكن ليس ذلك غالبا ، وليس لفترة طويلة ، وكان هـذا العبد يختفى بعد ذلك ، كقاعدة متبعة ، فى سرداب من السراديب ٠

واذا ما خرجت فى عربتها ، حوالى وقت الغروب ، وعلى يسارها قيصرون ، كان يرتدى رداء ارجوانيا بشرائـط لاكونية ، وبدون قبعة ، لكنها كانت تحمل مظلة صغيرة ٠ أما الحرس المقدونى الذى يحيط بعربتها فكانت رءوسهم مغطاة بلباد أبيض ويحملون رماحا

طويلة هائلة كانت تستخدم زمان الاسكندر ، وهى مبعث خشية ورهبة فى الشرق كله شأنها شأن القوس القريطيشية · فى أول الأمر كانوا يمرون بالمكتبة والميوزيون ، حيث تغرى أقدام الخيل دائما عـددا من الوجوه تأتى لرؤيتهم من النوافذ ، ويرى قيصرون الملكة وهى تحييهم · وعلى مسـافة يمكنهم أن يروا حلبة السـباق ومدرسة تعلم ركوب الخيل ، وكانوا يسمعون صيحات تنبعث من الحمامات العامة يطلقها الشباب فى أثناء غطسهم ومرحهم ·

وعندما يصلون الى التيترابيلون ، الباـب الرباعى على مفرق الطرق عند شارع الاسكندرية الرئيسى ، يبطئون السير ، وكانوا اذا ما مروا بجمهور ، تبحث الملكة بعينى صائدة ، عن أمور كثيرة من تلك التى لم يخبرها مستشاروها بها ووجدت كليوباترا أن من الممكن ، وهى فوق مستوى الشارع بياردة واحدة ، احتمال الجمهور والقذارة والفقر ، على الرغم من رائحة السلخانات وبالوعات المياه القذرة ، لأنها كانت قد تعلمت فى روما أن مزاج الشـعب كقدر يغلى ، فلم يمنعها ازدراؤها ولا أنفتها من أن تشم العناصر المكونة للطبخ ·

وفى المدينة ، رأى الغلام ، المتلهف الى المعرفة ، نافخى الزجاج وناسجى الكتان ، ورأى الرجال والنساء بين الأعمدة المكشـوفة · كانت المبانى الكبيرة ذات المخازن العديدة هى المصانع التى يتم فيها تجهيز البردى ، كما أمكنه أن يرى ذلك من البالات الموجودة خارج الأبواب ؛ وفى ذلك كان قد سمع مناقشة حول مبيعات الحكومة من السلعة · وكان الصاغة يطرقون على منافخهم وصناع الفضة يطرقون المعدن طرقات قصيرة حادة ؛ وباعة السمك يصيحون فى أثناء تجولهم فى الطرقات ، لكن النحاسين كانوا يحدثون ضجة أشد من غيرهم وهم يطرقون على أوانيهم النحاسية بعنف ، وبدا للصبى أنهم يضاعفون من ضجيجهم بسبب مرور الملكة ، وان لم يكن يدرى أيفعلون ذلك حبا فى الملكة أو كراهية لها ·

ولم يكن قيصرون يترك وشأنه حرا حتى فى المساء • ففى الحدائق الكبيرة بالعاصمة عليه أن يرد على تحية المجتمع الراقى وأن يتعلم ملاحظة أوضاع من يطلق عليهم اسم الفلاسفة المعفيين من الضرائب ، وقد كان بعضهم يلقنونه دروس العصر • وكان عليه أن يتعلم كم يدفع للمغنية ، ومتى يكون من المناسب أن ينصرف ، ولكنه كان يستطيع أن يسمع من النافذة ، فى وقت متأخر من الليل ، الأغنيات الخليعة تتغنى بها بعض النسوة على الجيتار فى الحديقة السفلى ، أو أصوات عالم التشريح وهو وقاضى القضاة يجلسان فى زاوية بالحديقة يتناولان عشاءهما من اللحم البيزنطى المملح ويتناقشان فيما اذا كانت الخمر الليلبية أو الخمر السورية هى الأفضل مع الجبن الكيوزى • وحتى ساعة متأخرة ، كانت الملكة تجده غالبا يقرأ بجانب مصباحه ، وقد يضحكان حينئذ سويا من آخر ثرثرة تدور على الألسن فى المدينة ، تلك التى سمعاها فى الحديقة هذا المساء وعندما تتركه ، بعد أن تقبله ، كان يرى فى اصبعها خاتما كبيرا من الياقوت ، لكنه لم يكن يخبرها مطلقا بما قد سمعه عن قوته وسلطانه • وربما كانت تجلس ، حينئذ فى بعض الأحيان أمام مرآتها طويلا وهى تفكر فى حياتها بسخرية واقعية •

« يا لها من سخرية » ، هذا ما كانت تحدث به نفسها وهى تدير رأسها الى اليسار قليلا لترى أثر القرط اللؤلؤى الجديد الطويل الذى تلبسه فى أذنها اليمنى ، فان ملكة عظيمة ذائعة الشهرة باعتبارها جميلة وذات خطر ، تحيا فى الغالب وحيدة مترملة ، لأنها لا تستطيع أن تجد رجلا يستمر فى ارضائها • ان لقائد الفرسان سيقانا جميلة غير أن عينيه تبرزان من رأسه ، كما أنه يعجب بنفسه • كان قيصرون يحمر خجلا فجأة عندما ترفع الراقصة ثوبها نحوه •• خالى من يجب أن يعهد المرء به عن ثقة •

ان وصيفة راقية على قدر من الصحة لهى أفضل من أميرة •••

لو يرنفع ثمن الملح نصف دراخمة(١) يكون من الممكن تغطية العجز فى الزيت هذه السنة ٠٠٠ ولماذا تشترى قبرص كمية أقل من البردى؟ ٠٠٠ اننا نريد ضعف ما لدينا من صناع أكاليل الزهور ٠٠ ليست الفكرة الملطية فكرة رديئة ، لكن من يدرى أن السفن لن يقبض عليها قبل أن تصل الى الميناء ؟ من المؤكد أنه ستنشب أزمة ان عاجلا أو آجلا ٠ وكل فرد يخشى وقوعها ، ولهذا السبب حقا فان الامور تسير هادئة جدا ٠٠٠ عندما يضحك الغلام يكون شبيها بأبيه تماما ! ٠٠٠ سوف يريدون الخمر فيما بعد ، بدلا من اللبن ٠٠ انه لوجود ساخر ٠٠ غدا يمكنهم أن يحركوا الحصلة قليلا بالقرب من الحاجب الأيسر ٠٠

- ٢ -

كان أنطونيوس ، فى هذه الأثناء ، يستمتع بوقته فى أثينا ٠ وكانت زوجته أوكتافيا ، ترضيه بعد أن استعادت قوامها الرشيق ؛ اذ كان عليها بعد شهور قليلة من الزفاف أن تلد ابنـــة أخرى فى العالم ، من زوجها الراحل ، تلك الابنة التى أطلق عليها أنطونيوس ، فى لحظة سخاء وأريحية ، اسم أنطونيا ؛ وكان مما يدخل السرور الى قلبه ، لفترة ، هو أن يجعل هذه السيدة الطاهرة المتزمتة أقل طهراً ٠ فهذا الرجل الذى وجدت النساء أن من الصعب مقاومته ، يبدو وقد اجتاحها فى اعصار فرحه بالحياة ٠ وكانت أوكتافيا بمثابة مربيــة رزينة يحملها على الضحك ولد ظريف ، خلافا لارادتها ، ثم تشــعر بعد ذلك بشىء من الحرج ٠

---

(١) عملة اغريقية كانت متداولة فى روما أيضا وكانت ضرورية للتجارة فى المناطق التى لم تكن تستخدم العملة البروترية ٠ (انظر : كوويل : شيشرون والامبراطورية الرومانية ص ٩٤) ٠

وما الذى لم يفعله أنطونيوس ليسرى عن نفسه وعنها ! عندما نزل في المباريات ليوقف قتالا بين مصارعين ، رفع هذا العملاق واحدا من الرجلين فى الهواء ، على حين اهتز الجمهور طربا . كما طرد الحراس الواقفين ببابه ، ومضى هائما فى الشوارع برفقة العلماء والممثلين الهزليين . ثم دعا جميع الاثينيين بعد ذلك الى حفلة مصارعة كبيرة تنفق عليها المدينة بأكملها . وبنى فوق المسرح مظلة باخوسيه، وهى نوع من المسرح المعلق ، حيث كان يجلس هو وأصدقاؤه يتناولون الشراب ، متكئين على أسرة ، على أصوات موسيقى المزامير والطبول .

ولكم شعر أنطونيوس بالامتنان لأن صهره الصعب أوكتافيوس كان بعيدا عنه فى ايطاليا ! ذلك أن رؤيتـــه له كانت تجعله بحق يشعر دائما بالبرودة وبالعرق . والآن ، وقد سمع أن الشاب أعلن من نفسه « ابنا للآلهة » ، صمم على أن يبزه . وفى احـــدى الليالى اقتحم مع حاشيته الصاخبة ، وهو مخمور ومحاط بالمشاعل ، اقتحم الأوكروبول وحمل المنادين على أن ينادوا به ديونيزوساً المبعوث .. وعلى هذا احتفل بزواجه المستور من الاله اثينا وقدم تمثاله فوضع بين الآلهة فى المعبد ، الأمر الذى جعله الاثينيون موضوعا لدعاباتهم الساخرة ونوادرهم . وفى الوقت نفسه طلب من المدينة أن تدفع له مليون دراخمة هدية زواجه ، حتى أن أحد أعضاء مجلس الشـورى صاح ، قائلا :

« أيها الاله العظيم ، ان زيوس أخذ أمك سميلى بغير مهر ! »
ويضحك أنطونيوس ، ولكن على الأثينيين أن يدفعوا برغم ذلك .

وبما أن انتصار قواده على حدود الامبراطورية الفارسية أزعج حكام الساحل فان هؤلاء أتوا لمفاوضته ، وقد سره أن يعين ملوكا صغارا :فيجعل هيرود ملكا على اليهودية، وداريوس ملكا على بنطس،

وثالثا ملكا على ليكونيا • ويقول عن هؤلاء الملوك انهم ليسوا سوى رجال أما هو فاله • وعندما كان مخمورا يعتقد فى هذا الأمر ••

سمعت كليوباترا بكل شيء ، غير أنه لايبدو أنها أرسلت اليه أية رسالة خلال هذه السنوات الثلاث • ويسجل الكتاب القدماء محادثة واحدة فقط حينما ذكر بخليلته المهجورة وطفليها التوامين•• فأجاب قائلا : « لا أستطيع أن أستودع ذريتى كلها عند امرأة واحدة• وقد ترك هرقل جدى ، مثله فى ذلك مثلى ، دمه فى أماكن كثيرة ، من أجل تأسيس أسر جديدة » • ولو كرر هذا القول على مسامعها لما كان يمكن أن يثير دهشتها •

وتظل ترقب الأمور من بعيد • ولو حدث ودفعها الحنين الى التفكير فى ايفاد رسول أو ارسال رسالة الى أنطونيوس فانها سرعان ما كانت تنبذ الفكرة بعيدا ، فهى تشعر ، باعتبارها ملكة ، بأنها أسمى من هذا الذى ارتفع الى نيل الحظوة ، عند قيصر لمجرد انه أظهر تبوغا فى ميدان القتال • كان ذهنها السليم ، فى لحظات خوفها النسوى ، يمثل لها ازدراءها لآنطونيوس باعتباره سببا يوجب عليها ألا ترسل فى طلبه تحت أى ظرف من الظروف • وكان فى أعماق قلبها الهام واثق بأنه سوف يرجع اليها من تلقاء نفسه ، قبل أن ينقضى وقت طويل •

وذات يوم يشيع فى نفسها أملا خبر منازعة بين الصهرين الجديدين ، لكن الاشاعة تنقضى • ذلك ان سيكستيوس بومبيوس، وقد لحقته الاهانة بطلاق اوكتافيوس المفاجىء لابنة أخيه ، كما وأنه مستعد على الدوام ، باعتباره ابنا لبومبى العظيم ، لأن يوجه ضربة الى أعوان قيصر ، قد نقض عهده وأوقع هزيمة ساحقة باوكتافيوس ـ حينما بادر باعلان الحرب عليه ـ فى معركته البحرية الاولى عند مسينا • وحينئذ فقد وارث قيصر ذو الخمسة والعشرين عاما ، فقد

رشده تماما وترك القيادة فى غمرة القتـــال ، وفر الى الساحل . وهنالك ، بدون اسطول ، دعا أنطونيوس الى نجدته .

ويبحر أنطونيوس ، الذى كانت أمامه بدوره مهـــام كثيرة يؤديها ، فى أواخر الشتاء الى برنديزى حيث كان على اوكتافيوس أن يلقاه . الا أن اوكتافيوس ، وقد وقف على قدميه من جديد ، لم يحافظ على موعده . الآن ، وفى مناسبة ثانية ، تتراكم الاهانة فوق الاهانة والغلطة فوق الغلطة ، وفى كل مناسبة من المناسبات كانت الحرب الاهلية تؤجل فحســب لأن كلا الخصمين كان يريد كسب الوقت .

وقامت اوكتافيا بدور الوسيط بينهما . وجعلها أنطونيوس كعادته ، تحمل منه فى الحال ثم أطلق على هذه البنت الثانية اسم أنطونيا أيضا ، كما لو كان ذلك نكاية فى أحد ، وأسرع لينجب منها ابنا ثانيا ، لأنه كان يريد مع ذلك ابنا آخر . وبفعل الظروف لم تعد زوجته تصلح خليلة له . لكنه وقد بدأ يمل زوجته سرعان ما انجذب الى تذكر مباهج الاسكندرية الفاتنة وملذاتها . ويلاحظ أنطونيوس، وهو يرقب زوجته ، على حين غرة ، أنه ينفر من فضيلتها . لقد دفع صديقا له ليقودها الى طريق الغواية والاغراء ، وأصبح غاضبا عندما صدت هذا الصديق بجفاء ، لأنه عزا صدها لا الى حبها لزوجها ؛ ولكن الى زهوها الخلقى «الرومانى القديم» . لكن تلك المرأة الاخرى، المرأة التى كان قد هجرها ، والتى كان يتلقى أنبـــاء ما تفعله على الدوام ! كانت تستطيع أن تنجب طفلين معا فى آن واحد ، وأن تظــل مــع ذلك مخلوقة فاتنة ! لم يكن هنالك فى الحقيقة شيء لا تستطيع هذه المرأة أن تفعله ، لكن اوكتافيا ــ حسنا ، كانت أما تعول أسرة فحسب .

كان الطلاق مستحيلا ، لأن ذلك معنـــاه القطيعة بينه وبين اوكتافيوس . ولماذا يطلقها ؟ يكفى أن يكون بينهما البحر، وبعد ذلك

سوف تمضى الامور على أحسن وجه ، وطالما لم يذهب الى الاسكندرية فبامكانها أن تعيش في هدوء مع ابنتها ومع الابن الذى سوف تنجبه له في روما ؛ ومن روما يمكن للزوجة السعيدة أن تبادل زوجها الرسائل والتحيات .

ومما لا ريب فيه ، ان كليوباترا لم تكن وحدها هى ما اشتاق اليه ، بل كان يحن الى حرية عزوبته القديمة أيضا . ومع ذلك فعندما جال بعينيه ناحية مصر كان مدركا تماما للمزايا العظيمة التى يجنيها من حلف سياسى يرتبط مع الملكة به ، اذ يجب عليه أن يبذل قصارى جهده في السنوات القليلة القادمة ، اذا ما أراد أن يهدد روما باعتباره أقوى الثلاثة وأعظمهم . وطالما أن اوكتافيوس سيكون صديقا حتى مع أنطونيوس البعيد ، وطالما أن الرجلين قد بدأ مرة أخرى يتبادلان التهديدات ، فمن المحتمل أن يناسب كليهما اعلان اوكتافيا بأنها سوف تكون أشقى نساء العالم لو اضطر أخوها وزوجها الى خوض حرب يقتتلان فيها .

وهكذا ، تجدد حلف الحكومة الثلاثية عند «تارينتوم» لخمس سنوات أخرى . وأعطى أنطونيوس صهره مائة وثلاثين سفينة ليحارب بها بومبى ، وأخذ منه في مقابل ذلك فرقتين ليستعين بهما على حرب الفرس ، تلك الحرب التى كانت تجرى حتى الآن ، فتقوم حينا وتخمد حينا بغير موعد أو نظام . وارضاء للتضامن الخرافى بينهما ، اتبعا عادة قديمة لاعطاء عهد وضمان . فقد تمت خطبة ابنه اوكتافيوس الى ابن أنطونيوس من فولفيا . الآن ، يزوج اوكتافيوس وهو في عامه الثانى والعشرين ، ابنته الى أخى الطفلة التى كان هو قد خطبها لنفسه ذات مرة .

ويخلع أنطونيوس ، حينئذ أحذيته البيضاء ويتحول الى قائد مرة أخرى ، وتمتلىء أذناه ، من جديد ، بتحدى الفرس ، أولئك الذين كانت دقات طبولهم قد غرقت منذ زمن طويل جدا في صخب

طبوله الباخوسية • ووفقا لقانون الديكتاتورية يصبح هذا القائد مجبرا على الحرب ، فبما أن الحكومة الثلاثية الجديدة ، وقد قامت دون ميل حقيقى أو ضرورة منطقية ، لم تستطع على الدوام أن تحجب تشاحن أعضائها الثلاثة وتنازعهم على السلطان• فان على أنطونيوس أن يحارب وهو الذى سيستعيد قوته الفائقة عند انهيار النظام • ولم تكن أوراق قيصر ، التى ما زال أنطونيوس يحملها معه ، ولا يودعها أحدا سواه ، لم تكن قد فقدت قدرتها الرمزية ، وفى خلال السنوات الماضية القليلة ، وعندما أغرت الفتنة داخل روما العدو الفارسى الوراثى على أن يتقدم فى أراضيها ، عند ذلك أصبحت هذه الاوراق ، فى الحقيقة ، ذات قيمة عملية مرة أخرى •

ولكن ، لكى تعلن الحرب على فارس فيجب الحصول على المال حتى بالنسبة لجيش متوسط القوة ، ومع أن أمناء بيت المال قد أدخلوا فى العملة مزيدا من الحديد والنحاس لتزييفها ، فان الفرق ظلت لا تقبض رواتبها لمدة شهور • وكان بوسع اوكتافيوس ، بالطبع ، وهو فى ايطاليا أن يجد وسيلة لذلك بتوزيع الاراضى المصادرة على جنوده ؛ لكن أنطونيوس كان عليه أن يدفع نقدا ، ومن المشكوك فيه أن يجد فى سوريا غنائم وأسلابا كافية • وأين توجد النقود فى العالم الشرقى ، ان لم يكن فى مصر ؟ أكان عبثا باطلا أن أصبح أنطونيوس عاشقا لأغنى امرأة فى العالم ؟ كان مدفوعا اليها باعتبارات عملية وسياسية اختلطت باعتبارات المرأة الصائدة المغامرة ، وان مجبوبة الآلهة كانت تستطيع أن تغير دوافعه بما يرضيه ــ فذلك ما كان أنطونيوس على يقين منه ــ وكان كل ما تقوم به الملكة ملائما له ، كانت ثروتها مفتاح فارس ، لكن أنطونيوس كان لديه مفتاح كليوباترا ؛ وعندما كانت الخمر تصعد الى رأسه ويتخيلها ترقد عارية ، كان يرى الى جانبها كيسا من الذهب •

وفض أنطونيوس معسكره ، ورحل عن زوجته فى كورفيو ، ومن المحتمل أن يكون قد ربت على خدها ، وطلب منهـــا فى حنان أبوى ـ لكن دون أن يلحظ ذلك ـ أن تعنى بالاطفال • وأخذ معه الى الحرب ، تيمنا واســـتجابة لأحد الطوالع ، فرعا من الزيتون المقدس وماء من الينبوع المعروف بكليبسيدرا • لكن يجب عليه أن يسوى حسابه قبل كل شيء فيؤدب كل الملوك الصغار بين البحر وبين فارس لكى يفضـــح كل المؤامرات والدســـائس التى كانوا يحيكونها ضد روما فى السنوات الثلاث الاخيرة ، وضد أنطونيوس، فضلا عن ذلك •

رحلت عنه اوكتافيا ، وهى تحس عاطفة الام ، وهى الزوجة المخلصة التى كانت ، برغم كل حماقات أقربائها وغيرتهن منها ، تعنى بأطفال عاجزين حقا ؛ وفى رعايتها الآن أطفال فولفيا وبناتها، وســـترعى فيما بعـد أكثر مما كانت تتوقعه من الأطفال • لم تكن ـ بالتأكيد ـ شقيه وهى تودع زوجها ، ولابد أنه قد بدا فى نظرها رجلا مجنونا محبوبا • وكان احســـاســها الرومانى القديم بالواجب يقتضى منها أن تضحى بسعادتها الشخصية من أجل أسرتها أو من أجل الدولة ؛ وكانت تشـــعر فى أعماقها شعورا جوانيا بأنها بهذه التضحية أكثر ثراء وغنى •

ولاحظ شخص ثالث وداعهم ؛ فى صمت ، ولكن كان ينبعث فى قلبه أمل خفى ، رأى اوكتافيوس أنطونيوس وهو يرحل الى الشرق • ولم يقدر لكليهما أن يرى أحدهما الآخر بعد ذلك مرة أخرى • ولا يؤلم اوكتافيوس أن يضحى بأخته ، فى نهاية الأمر ، فى هذه القضية ، بل انه كان يقصد الى ذلك •

ولو أنه ، عندما يكون قد استعاد قوته فى مواجهـــة بومبى عدوه الدائم ، وأصـــبح يحكم بمفرده فى ايطاليـــا ، يفصــله عن

أنطونيوس البحر المتوسط ، الذى لا يمكن للكتائب عبوره شتاء ـ ولو أنه استطاع فى هدوء أن يقوى مركزه فى روما ، فسوف يأتى الوقت الذى يزعجه فيه بالضرورة ـ انتصار صهره المرتقب لما يحدثه من أثر ضار به بالنسبة للرأى العـام . ذلك لأنه كان يشعر بأن أنطونيوس أكثر منه شعبية فى كل مكان ، كمـا كان ينظر اليه باعتباره قائدا قديراً .

لكن يجب أن ينتهى الأمر يوما ما الى أن يصبح من بين الثلاثة المتحالفين ، والذين كانوا من قبل اثنين فحسب فى واقع الأمر ، يجب بالضرورة أن يصبح واحدا منهم فقط هو السيد الأوحد .

- ٣ -

« ذلك الجواد الجامح ، الذى وازن أفلاطون بينه وبين أهواء معينة ، قد انفلت زمامه مرة أخرى ، وخلافا للشرف وللمصـلحة وخلافا للحرص والتبصر ، أرسل أنطونيوس فونتيـوس كابيتيون ليستدعى كليوباترا الى سوريا » . هذا ما يتحـدث به بلوتارك ، عندما يود أن يفسر ما دفع بأنطونيوس الى أن يفعل هذا دون سواه .

وما كان أحد يتوقع منه غير ذلك . ولم يكن مما يبعث على الدهشة أن أرسل فى طلبها ؛ ولكن مبعث الحيرة فى الامر أن تنقضى سنوات أربع تقريبا دون أن يفعل ذلك . وربما كان القارىء سيود أن يرى الملكة الابية ترفض اللحاق به ، وأن يرى الرومانى النادم مسرعا يلقى بنفسه تحت أقدامها . لكن القصة ، وفق ما ترويه لنا السجلات ، قد سلكت سبيلا آخر أكثر واقعية . فان أنطونيوس كان قائدا ؛ وكان قد عبر البحر معه جيش عظيم ، ووجهته الشرق ، فلم يكن ليستطيع التوجه غربا ، على حين أن كليوباترا ، مع كونها

ملكة حاكمة ، تستطيع التحرك حيثما شاءت . كل شيء كان يدفعها الى الاسراع بجانب الشخص الوحيد الذى كان بامكانه أن ينقذها من وحدتها ، كما كانت نفسها أيضا ، تموج بدوافع شتى من كل نوع، سياسية وخاصة دوافع ملكة مصر ودوافع أم لأطفال ثلاثة ـ كل ذلك كان يستحثها نحو الهدف ذاته .

وبينما أبحرت للمرة الثانية نحو ذلك الخليج الشرقى فى البحر المتوسط ـ لأن أنطاكيا كانت فى مواجهة طرسوس على الساحل السورى ـ لم تكن كليوباترا تشعر بمثل ما شعرت به منذ سنوات خمس من قبل . حينئذ كانت المرأة الراقدة فى ظلال الشراع الأحمر ليست راغبة فحسب فى الوصول الى من ينتقم لمقتل زوجها الراحل ، ولكنها كانت راغبة أيضا فى أن تحمى بلدها الغنى، المفتوح أمام كل هجوم ، من أن تسقط فى أيدى غاز من الغزاة ، واذا كانت قد فعلت هذا بما عرفت به من لطف وكياسة ، فان شوقا لا شعوريا الى لذات غير مذاقة قد أثار فيها يومئذ دهاء رفيقا وشهوانية ذات صلف . فلقد اندفعت امرأة غير وجلة ولا هيابة ـ فى الخامسة والعشرين من عمرها ـ الى مغامرة ؛ وكانت لا تزال حينئذ أفروديت .

لكنها الآن ، وهى تقف فى مقدم السفينة ، كانت كليوباترا السابعة ، ملكة مصر ، وامرأة ناضجة فى الثالثة والثلاثين من عمرها وقد أرضعت من ثدييها أطفالا ثلاثة ؛ وفى حجرها جلس هرقل . كان صدرها العالى أكثر امتلاء حتى أن قميصها الحريرى الوردى كان ملتحما به ، وهنالك بدا أنه يشع منها بريق المعرفة بمواهب الحياة ، ورغبة ملكة فى أن تجمع هذه المواهب كلها بين قبضتها . وكانت نظرتها تبدو أكثر حدة ، وعروقها أشد بروزا ؛ كما كانت خصلة الشعر على جبينها أكثر ارتفاعا . كانت شفتاها فقط فى جمالهما أشبه بقاربين على شط ضيق ، وبدا أنهما مازالتا تتوقعان

قبلة مشهودة تفوق الوصف • وما كان أحد ليصدق أنهما يمكن أن ينطقا بلعنة من اللعنات • وكانت رغبتها فى التسلط والقوة ، تلك التى كبح قيصر جماحها ، قد نمت خلال سنوات الخطر والمسئولية ، سنوات الاحتكاك الدائم والصراع مع الاتباع • فقد انقضى من زمن طويل الحياء الطبيعى لامرأة وحيدة كان يعاضدها فى شبابها أعظم رجال عصرها ، وأصبح على وعيها بذاتها الذى انبعث قويا ، من جديد ، أن يجابه مسئوليات أخرى ، غير أنه الآن قد حلت مشروعات انسانية محل أحلام الآلهة •

وبالنسبة للجانب البارد الساخر فى طبيعتها ، فان الشتاء الباخوسى ، الذى علمها الطيش ، والذى تركها فى نهايته الهادئة أما لتوأمين ، سرعان ما ذبل ليصبح قصيدة غريبة فى حياتها ، حقا ، عندما ظهرت أوكتافيا فى الأفق ، باعتبارها زوجة جديدة لحبيبها ، زوجة اختارها بحرية بعد مغامرته العظيمة ، فانها كانت تميل ، لفترة ، الى أن تقطع ما بينه وبينها الى الأبد • لكن حسها جعلها تغير فكرتها بسرعة ، فهذا الرجل كان لا يزال سيدا لنصف العالم ، وربما يكون خطرا على مصر • ولهذا لم تدم غيرتها طويلا ، وضبط العقل حنينها الى الثأر لنفسها • كما أن الاطفال الذين أنجبتهم ، عندما كان والدهم يتزوج اذ ذاك من زوجته الجديدة ، هؤلاء الاطفال استنفدوا حيويتها لفترة ، وباعتبارهم الضمانات الحقيقية لحب وحشى قاس بدلوا حنقها الى احساس بالسمو والجلال • أكان مدعاة للدهشة ، أن تخضع نفسها لمواطن رومانى ، حتى انه اندفع على الفور ، دون فهم لقدره ومصيره المنتظر كملك ، اندفع الى الزواج من مواطنة رومانية أخرى ؟ فذلك هو الشىء الذى يمكن أن يصدر عن واحد من العامة ، ولا شىء غيره •!

ومع ذلك فخلال هذه السنوات الأربع لم تعدم كليوباترا رؤيته ، وهى كزوجة مهجورة وملكة معرضة للخطر ، كان من المحتم

عليها أن تحن ضرورة الى عودته · وبمـا أن أحد الرجلين ، اللذين كانا يحكمان العالم ، عدو لدود لابنها ، فلسوف يكون ذهنها مشغولا بارتباطها بالآخر ، حتى وإن لم تعد تحبه بعد ، وكانت كليوباترا ، فضلا عن ذلك ، أكثر منه ذكاء حتى أنها نسيت فى أوقات معينة كل حقدها عليه ، متقبلة شخصيته كما خلقتها الآلهة ، وفكرت فقط فى الطريقة التى تجعلها تذعن لضعفه · أكان الذهب ، اذن أقل قدرا من الجمال ؟ أو لم يدخر أجدادها مثل هذه الثروة فى القرون الثلاثة الماضية لمجرد أن تتمكن ، سليلتهم البعيدة هذه ، يوما ما من أن تفتدى حريتها عندما يفشل كل أمر آخر فى ذلك ؟

كانت هذه المرأة تفـكر ، وهى على ظهر سفينتها ، وعيناها تحدقان ناحية الهدف الشرقى لرحلتها ؛ لن تظهر ، هـــذه المرة ، أمام أنطونيوس فى مركب أفروديت ! كان بالطبع يريد امتلاكها غير أنه يجب أن يعطيها أولا نوعا من الضمان ، لأن أطفالا ثلاثة فى حاجة الى أب كما أن المملكة فى حاجة الى حليف · علمها والدها ألا تعادى روما ! ولقد كانت مأخوذة بالحلم العظيم ، حلم تأسيس امبراطورية عالمية مع روما ، ولكن خنجر بروتوس الصـــالح ! كان قد انغرز حينئذ فى جسد الرجل الذى كان عالما فى نفسه · وكانت اذ ذاك تسير فى أثر الرومانى العظيم · واذا ما كانت نصف روما فحسب فى متناول خططها اليوم ، فعلى الرومانى الأقل شأنا ومقـــاما أن يتبعها وطالما أنهـــا لم تر أحدا يعلوها ، فان شعورها الملكى كان يتوق الى مملكة أكبر ــ أكبر مما كان يمتلك أبوها من قبل ·

لكنها كانت تعرف أنطونيوس حق المعرفة · ولقد أحست بأنه لم يكن قد أظهر نفسه ، بعد موت قيصر ، على نحو ما كانت هى ، ندا لتحقيق أهداف جديدة · ولم تعتقد مطلقا أن عبقرية قيصر قد انتقلت ، مع أوراقه ، التى يحتفظ بها أنطونيوس ، قائد فرسانه ، ولم تكن لتخاطر أبدا فتعهد اليه بحلم الاسكندر بعد موت قيصر ·

وعرفت قبل أن تلقاه من جديـد ، أنه ما زال هو بعينه ، محبـوبا ومترددا ، واذا ما كان عليهـا أن تتفاوض منذ الآن معه ، فسـوف تمسك هى بزمام الأمور • ولئن يكن نجاحها فى صرفه عن غزو فارس مؤكدا أم لا ؛ فسوف تكون مهمتها الأساسية أن تبقيه بعيدا عن روما • ولو استطاعت أن تخلص طبيعته الاغريقية من العالم اللاتينى، تماما ذلك العالم ، الذى بدا فى الحقيقة عالما لا يحظى بميله الشديد اليه فسيكون باستطاعته أن يجعل منها سـيدة جنـوب البحر المتوسط • لم تكن فى حاجة الا الى خطوة واحدة : يجب أن يصبح ملكا على مصر •

وبينما كانت كليوباترا تردد فى نفسها مثل هذه الأفكار ، وهى فى مقدم سفينتها ، بين نسيم البحر الهادىء ، كان يقف الى جانبها وريث وممثل ذلك الرجـل الذى كان مجرد نزوله العرضى بأرض مصر سـببا فى أن توجد ذات مرة كل هـذه الخطط لاقامة امبراطورية عالمية • كان قيصرون ، الذى تكشف له هذه الرحلة عن جانب من عالم جديد ، رفيــق سفر ضروريا ولازما لسـياستها ولكبريائها • ويجب على النـاس فى كل مكان أن يتعلموا احترام حاكمهم المرتقب فى شخص هذا الغلام اليافع الجاد ابن الاربعة عشر عاما • وان هذه المرأة ، التى كانت تشمخ فوق شـعوب البـحر المتوسط بجرأة تصورها وخيالها ، لم يحدث وأحضرت معها اليه أولاد حبيبها العائد ، ولقد شعرت بأن هذا الباخوسى ، الذى كانت له خليلة فى كل مكان يذهب اليه ، سوف لا يرى سوى الجانب الساخر فى هؤلاء الصغار ، اذ سوف يفكر عند رؤيتهم فى السبب الطائش لانجابهم بعيون أكثر صحوا • ولسـوف تريه مكانهم ابن قيصر ، ولأنه ابن لقيصر فلهذا وحده يجب أن يكون موضعا لاهتمامه•

وببرنامج محدد ، يرضى كل مطالبها ، اقتربت من هذا الركن المصيرى من أركان البحر المتوسط ، ذلك الذى تبتدىء منه ممرات

ثلاثة مفتوحة أمام كل غاز وتؤدى الى اتجاهات ثلاثة مختلفة. وأمرت كليوباترا بأن يعاد فحص كل ملابسها بدقة وعناية ، وحددت أى الاقراط والمشابك يجب أن يوضع مع كل لباس تلبسه ، وكيف يجب أن يبلغ مظهرها حدا فائقا من الروعة والعظمة باستعمال الالوان استعمالا حاذقا وباستعراض الجواهر الثمينة . وكان قيصرون يقف الى جانبها حينا من الزمن وهو يحملق فى كل هذا البهرج بعيون خاوية ، ثم يلتفت ليرقب سير السفينة .

- ٤ -

كانت هنالك ، فى قلعة أنطاكيا ، أعمال نادرة . ولقد رغب أنطونيوس فى أن يستقبل ملكة مصر بمأدبة لم يقم مثلها أبدا من قبل ، وذلك ليبين لها أنه حتى الرومانى يعرف كيف يكون أمر الولائم والحفلات . وكان ، لمدة أسابيع ، يجلب كل ما رآه على موائدها من قبل ، برغم أن كثيرا من التفصيلات قد أضفت طابعا رجوليا حفاظا على الصفة الرومانية فى غمرة هذه الكثرة من الاستعمالات الاجنبية . لكن عندما دخلت الملكة على ظهر جوادها ، يحيط بها الحراس فى أزياء براقة زاهية ، وفى صحبة ابنها الرشيق ، الذى ربما كان يبدو بمثابة أخ لها ، عند ذلك ، بدا لأنطونيوس أن كل ما أعده وقد أصبح فجأة أمرا عاديا ، ولم يجعله يطمئن الى روعة مأدبته التى لم يسبق لها نظير سوى المديح الذى أسدته اليه الملكة بعد يومين من وصولها .

أمسكت كليوباترا نفسها عن عشيقها القديم ليلتين كاملتين ، وكان ذلك تجربة جديدة على أنطونيوس ، فلقد كان يريد ، بطاقته الفياضة المتفجرة ، أن يمتلكها حالما وجدا نفسيهما وحيدين ، وكما

لو كان الأمر استمرارا لغرام بعد رحلة قام بها · لكنه وجدها امرأة متغيرة · لم يكن السـبب هو أنه لم يعد يرضيها بل انها لم تكن تجـاوز الواقع فحسب أو تحيد عنه · ولم يعقب ذلك فيض من عبارات اللوم أو العتاب ، على نحو ما فعلته فولفيا فى أثينا · فقط، ابتسمت له هذه المرأة ، وعندما كان يقوم بدور هرقل ، وهو بين الرجاء والتهديد ، انفجرت فى وجهه ضاحكة · هى لم ترفع اصبعا أو تحرك ساكنا ، ومع ذلك فانه تراجع الى الوراء ، وكما لو لم يكن قد حدث له أفضل من ذلك ، بدأ يضحك هو أيضا ·

وفى اليوم الثانى يحتفلان بزواجهما · وتكون علاقتهما معا أكثر برودا وأكثر واقعية · ووافق أنطونيوس على أن تسك عملة تحمل اسمها واسمه معا ، لكنه رغب فى أن يلقب بحاكم مطلق ، لا يملك ، اذ كان بامكانه حينئذ ، أن يظل حاكما رومانيا Proconsul برغم أنه أصبح زوجا للملكة · ولقـد أدركت كليوباترا ميزة هذا التحفظ وضرورته فى الحقيقة ، فلو أنه أصبح ملكا ، أو أعلن طلاقه لأوكتافيا ، فان الحكومة الثلاثية ، التى جددت من وقت قريب لخمس سنوات أخرى ، سوف تتصدع، وسوف تكون الحرب مع اوكتافيوس لا مفر منها · وكان الوقت متأخرا جـدا لاثنـاء عزمه عن الحرب الفارسية : فان رؤيتها للمعسكر الهائل لأول وهلة أنبأتها بذلك · ومن المستحيل أن تنتقل كل هذه الكتائب الى مصر · ولقـد كانت ترى ، وهى تشـعر بالضيق ، آلاف الطالنت تختفى من خزانتها لتذهب فى اتجاه فارس ، ذلك لأنها وافقت بايماءة من رأسها على أن تزوده بما تتطلبه الحملة من مال · ولقـد فكر أنطونيوس بينه وبين نفسه قائلا : «حسنا يتحقق لهـا ما تطلبه ، فهى أغنى امرأة فى العالم » · وكانت أمامه معاهدة سياسية لاقرارها ·

فى مساء الليلة الثالثة ، دوت الموسيقى فى أرجاء القاعات ، وشرب مئات ، من ضباط أنطونيوس ومن حاشية الملكة خمورسورية

الحلوة المعتقة نخب الاخاء ، وحضرت أجمل الفتيات الراقصات فى المعسكر ، وأحاط بقية الرجال بهن ، وفى حرارة شديدة تأكد الحب والصداقة بلغات ست حتى أن قليلا من الحاضرين من فهم الكلمات التى قيلت ، وان أدرك الجميع معانيها ؛ وفعل الأمراء السوريون ، الذين دعوا للحفل ، ما فعله الآخرون ، لكنهم ابتسموا فى صمت ، فقد كانوا أقسموا من قبل يمين الولاء لكثير جدا من الفاتحين فى مدينتهم القديمة ، ثم حاربوهم بعد ذلك •

ووقفت كليوباترا فى احدى الحجرات الصغيرة الى مائدة كبيرة تحيط بها الأضواء وأمامها خريطة كبيرة مبسوطة ، يمسك بأطرافها أربعة من العبيد • كان قيصرون يقف الى الطرف الضيق من المائدة، مرتديا زى فارس مقدونى ولابسا حذاء عاليا ، وممسكا بغطاء رأسه اللبادى بينما كان يميل برأسه فوق الخريطة • وعلى قيد خطوتين منه جلس أنطونيوس ، وهو غير مستريح تماما فى عباءته الارجوانية الثقيلة التى كان عليه أن يرتديها فى ذلك اليوم باعتباره امبراطورا وكان يتكىء على كرسى ذى ذراعين ومحملقا فى الملكة • لم يكن قد رآها من قبل على هذا القدر من الجمال ، وكان يلاحظ آنذاك نظرات الملوك الصغار من ضيوفه اليها ، وكيف كانوا يرمقون جميعا خليلته الذائعة الصيت باعجاب • ها هما الآن وحيدان ، وبوسعه أن ينظر اليها مليا غير عابىء بما حوله من العبيد •

كانت تبدو غالبا طويلة بردائها الفضى وحذائها العـــالى ، وعندما سطعت أضواء الشموع على جواهرها ، وكشفت عن أجمل ما وجد فى العالم من ماس حينذاك ، يرصع اكليلها المســـتقر على جدائل شعرها ، بدت فى نظر العربيد الصامت أشبه بالهة أجنبية تفوق أجمل سيدات روما النبيلات ، والذى كان مدفوعا الى موازنتها بهن وفضلا عن ذلك ، فقد كان مفتونا بالجدية التى كانت تنظر بها الى

الخريطة الكبيرة ، بينما رسمت بريشة طاووس دوائر وأشـــكال غامضة على مواقع فى البر وفى البحر • كانت تعرف ما لها من تأثير عليه ، وأعطته الوقت الكافى ليسكر من سحر منظرها • بعد ذلك، أدارت رأسها نحوه وابتسمت ، وبايماءة من ذقنها وجهت نظره الى الخريطة حتى استجمع نفسه ونهض ، وقف بجانبها ، على اليمين ، بينما ظل الغلام واقفا فى موضعه على يسارها • وهكذا كان العالم المصور مبسوطا أمام الرومانى وأمام المصرية الاغريقية وأمام وارث حلم الاسكندر ، ذلك الحلم الذى كان يجمع بينهم ذات يوم •

لكن الملكة كليوباترا ، طلبت منه وهى تقف أمام الخريطـــة الكبيرة ،وباعتبارها عروس أنطونيـــوس ، طلبت هدية الزواج ، الولايات القديمة التى كان يمتلكها الفراعنة منذ خمسة عشر قرنا مضت • وكان كسبها لهذه الولايات فى صفقه ، وكانت قدرتهـــا على أن تقدم الى المصريين ، والى أقطاب المقدونيين فى وطنها بوجه أخص ـ أولئك المتذمرين دوما ، امبراطورية كانت مجرد حلم فى خيالهم منذ قرون خلت ، كان هذا هو السبيل الوحيد لجعل زواجها الرومانى ، برغم كل المعارضة المتوقعة ، الذروة المجيدة لسلطانها• هذا ما كان يدور بخلدها على الدوام وهى على ظهر السفينة ، وهذا ما شرحته لابنها ، الذى كان يقف الى جوارها صامتا حينئذ ، وعلى وجهه تعبير لا ينبىء بشىء ، وكما لو كانت روح قيصر تتلمس ـ من خلاله ـ حمايتها فى ساعة الغزو هذه • ذلك لأن ما كانت تطلبه ، وان لم يكن من أملاك روما الرسمية ، فانه كان ملكا لأمراء يطيعون روما كأتباع •

هنالك ، وقفت منتصبة تماما فى ردائها الفضى ، وريشـــة الطاووس تتأرجح فى يمينها برقة • ولمست برفق أماكن قليلة على الخريطة ، ودون أن تنطق بأسمائها بل قائلة فقط فى هدوء : «هذه

·· وهذه ·· وهذه » · كانت هذه الأماكن تشتمل على شبه جزيرة سيناء ، وجزء من الصحراء العربية ، ومعظم خالكيا ، وجزء من وادى الأردن ، وأريحا وأجزاء من السامرة والجليل ، والشواطىء الفينيقية ، ولبنان ، وقبرص ، وأجزاء من كريت ، وذلك الجزء من كيليكية الذى كان يحتوى على مناجم القصدير على سفوح طرسوس، والى الغرب حتى غابات الأرز ·

كان أنطونيوس يقف بجانبهـــا ، وتحركت كليوباترا حتى لمست ذراعه كتفها · وعندما انتهت من حديثها فكر قائلا لنفسـه : « يالها من زوجة غالية » وترك ذراعه تسقط فجأة فوقها ، كما لو كان يكشف عن أنه سوف ينهار قنوطا ما لم يوافقها · لكن ذلك لا يؤثر فيها ؛ وابتسمت والتقطت ريشة الطاووس ، ثم ألقت بها الى الأمام ، الى العالم الذى غزت منه توا أجزاء قليلة · واصطدمت الريشة برأس واحد من العبيد الأربعة ، لكنه لم يتحرك ·

أومأ أنطونيوس موافقا على كل ما أثارته باستثناء أمرين · فهو لم يكن ليستطيع أن يأخذ كل شيء تماما من هيرود ، الذى جعل منه أنطونيوس اذ ذاك ملكا على اليهودية ، ومن ثم فينبغى أن يستأجر أريحا منها ؛ وبالاضافة الى ذلك ، فان الملك مالخوس يجب ألا يترك سيناء ؛ وعليه أن يستأجرها من مصر بضمان هيرود · سوف لايكون هنالك ، على أية حال ، سوى خلافات يسيرة تافهة ·

وشعرت فى هذه اللحظة بالأسف لطلبهـــا من قيصرون أن يكون حاضرا ؛ وقد أدركت قلقه وضيقه · كانت قد علمته بطبيعة الحال أن الاذعان يكون ، فى بعض الأحيان ، أكثر حكمه · لـــكن هل كان بوسعه أن يفهم الآن ذلك ؟ وان نقاشـــا ، أو ربما حتى مشادة تكون مستحيلة فى جو نادر بهذا الصفاء والجلال · وما دام

أنطونيوس قد انساق جملة وراء رغباتها فمن غير الملائم ، فى مناسبة ملكية كهذه ، بل انه لأمر جلل أن تكون ثمة مساومة حول الايجار. وهكذا ، أومأت أيضا برأسها موافقة ، فى صمت ، على نحو ما فعل أنطونيوس . ثم دارت على عقبيها فجأة وضحكت . وحملق فيها أنطونيوس ولكن قيصرون قطب ما بين حاجبيه .

أمسكت الغلام من شعر رأسه وهزته قليلا ؛ ثم أخذت ذراع زوجها ، وعادوا الى ضيوفهم معا .

- ٥ -

لابد أن أخبار معاهدة انطاكيا المذهلة ، وأخبار زواج أنطونيوس قد أفزعت روما ، حتى قبل أن يشرع الجيش الهائل فى المسير الى فارس . وأحس المواطنون بقشعريرة الرعب . لكن رسل أنطونيوس بينوا ، نيابة عنه ، أن روما كانت عظيمة لا بما أخذت بل بما أعطت . وفى كل مكان كان أنطونيوس قد أسس أسرات جديدة . وكان اثنا عشر ملكا يتقربون اليه ؛ وما أعطاه لمصر أعلى فى الحقيقة من شهرة المدينة الكريمة العريقة . هكذا كان يلهج أنطونيوس بسخاء بمثل هذه العبارات .

ورفض أوكتافيوس أن تأسره مثل هذه الكلمات أو أن ينخدع بها . لكنه ظل مترددا فى اتهام حليفه أمام مجلس السناتو ، لأنه سيكون قد أقر ؛ بهذا ، بأن ذلك المجلس ، الذى كان ينظر اليه منذ زمن طويل بزراية وعدم تقدير ، لا يزال له بقية من سلطان ؛ ولقد كانت حملته ضد آخر أبناء بومبى مؤلمة للغاية ؛ ومع ذلك فلم يكن من القوة بحيث يسعى الى تلمس العذر للقطيعة بينه وبين

أنطونيوس • ولقد عرف انطونيوس هذا عندما جرؤ على اثارة صهره باقترانه من زوجة ثانية • لكن أو لم يكن قيصر قد طلب من مجلس السناتو أن يسن قانونا يبيح له تعدد الزوجات ؟ هكذا كان أصدقاء حزب أنطونيوس يحاجون أوكتافيوس • ولم يكن القانون المصرى هو القانون الرومانى ، بالطبع ، وبوسعه أن يأتى بالزوجة المصرية الى روما •

ولو أن رومانيا غضب من فكرة أن يكون عضوا فى حكومة الثلاثة ليس سوى ملكا لبلد أجنبى ، فسوف يريه البعض احدى العملات الجديدة ، والتى لا يرد بها أى ذكر لملك مصرى • وكان هذا فحسب هو أكثر السبل براعة وأكثرها أمنا لجعل مصر ولاية رومانية دون أن تترك فرصة يتحقق فيها المصريون من ذلك ، ولكى يصبح الموقف واضحا تماما ، كان أنطونيوس أرسل ـ على أثر وصول أخبار زواجه الثانى ـ خطابا وديا الى زوجته الرومانية والى اخيها اوكتافيوس أيضا ، وكأن شيئا لم يحدث أصلا ، اذ لم يقو الجانب الكوميدى فى طبيعته على مقاومة مثل هذا الدافع ؛ وفضلا عن ذلك ، فانه كان مقتنعا ، بيقين ، بأنه يؤدى دورا معقولا ، فهو بين الرومان رومانى ؛ وعليه أن يجد طريقة ما لتبرير مسلكه • لكنه سرعان ما نسى روما مرة أخرى ، وكان يتفاخر ، مرددا عبارات سيلينيوس ، بأنه استطاع أن يلقح نساء كثيرات بقدر ما كانت تتطلبه قدرته على الاخصاب •

وقضى أسابيع كاملة صاحيا بغير سكر ، على أية حال ، والا فكيف كان بمقدوره أن ينجز هذا العمل العظيم ؟ ربما لم تكن عين بشر رأت من قبل عرضا كهذا الذى قدمه أنطونيوس لزوجته الثانية بعد حفل زواجهما مباشرة • كان هنالك ستون الفا من المشاة الرومان وعشرة آلاف من الفرسان الاسبان والغاليين وثلاثون

ألفا من الجنود والفرسان الذين أمده بهم ملوكه الاتباع • وذلك تماما هو حجم الجيش الذى بينه قيصر فى أوراق خططه • ولقـــد بين أنطونيوس لزوجته ، على الخرائط ، الطريق الذى كان ينوى قيصر أن يسلكه ، كان طريقا أطول ، وربما كان أيضا أكثر أمنا من الشمال ، حتى أن الرومان والشرقيين لم تكن قواتهما لتلتقى حتى دخولها آسيا الصغرى • وكان هناك قطار هائل للمهمـــات ومكان لتخزين المئونة والغلال • كانوا سيسيرون الى آراس ، ومن المحتمل أن يلاقوا هناك فرسان الفرس المشهورين ، أولئك الذى كان قائد الفرسان السابق شغوفا بمشاهدتهم عن كثب •

وبينما كان أنطونيوس ، ذات مساء ، يبين لها وللصبى الطـريق الذى حـــدده قيصر ويوازن بينــه وبين الطـريق الذى يفضله هو ، سوح انتباه كليو باترا بعيدا عما كان يقول • وبهدوء ارتدت فى الظل ، خلف ظهر أنطونيوس ، الى أن أصبحت قادرة على مراقبة قيصرون ، وكيف كان يسأل القائد بحرص • وهذا ماأدخل السرور على قلب أنطونيوس المحبوب ، وأومأ برأسه ، وأخبر الصبى بدقة بكل ما كان يريد معرفته ، ثم أنه ، عندما سأله الصبى عن الجبال وعن المكان الذى يمكن الحصول منه على علف الخيل لو كان الجو قاسيا وأصابهم برد الشتاء هنالك ، كان ينصت عندئذ بسرور ويضغط على كتف الصبى لكى ينحنى أمام خريطة خاصة ويشير له الى الطرقات والأنهـار التى سـوف يجلب عن طريقهـا العلف من السهول • ثم يضحك ، ويربت على صدر قيصرون وكأنه يريد أن يقول له : « ها هى تكمن فيك مكونات جندى ! » •

لم تكن كليوباترا تمل أبدا استرجاع هـــذه الصورة فى ركنها الظليل • هنا كان قيصرون يتحـــدث مع روح قيصر التى عاودها شبابها ، وأحست بأن هذه اللحظات بررت الافكار التى

كانت تدور بخلدها عندما أتت الى انطاكيا لكى تتزوج من عاشقها الطائش ٠

ورافقت أنطونيوس والجيش حتى بلغوا الفرات ٠ فى « زيجما » تبادلا تحية الوداع ٠ كان أنطونيوس ، فى حالة من التوتر العصبى ، مسرورا فى بداية الأمر ٠ لرجوعها ٠ ونال مزاجه المنتقم بغيته المعتادة ، وكانت زوجته حاملا مرة أخرى ، كان هذا المصارع فى حاجة الى مثل هذا النوع من الاعتماد أو الشهادة وترجع كليوباترا ، آنذاك ، مع ابنها ٠

وفى طريق عودتها الى الاسكندرية كان الموت يكمن فى انتظارها ٠ فقد عبرت لبنان الى دمشق ثم سارت بعد ذلك بالاردن قادمة الى أريحا ٠ وهناك يحييها الملك هيرود ، الذى كان غموضه البارع يأسر أنطونيوس ٠ وحينئذ بدأ يساومها حول جزء من اليهودية كان من المفروض أن يئول اليها ضمن أملاكها ٠ ودبر هيرود قتلها وهى فى الطريق الى أورشليم ٠ لم يكن ذلك صعبا ، فحتى فى تلك الايام كان الطريق الملتوى يمهد لمثل هذا الكمين ، وكان يظن أنه يخدم بهذا صديقه أنطونيوس ٠

مهما يكن الأمر ، فهو لم يجرؤ ، فى النهاية ، على معاكستها على الرغم من أنه أشاع ، فيما يرويه يوسفوس ، أن السيدة الحسناء قد حاولت غوايته واغراءه لكنه أبى وصدها عن سبيله ٠ وبهاتين الخدعتين الهزيلتين وبهدية شجيرات البلسم ظهر هيرود ظهوره العابر فى تاريخ كليوباترا ٠

ولو أنها هلكت حينئذ ، مع ابنها بالطبع ، لسلك تاريخ روما وليس تاريخ مصر وحدها ، سبيلا آخر ٠ ولربما كان الامبراطور الباخوسى تعاون مع قيصر الجاف لسنوات كثيرة ، ولربما ولدت له أوكتافيا ستة أطفال آخرين ٠

لكن كليوباترا وضعت فى قصرها طفلهـا الثالث • فمثـل هذه المرأة تستطيع أن تنجب الابناء فحسب وحتى اذا ما انجبت طفلة فانها تنجب معها طفلا فى نفس الوقت بحيث تكون الطفلة تكملة وزن لا أكثر • وكما كان الحال منذ سـنوات أربع ، أصبح الوالد ، مرة أخرى ، بعيدا جدا • لكنه الآن زوجها الشرعى ، على الاقل ، وبوسع الاقطار أن تهنئها بل من واجبها ذلك ، وسوف يقدم الكهنة صلوات الشكر ، كان قيصرون ـ وحده • مكتئبا غـير سعيد •

وتساءل قيصرون مفكرا : لم فعل هذا بها عندما كان ذاهبا الى القتال ؟ لم يكن قيصر قد أبحر حتى جئت الى هذا العالم • ولماذا يخشى أن يعلن نفسه ملكا ، ولماذا يحمل لقبا أجنبيا ؟ أمن الصعب تماما أن يكون ملكا لمصر ورومانيا فى الوقت نفسه ؟

- ٦ -

سارت حملة أنطونيوس الفارسية كمهزلة عجيبة • كان قيصر قد حلم بتجديد مجد الاسكندر ، وكان أنطونيوس يهزأ من المقدونى الفاتح • واستند قيصر الى حملة أعد لها ثلاث سنوات كاملة ، ونفد صبر أنطونيوس بعد بضعة أشهر • ورأى قيصر تاجا فى متنـاول يديه ، وأعرض عنه ، لأنه كان يقصد أولا وقبل كل شىء الى أن يكسبه فى الشرق الفارسى ، على حين أن أنطونيوس ، بين قبلاته وجرعات الخمر ، كان يقامر بتاج آخر • كان قيصر يسعى الى أن يلهب خيال الرجال بمشهد عظيم ، ومع ذلك فانه يعول فى الامر على كل حصان وكل سرج ، وكان أنطونيوس يعتبر ارثه لأوراق قليلة طلسما يضمن له عون الآلهة • وذلك لأنه كانت تضطرم

فی قلبه ــ المنتشی بلذة الخمر ــ نار عنيفة ، سرعان ما تخبو جذوتها بينما كان وجدان قيصر مضيئا بنار تنبعث من أعماق قلبه تزداد حرارتها اشتعالا لكن دون أن تأتی علی حقیقته أو تؤذيه ٠

ومع ذلك أتاحت الحملة الفارسية لانطونيوس أن يثبت رجولته للخلف من بعده . فأصحاب هذه الطبائع ، من أمثاله ، الذين يكونون عرضة للدسائس والأهواء ما ان يسيروا قدما حتى يصبحوا فی حالة من الفوضی ونفاد الصبر أمام أقل عائق يعترض سيرهم ، لكنهم يكشفون عن قوتهم فی النكبات والمصائب دون أن تكتسحهم عواقبها ٠ ولقد أظهر أنطونيوس بأسه وعمته فی النكسة مرتين . كانت آسيا الغربية كلها ، حتی حدود باكتريا ترتعد كلما اندفع الجيش الرومانی العظيم فی طريقة ناحية الشرق . ويستقبل الملك الأرمينی ، وهو جار وعدو للفرس وللميديين ، والذی كانت مساعدته جزءا أساسيا من خطط أنطونيوس ، يستقبل القائد الرومانی استقبالا رائعا ويقدم له النصيحة ، ويزوده بالكتائب ولم يكن لديه سبب ولا ميل حقيقی مطلقا لخيانته . ولم يكن أرتافاسدس هذا ملكا وجنديا فحسب بل كان أيضا فيلسوفا وشاعرا ، عرف بلوتارك بعضا من تراجيدياته ٠ وربما أحس هذا الملك بخيبة الأمل ازاء شخصية أنطونيوس ، فلم يتبين ، وهو الخبير بالرجال حقيقة ، فی أنطونيوس شخصية قائد محنك خلق للفتح . ولكون ارتافاسدس شاعرا فان دوافعه تعنينا الآن بعد هذه الفترة الطويلة التی انقضت علی وفاته .

لم يكن هذا الملك الأرمينی وحده هو الذی مهد لوقوع الكارثة فنحن نعلم أن صبر أنطونيوس نفد فی ميديا ، وفجأة أعلن أنه سيعود الی البحر قبل الشتاء ٠ وهنا ، فيما يرويه بلوتارك كان يتصرف دون تفكير واضح ، شأنه فی ذلك شأن من كان واقعا تحت ضغط قوة سحرية . ولكن الرغبة فی الاستمتاع بزوجته

لم تكن ، فيما يبدو ، هى العامل الحاسم فى ذلك ، اذ ليس من الصعب ارضاء أنطونيوس ، وفى كل مكان يذهب اليه فى حملته توجد النساء التى يحتاج لمثلهن . لـكن يبـــدو ، بالأحرى ، أن المساحة الهائلة الاتساع لهذه البلاد قد افزعتـــه وأن روح قيصر بغير أمره الصادر منه قد قهرت أنطونيوس وقضت عليه ، فرغب فى الهرب من الـــكآبة التى تملكت فجأة وبشـــكل مخيف هذا الديونيسوسى رجوعا الى بهجة أيامه الأكثر متعة واشد ترفا . وأصبح واضحا أنه لم يبلغ بعـد ما يمكنه من تحقيق خطة قيصر لغزو العالم ، وأنه لم يكن أكثر من ذراع قيصر الأيمن ، وأن عقل قيصره وتدبيره لا تغنى عنهما بضع أوراق بديلا ، كما لا يمكن الاستعاضة عن رغبته المتوثبة بطموح وارث . كان أنطونيوس يسير نحو كارثة .

وبدلا من تجهيز مراكز الجيش شتاء فى أرمينيا ، مستغلا زمن الربيع ، حيث يخرج الفرس عادة الى القتال ، قام أنطونيوس بهجوم على عاصمة ميديا دافعا بكتائبه فى مسيرة اضطرارية ، حتى انه كان مضطرا الى أن يترك خلفه ثلثمائة عربة ، لم تستطع التقدم بمعدات الحصار التى تحملها ، كما لم يكن ممكنا استبدالها أو اصلاحها ، وليس فى ميديا أخشاب صلبة وهكذا قطع العدو عليه قطار الحصار فدمره ، بينما قام هو بنفسه مستعينا بعدد قليل من الســلالم ، بحصـــار العاصمة دون جدوى . وفجـأة اختفى الحليف الأرمينى ، ولم يكن هنالك أية معـونة فى هذا البلد الأجنبى ، وأجبر الجيش على الارتداد ، وفى طريق انسحابه تمكن العدو المتدفق من المدينة أن يلحق به الهزيمة وعاقب أنطونيوس الكتائب المخطئة وأعطى جنودها الشعير بدلا من القمح ، وتلك أمارة العـار التى يخشاها الجنـدى الرومانى أشد خشية ، اذ كان يشعر بذلك أنه قد أحل منزلة الحيوان .

ويتمكن واحد من الجنود الرومان كان يعيش هنالك منذ
هزيمة الرومان الأخيرة تحت قيادة كراسيوس ، يتمكن من أن
يدل المنسحبين على نهر واقع على حدود أرمينيا ، وكان على
هذه الألوف جميعها ، تلك التى كان ينبغى عليها أن تنتزع رايات
النسور الرومانية القديمة ، هؤلاء الرجال الذين تخيلوا أنفسهم
من قبل يسيرون ــ بصوت هادر ــ فى شوارع روما فى موكب نصر
رومانى . كان عليهم الآن أن يعودوا أدراجهم الى أرض الوطن ،
خلف رجل رومانى اعتقد كثيرون من القادة ، ومن الرجال على
السواء أنه خائن . ولحقهم الشتاء وهم فى الجبال ، ومع الشتاء
جاءت المجاعة ، ومع المجاعة المرض .

وعند ذلك أظهر أنطونيوس عظمته . كان الرجال لأسباب
متعددة يحبون قائدهم ، وكما يكتب بلوتارك ، « فان أصل
أنطونيوس النبيل ، وفصاحته ، واخلاصه ، وتحرره ، وروعته،
والأنس الشائع فى حديثه ، تلك كانت هى السبب العام فيما وجده
من حب الجيش له ، وفى هذه المناسبة الخاصة ، بسبب ما كان
يبديه من مواساة الجرحى ، حتى أن المرضى والجرحى كانوا أكثر
استعدادا لخدمته من الأصحاء . وكانت هناك فى هذا البلد نباتات
سامة أصابت الرجال الجياع الذين أكلوها بالجنون ، فلقد أصبحوا
فجأة مجانين وبدءوا يدورون حولهم ويلقون بكل حجر
يصادفونه . ولو كانوا أعطوا الخمر كترياق يكتب لهم الشفاء ،
غير أنه لم يكن قد تبقى اذ ذاك خمر ، وماتوا . وكان هناك عيون
ومثيرو الشغب من بين الشعوب الحليفة ، والتى ، برغم أنها كانت
تميل الى السلام حتى ذلك الوقت ، تحققت فجأة عندما داهمها
سوء الحظ ، من علو منبتها وأصلها ، فكانوا يوجهون الاتهامات
الى الآخرين . وعندما شق المتمردون طريقهم أخيرا الى عربة

أنطونيوس ، وبدأ رجاله يسرقون أقداحه الذهبية وجد أنطونيوس نفسه مضطرا الى أن يجرد سيفه عليهم ٠

فى هذا الحضيض من البؤس ، وعندما بدأ حتى أنطونيوس يسىء الظن بدليله الرومانى الذى كان يعدهم دائما فى الجبال الوعرة بالوصول الى نهر أراكسيس حيث يكون بمقدورهم أن يجدوا لا الماء فحسب بل أمن بلد حليف أيضا — فى هذه الأيام من التمزق والانحلال وقد أصبح الجيش الباهر حشدا من اللصوص وقطاع الطرق ، ومات جميع شبابه الشجعان أو أصابهم المرض ، حمل أنطونيوس حامل درعه على القسم أمامه « بأن يطعنه ويقطع رقبته متى يصدر اليه أمره بذلك ، ذلك لأنه لايجب أن يسقط حيا بين أيدى العدو ، ولا أن يعرف نبأ وفاته » . وكان على أنطونيوس أن يكرر هذه العبارة الآمرة ، قبل موته فى وقت هزيمته الثانية .

وأخيرا فى اليوم السابع والعشرين من الانسحاب ، لاحظوا فى الهواء نسمات رطبة ، وعرفوا أنهم أصبحوا قريبين من الماء ٠ وكان آلاف الرجال قد أوشكوا على الموت عطشا ، فاندفعوا الى النهر . وشعر من بقى على قيد الحياة ، من الجيش العظيم الرائع ، بأن النجاة قد كتبت لهم حقا ، لكن كان نصفهم فى الغالب مفقودا ٠ ويروى أن أنطونيوس صاح فى أثناء انسحاب الجيش قائلا : « واه ، انها لعشرة آلاف . » وكانت هذه الأناباسيس Anabasis الثانية ، فى الحقيقة ، فى حاجة فحسب الى اكسينوفون جديد ليجعلها خالدة كالأولى ٠

- ٧ -

تلقت كليوباترا أنباء الهزيمة هذه بأحاسيس مختلطة متباينة. فهي اذا ما فكرت في صيتها وسمعتهـــا احست بالحزن والأسى ، واذا ما فكرت في حيث قيصر وسمعته ، وفي نصرهما المشترك في الاسكندرية شعرت بخيبة أملها في هــذا الروماني الثاني · لكنها اذا ما فكرت في مصيرها كملكة لمصر ، وكأم لأطفال أربعة — لم تجد سببا أو مبررا للتبرم والشكوى ، كان الشيء الوحيد الذي خشيته حقا هو أن يتحقق نصر عظيم في فارس ، من شأنه أن يصبح به انطونيوس ذلك الروماني الظافر مرة أخرى ، وكان سيحتفل بانتصاره في الكابيتول ، وحينئذ سيكتشف ، لفترة من الزمن ، ما في زوجته الرومانية من فضائل بيتية ، وفضلا عن ذلك ، فباعتباره أشد الرجال في روما استماعا كان سيأخذ في النظر فيما حوله ، في الصالونات والحانات ، عن صنف النساء اللاتي ســوف يرقن له ويقضي معهن يوما سارا · وماذا ستكون ملـكة مصر بالنســـبة لأنطونيوس المنتصر ؟ لقــد غزا جمالها واستمتع بذهبها ، نال ما تركه البطالمة في الخزانة العـــامة ، واستمتع بترف الشهوة ومتعة الغرام فيشبق . فلماذا اذن يواصل اضعاف مركزه بما ســـوف يكتنف حيــاته الاسكندرانية الرومانية المزدوجة من الغموض والابهام ؟

وكلما فكرت كليوباترا في الأمر تفكيرا واقعيــا — وكانت واقعيتها قد ازدادت بمرور السنين وولادة الأطفال — كلما تعلقت بالرجاء ، في سبيل مصلحتها ، في هزيمة أنطونيوس ، اذ سوف يصبح حينئذ مهيأ لمصر ! وسوف يكون الروماني الماهر ندا لمواجهة أية سخرية أو استهزاء ، ذلك لأن القادة الرومان قد برعوا في فن تحويل الهزائم الى انتصارات بألسنتهم . وعرفت كليوباترا عن

طريق عملائها ، ليس فقط تفصيلات الكارثة كلها ، بل عرفت أيضا كل ما سمعه العالم من خبرها ، والذى لم يكن يزيد على تقارير مشبوشة ، واذا ما عرف أحد رجال بلاطها عن ذلك الشىء الكثير ، واذا ما امتلك ناصية الحقيقة شيئا فشيئا ، فسوف تسكته بأن تعرض أمامه الخريطة الجديدة لمصر ، والتى اتسعت عندما اهدى أنطونيوس نفسه ولايات كاملة الى كليوباترا .

ولم يكن السادة الجدد ، مثلهم فى ذلك مثل المصريين القدماء، يولدون أبدا محاربين أبدا ، وعندما سطع الاسكندر الأكبر كنجم مذنب تاركا وراءه فقط نجما بعيـــدا يلمع فى سموات التاريخ ، فان خلفاءه من بعده ، ولفترة قرون ثلاثة تقريبا ، لم يلمعوا الا بضوء مستعار من ضوئه ، ولكم كان ضوءه يبهر أضواءهم ويفوقها تألقا وسطوعا . وكان بلاط الملكة منافسا لبلاط الفراعنة ثروة وترفا ، وحتى تعليما وكان يحتقر فى سرية وصمت ــ ذلك النسب المضطرب المشوش للمصريين ، ولم يقتبس الاسكندراينون من أسلافهم المحليين سوى الصفات غير الحربية ، الأمر الذى وجدوه مريحا لهم بقدر ما كان غير متمش مع آصلهم .

وعلى ذلك، فان ملكة ، كانت قادرة، فى نظرهم، على أن توسع من أملاك بلادها وتثريها دون حتى أن تجود السيف ، وليس بغير انها عرفت ، فى الحقيقة ، كيف تكون امرأة ، ان ملكة كهذه ينبغى ألا تقاوم أو تلقى معارضة ، وهى التى استطاعت ، فضلا عن ذلك أن تمارس نفوذها السحرى على رومانى ، فتتشل فيه ــ فى شخص عضو الحكومة الثلاثية هذا ــ القوة العظيمة القاهرة لروما ، تلك القوة الوحيدة المرهوبة الجانب فى الحقيقة . وبدا المستقبل مضمونا بفضل الغلام الخطير الذى يحمل الاسم الرمزى : قيصر بطليموس والذى يمكن أن يشغل مكانه بأخويه نصف الرومانيين ، وهكذا حق لكليوباترا أن تضمن سلطان أسرتها . وأى أمير ساخط أو

زعيم حزب ذلك الذى يمكنه أن يرجو زعزعة عرشـــها لمجرد أنه أنطونيوس قد هزم فى فيافى آسيا البعيـدة ؟ فالشخص الوحيـد الذى يستطيع أن يوجه اليه اللوم لم يكن هنا فى مصر ، بل فى روما ، ذلك هو عضو الحكومة الثلاثية الآخر .

لكن أوكتافيوس كانت لديه أسبابه الوجيهة بنفس الدرجة التى يرغب معها فى أن يقاسى أنطونيوس الهزيمة ، وبرغم أنه قدم التضحيات فى المعابد ليضمن انتصار الجيـوش الرومانية أثنـاء الحرب الفارسية الكبيرة ، فانه كان يرجو فى قرارة نفسه شيئا آخر . وقد كان من الممكن أن يصبح أنطونيوس المنتصر خطرا عليه هو أيضـا . وقام أوكتافيوس ، متذرعا بنزاع ما ، بهجوم قصير على ليبيديوس الضعيف واستولى على أملاكه فى افريقيا ، ولأنه عرف دائما كيف يجعل الآخرين يكسبون له المعارك ، فانه هزم ، بعد ذلك ، آخر أبناء بومبى وحمله على الفرار بفضل صديقه وقائد جيشـــه ، اجريبا ودامت الحرب الأهلية ستة أعوام ، وهى حرب أقل خطرا من الحرب أيام قيصر ؛ الا أنها مع ذلك جعلت جنوب ايطاليا بأكمله والجزر المحيطة غير آمنة دوما . أكان موضـعا للدهشة والعجب ، اذن ، أن ينحنى الجميع للمنتصر ، فى حين اتخذ مجلس السناتو قرارا بأنه يستطيع أن يضفى على نفسه كل ما يرغب فيه من ضروب التكريم والاجلال ؟ لقد وجد نفسه ، شابا فى السابعة والعشرين ، مسيطرا على ثلاث واربعين فرقه وآلاف الفرسان ، وستمائة سفينة ؛ وهو الذى لم يحرز بنفسه أبدا أى انتصار ، ولم يكن يملك قطرة دم من قيصر ولا شرارة من روحه بل كان يشبه جده المرابى من كل وجه ، ذلك بأنه كان قاسيا وبخيلا ومضاربا ماهرا .

وعرفت كليوباترا كل ما كان يجب عليها أن تعرفه من أمر عدوها ، ليس ما كان يفعله فحسب ، ولكن ما كان يدبر ويخطط

له كذلك ، كانت كراهيتها له تهمس فى أذنها بما يشعر به ، ولقد ضحكت عندما وصفوا لها الرجل المستضعف وقد ظهر مرتديا بدلة عسكرية لامعة ، يحيط به محاربون أشداء ، وهو الجبان بينهم . وضحكت عندما تبينت أنه يقلد رشوة قيصر للناس بأوامر العفو يمنحها لدافعى الضرائب المحكوم عليهم غيابيا ، وبتحريمه الملابس الارجوانية وضحكت عندما سمعت بأنه كان يخطط لبناء معبد كبير للاله أبوللو فوق تل البلاتين ، وانه انعم على الشاعر هوراس الذى كان يتغنى بمديحه . لكن عينيها لمعت ببريق كراهية متوحشة عندما علمت أن أوكتافيوس الذى كان قد أمر بأن توضع عربة انتصار أنطونيوس أمام التربويين فى الفوريوم ، وأقام تمثاله فى معبد الكونكورد ، كان قد أرسل رسله سرا منذ شهور قليلة الى ملك أرمينيا لكى يتثبت من مقصده فى التخلى عن أنطونيوس ، حليفه وصهره . كانت قادرة ، وهى التى نشأت بين قوم مجرمين ، وهى امرأة بلا ضمير ، على أن تقتل كل من يقف فى طريقها ، ولكنها كانت من الملك بحيث تأبى على نفسها مثل هذا الغدر .

لا ، كان مستحيلا أن تعقد حلفا مع هذا الرومانى . لكن بما أنه كان وحده الذى يقف فى روما ، حقيقة ، فيجب عليها أن تعدل من أساس حكومتها القائمة منذ خمسة عشر عاما : يجب أن تتخلى عن المبادىء الموروثة عن أبيها وتنهج سياسة جديدة ويجب أن تحاول ، بشتى الوسائل ، أن تبقى الرومانى الآخر فى حوزتها ، وأن تمسك زوجها بعيدا عن وطنه ، فلو أصبح ملكا فحسب ، ومعه قيصرون فسوف تكون روما فى الاسكندرية فى مواجهة روما !

وبدا لها ان اللحظة التى يجب أن تخضع انطونيوس فيها لارادتها خضوعا تاما قد حانت . وكان طلب القائد للمعونة ، عند

انسحابه المحزن . يتردد صداه فى أذنيها أنغاما أعذب من دقات طبول النصر . وها هو الآن على الساحل السورى مرة أخرى ، وهذه المرة فى القلعة المعروفة « بالشعر الأبيض » والتى لا تبعد عن « سيدوم » كثيرا . ويرسل لها رسولا فى اثر رسول ، يرجوها أن تحضر وتخف لنجدته . فى هذا الموعد الثالث لم تحمل سفنها سجاجيد ولا أطباقا ذهبية ولا فتيات مغنيات ولا فتية من ضاربى الصنج الموسيقية كانت السفن هذه المرة محملة بالأحذية والملابس والعباءات والأسلحة لآلاف الجنود المهلهلين ، وكانت تحمل فوق ذلك حقائب الذهب من خزانة البطالمة تلك الخزانة التى بدت ولا ينضب لها معين ، ولا توازن فى ذلك الا بالفيض السيال المتدفق من قوة أنطونيوس .

وفى الوقت ذاته ، كان أنطونيوس يجلس أياما وليالى الى المائدة، غارقا فى همومه وأحزانه، يلعن ويقسم أنه سوف يسحق الفرس والميديين أيضا ، فى المرة القادمة ، لكنه — فيما يروى بلوتارك — كان يترك المائدة حينا بعد آخر مندفعا صوب الشاطىء ، ليرى ما اذا كانت الأشرعة التى طال انتظارها بلهفة قد لاحت فى الأفق أم لا . وعندما جاءت كليوباترا أخيرا ، حينئذ ، كانت كل ضروب الشكر والعرفان موجهة من كتائبه اليها ، وكان القائد يتنقل من خيمة الى خيمة متغنيا بمدائح زوجته ، التى بادرت بالحضور لانقاذهم جميعا ، ومع ذلك فما أن استعاد أنطونيوس ذاته قليلا حتى نسى كل ما كان يعوزه ، واستبدت به رغبته فى الانتقام على الأقل من الملك الأرمينى الخائن .

لكن الرجل الذى وجد سبيله الى النساء دائما ، حتى الى ملكة مصر ، لاقى آنذاك وللمرة الأولى ، صدا جافا . لقد أراد أن يتوجه شرقا ، لكن هذه المرأة أصرت على ضرورة رجوعه الى الغرب . كان يريد أن يتبع الشهرة والمجد لا زوجته ، ولكنها

دعته للعودة الى وطنها . وعندما بدأ العاشقان يتشـــاحنان بدأ منزل الحب يهتز من تحت أقدامهما ، الا أنه لم يسقط ، بل بلغ نزاعهما ذروته فى استسلام جنسى وحشى وفى تأجج ناره من جديد من بين رماد الخصام العاطفى . فعل العدو أكثر مما كان محتاجا اليه ليضع أنطونيوس مرغما نهاية لهذه الأزمة بعمـل حاسم . وفى خضم الضوضاء والاضطراب الذى ساد هذا المعسكر السورى ، حيث لم يكن الجنود يعرفون بعد أى طريق سيسلـكون فى الغد ، وبينما انقسم ضباط الأركان أحزابا متنازعة ، وحيث كان النقد يوجه الى القائد يوميا بعنف أشد ، عند ذلك وصل نيجر الشريف الرومانى قادما من أثينا ، موفدا من أوكتافيا . ولأن لأوكتافيوس عيونه أيضا ، فانه عرف اللحظة المناسبة التى يرغم فيها أنطونيوس على الاختيار النهائى . ولهذه الغاية نفسها أرسل أخته بكتائب وأسلحة وملابس لكى يمكنها أن تقدم ذلك كله الى زوجها ، حينذاك وهو فى طريق عودته ، عونا يقدمه صديق الى صديقه .

وأضاف مواسيا فى خطاب أرسله اليه ، أنه قد بذل ما فى وسعه جاهدا ليحجب عن الناس الحقيقة التى انتهت اليها الحرب الفارسية .

أكان بوسع أحد أن يوجه ضربة مميتـــة الى رفيق الحظ أكثر من أن يشاطره الأحزان ؟ كان أوكتافيوس يعرف قبلا ماذا ستكون اجابة أنطونيوس ! ولم يكن يعنيه أن يرى أخته وقد أهانها هذا الجواب ، اذا ما تمكن فقط من أن يثير ، فى هذه الوقيعة ، كرامة روما وغضبها ضد أنطونيوس !

كان مصير الباخوسى فى الحقيقة يوشك ، آنذاك ، أن يجد له خاتمة كوميدية ، حينذاك ، وفى الوقت ذاته ، أبحرت زوجتاه

عبر البحر المتوسط نفسه ، ومن اتجاهين مختلفين ، الى زوجهما غير المخلص ، لاستمالته واغرائه ، أما صوب الشمال وأما صوب الغرب ، رجوعا الى آحد منازله والى احدى أسر أولاده : كل زوجة معها عدد من السفن المملوءة أحذية وملابس للجيش المنهزم، ومع احداهما المال ، فضلا عن ذلك ، ومع الأخرى الفان من الحراس المجهزين ! احداهما تقدم له عرشا ملكيا والأخرى تقدم له صداقة وطنه القوى . كانت سفينة أوكتافيا تنوء بأحمالهـــا من الأسلحة والملابس فحسب ، ووراء ذلك كله كان يوجد عالم ألفه زوجها : عالم روما ، والفوريوم والكابيتول ، وميدان الألعـــاب ومجلس السناتو ، وفيلات الريف الرطبة وحانات طريق أبيان غير المنسقة ، وزئير الانتصارات ، عالم الثرثرة الأليفة للأحزاب ، كل ذلك بلغة أمه وحديث شبابه ، وتحت ظلال معبد قيصر . أفلم تكن أوكتافيا تطمح فى الغلبة اذن ، وقد قوى من عزمهـــا ذلك النداء الجارف للشباب والوطن ؟ .

غير أنه كان لكليوباترا ، الزوجة الأخرى ميزة لا تعلو عليها ميزة لم تكن هى مالها ، ولا التـــاج الملكى بل كانت هذه الميزة هى حضورها . ولو كان لاوكتافيا شجاعة كليوباترا وحميتها لابحرت بنفسها الى معسكر آنطونيوس فى سوريا ، ولربما وقفت المرأتان ، على الأقل ، وجها لوجه ، ولربما كانت روايتهما قد اثريت بفصل آخر مثير من فصول أحداثها . ولكن المرأة الرومانية كانت سيدة عظيمة جدا ، وكانت فى ارتباطها بأسرتها من القوة والوثوق ما ترغب معه عن المبارزة . مثل هذه الأشياء يمكن أن تخاطر بهـا ملكة كانت أيضـــا مترجلة وبارعة فى فنـون الغرام ، وما دامت تعتبر ما فعلته صوابا لأنها فعلته فتسوغ بذلك لنفسها كل ما تقدم عليه ، الأمر الذى لم يكن ليتوفر لمواطنة شريفة تتوقف كرامتها على حكم مواطنيها وتقديرهم لها .

لكم كان اكتمال كليوباترا وتفوقها ؛ هذه الملكة الناضجة ذات الملامح الحادة ! ولئن كانت المباراة حينذاك على رهان كبير ، فكليوباترا هي التى تجيد فن كسبها . وكانت تأكل أى شيء بصعوبة كبيرة ، لكى يمكنها أن تبدو أقل امتلاء وقد اضناها الحزن . ويروى بلوتارك أنها : « علمت عينيها أن تعبر عن مفاجأة سارة ، عند اقترابه ، وعندما يتركها تتصنع الكآبة والفتور . وبما كانت تحاول البكاء أحيانا ، وحينئذ كما لو كانت ترغب فى أن تخفى دموعها عن أنطونيوس الرقيق ، تتظاهر بمسح هذه الدموع التى لا يراها أحد » ـ هكذا يراها بلوتارك برؤيته الشعرية المنقطعة النظير . وفى نفس الوقت أغدقت على ضباط أنطونيوس هدايا سخية من المال ، وربما ابتسامتها ، بما تعد به من هناء ونعيم ، وذلك لكى يخبروه أى هاتين المرأتين هى التى كانت تحبه حقا ، وأن هذه الملكة العظيمة لن تبقى على خسارته .

وهكذا أرسل أنطونيوس جوابه الى زوجته الرومانية فى أثينا : يمكنها أن ترسل اليه الكتائب فى الحال ، وبصرف النظر عن كل الظروف ، وذلك الى جانب سفنه التى كانت فى حوزة أخيها اذ ذاك . لكن لا حاجة بها الى المشقة وتحمل عناء مواصلة رحلتها. فهو على وشك السير لمحاربة الفرس مرة اخرى ، ولا يمكنه أن يعرضها لهذا الجو الضار بالصحة . وبوسعها أن تحمل تحياته الى أولادها والى أخيها ، وعندما يرجع بعد ذلك منتصرا على فارس فيمكنهم أن يترقبوا لقاءا سعيدا يضم شملهم !

وينحنى « نيجر » أمام القائد طويلا ، ثم ينحنى أمام الملكة الصامتة ، ويأخذ فى الرحيل ، لكن أنطونيوس أصدر أوامره بأن يقضى جيشه الشتاء هنا فى سوريا ، وفى الربيع يسيرون الى أرمينيا . ثم ودعهم جميعا وأبحر مع الملكة الى الاسكندرية .

- ٨ -

لم تعد الاسكندرية كما كانت عليه الحال من قبل . وأصبح « نادى المتفردين » فى ذمة الماضى ، وذهب معه كل طيش ذلك الشتاء الباخوسى . وكان المركز الفريد الذى ابتكره أنطونيوس هو أنه لم يكن ملكا ، ولكن زوجا للملكة ، وحاكما «أوتوقراطيا» مصريا وحاكما رومانيا أيضا ـ هذه الحالة الوسط ، التى كان يرجو أن يوازن بها بين مشاعره المتصارعة ، لم تتح له البهجة التى لم يكن يقوى على الحياة بدونها .

من المؤكد أن ولائم كافية كانت هنالك ، وكثيرا من الساعات والأسابيع المملوءة حياة وبهجة ، وطالما أن عبقرية الملكة فى تدبير المسرات واللذائذ معينا لا ينضب . والآن يوجد فى القصر ثلاثة أطفال صغار ، وكانت هى فى منتصف الطريق الى الثلاثين عاما ـ لا تزال أما شابة ، لكنه ، وقد كان يقترب من الخمسين ، قد ازداد ثقلا وسمنه الى حد ما ، ... وكانت هنالك أوقات اضطرا فيها الى التحقق من أنهما غير صالحين زوجين ، خاصة عندما تفسح زوبعة الحوادث مكانا لهدوء قاتل . حينئذ انسحب أنطونيوس ، مكتئبا ، الى الدائرة الضيقة للضباط الرومان ، كما لو كان يصعب عليه أن يحس بأهل الاسكندرية ، فهنا يمكن للمرء على الأقل أن يتكلم باللغة اللاتينية ! لكن ألم يكن محتوما أن ينتقل حديث هذه الفئة المتكاسلة عادة الى روما والى أوكتافيوس ؟ وهل كان بوسعهم أن ينسوا أصدقاءهم وأقاربهم ؟ ربما كان فى روما مال أقل ونساء أقل ، لكن لديهم على الأقل الحجارة الرومانية القديمة تحت أقدامهم ، تلك التى كانوا يفتقدونها فى فزع يشتد بمرور الزمن ، برغم أنهم كانوا يسيرون عليها سيرا أكثر مشقة من سيرهم هنا فى البلاتيا !

وفى نفس الوقت ، كانوا يشعرون بنظرات الانتقاد توجه اليهم من البلاط ، الذى كان يبدو لهم ، بالضرورة ، بموظفيه المخنثين وخصيانه غريبا دائما عليهم .

وعندما ظهر ، بلانكوس ، صديق أنطونيوس وسكرتيره ، على المسرح فى شخصية جلاوكوس كراقص مرتديا زى مهرج المسارح بشرائط زرقاء - خضراء ومعلقا حشائش بحرية وتتدلى من شعره أعشاب جافة ويجر وراءه ذيل سمكة - كان نبلاء الاسكندرية يلكز الواحد منهم الآخر بالكوع خفية برفق وهم يعجبون كيف ينزل نبيل رومانى بقدر نفسه ويشينها الى هذا الحد ؟ أما بالنسبة للرومان أنفسهم ، فانهم عجبوا كيف ضايق أنطونيوس وأثقل عليه بهذا العرض . لكن أنطونيوس ضحك من مهرجه هذا . كان يعرف أنه يسليه ، لكنه لم يكن قد كسب أبدا « سيستريا » واحدا ، فلئن سرقه الناس فانهم يسرقون منه ما سرقه من قبل أو تلقاه هدية ، وليس بوسعه أن يشكو من ذلك . وعوضا عن ذلك ، فعلت الملكة اليقظة كل ما فى وسعها ، فعينت سيناتورا رومانيا مديرا للمناسج الملكية ، وضابطا رومانيا مديرا للسيرك . وبالنسبة لزوجها فانها أوجدت له مهام كثيرة ذات طابع حربى . كانت تسأله على وجه الخصوص . عن خطته لغزو أرمينيا . ينبغى أن تكون هذه الحملة قصيرة ويسيرة ، ونصرا ينبغى أن يحوله عن الخطط الفارسية ثم أنها دبرت وسيلة لخداع الملك الخائن : دعته عن طريق رسلها ، للانضمام الى أنطونيوس فى السنة القادمة فى حملة أخرى ضد الفرس . وكأن شأن كليوباترا فى ذلك شأن مخرج مسرحى عظيم ، قادر على أن يستفيد من كل ما حوله . وفى النهاية ، ما خطب التوأمين ؟ لكى تجعل الأرمينى يشعر بالأمان اقترحت خطبة اسكندر الصغير لابنته .

فى وسط ضروب النشاط هذه حافظ قيصرون على مكانته الخطيرة المحفوظة له . لم يكن متأكدا من حبه لأنطونيوس ، وكان يلاحظه عن قرب ، لأنه أراد أن يتأكد من أنه كان يرضى كليوباترا. وطالما أن أنطونيوس قد أباد قتلة قيصر ، فمن الواجب احترامه لذلك ، لكن قيصرون طالما أنه رومانى فيجب أن يكون أكثر صرامة وقياسا على ما درسه وتمثله بشغف واهتمام ليساعده فى الكشف عن شخصية الرومان ، كان قد كون عنهم صورة عظيمة جدا الى حد انه لم يكن من الممكن أن يطابقها ويحيا وفاقا لها سوى قيصر نفسه . ولئن كان الرومان يعينون من قبل الآلهة شركاء فى حكم مصر ، فمن الضرورى اذن أن يكونوا أعظم من البطالمة . حقا ، بدأ يدرك أن حتى من بين أسلافه وجد أناس أشرار وجبناء . لكن أمه — ألم تكن ملكة عظيمة ؟ والا فكيف أمكنها أن تخضع قيصر الكهل لولا ذلك ؟ وقيصر — الم يكن أعظم الرجال منذ وفاة الاسكندر ؟ والا فكيف كان قد اختار أمه ؟ هنا كان قيصرون يقف على أرض صلبة ، وبما أن الفلسفة الرواقية لم تكن قد أثرت فيه مع ذلك ، وبما أن عواطفه الشابة أيقظتها صفات كالفضيلة والشجاعة والقوة والشهامة ، فان الغلام بأعوامه الاثنى عشر قد تملكه احساس ناضج بعظمة أسلافه — أولئك الذين كان يدين لهم بأعظم المنجزات . وفى هذا الاطار الذهنى ، كيف كان بمقدور زوج أمه أن يرضيه ؟ فلو أنه ظل رومانيا فى صميم فؤاده وكفى ! لو أنه أعلن الحرب على أمه ، أو حتى كان قد هجرها ! غير أن هذا الرجل — فيما بدا لقيصرون — قد انجذب الى مصر طمعا فى ذهب البطالمة فحسب، وربما طمعا فى جمال أمه أيضا . لا شك فى أنه كان بالامكان معرفة أمور كثيرة منه ، لكنه كان اذا ما سئل عن قيصر أعطى اجابة مراوغة ، ولا يفهم ابن قيصر مع ذلك السبب الذى يدفع

بأنطونيوس الى المراوغة . وحسب فكرة الفلام السامية المقدسة عن البطولة ، لم يجد فى أنطونيوس شيئا من صفات البطل .

بيد انه الآن ، فى السنة الجديدة هذه ، يعجب بأنطونيوس حقا ، وهو يراه يتسلح لحرب أخرى . وكان القائد سعيدا ، فقد نجحت خدعة خطبة الأطفال ، فى الواقع ، فى اغـــراء الملك على الخروج برغم نواياه السيئة . لكنه عندما قـدم راكبـا ليبرم الحلف قبض عليه فى الحال وقيد فى السلاسل . وكانت قيوده من فضة ، لكن التاريخ لا يبين لنا ما اذا كانت الفضة دليل احترام الملك أو الشاعر . وكانت المعركة مع أولئك الذين حـاولوا أن يطلقوا سراحه قصيرة وظافرة . وأصبحت الحملة فى مجموعها غارة للنهب والسلب ، وحطمت الفرق تمثالا ذهبيا لالاهة البلد تقاسموه فيما بينهم ، وهذا النهب الذى أعقب الحملة ، كان بدعة بالنسبة لعادات الرومان ، ومهما يكن الأمر فقد كان أنطونيوس ممتنا أن يرى جنوده يدفعون رواتبهم لأنفسهم .

وفوق ذلك ، فان انطونيوس ، استطاع بأنبـاء النصر أن الذى كان ، فى الواقع ، الغرض الأساسى من الحملة . وبعد ذلك يسترد سمعته فى روما فيغيظ بذلك أوكتاثيوس ويضايقه ، الأمر أشاع أنه على وشك أن يغزو فارس . وكان ملك ميديا ، الذى كانت بينه وبين الفرس خصومة قائمة ، متلهفا على مساعدته ، وطالما أصبح الاسكندر الصغير حرا مرة أخـرى بعـــد حادثـة الأرمينى ، فانه وعد بعد شهور قليلة من خطبته الأولى ، بابنـة الملك الميدى .

وانتهت المغامرة كلها فى شهور قليلة من الصيف . ورأت كليوباترا رغبتها وقد تحققت : فقـــد كسب أنطونيوس نصرا سهلا . كان هذا الرجل ، كما أدركت الملكة ، يحتاج الى كمية

كبيرة من الخمر تسكره . لكنه فى حاجة فحسب الى نصر قليل ، ذلك لأنه كان معتادا على الخمر لا على النصر .

والآن يثبت انطونيوس العائد اليها انه قائد عظيم ، ويشعر بنفسه ندا لقيصر ، وأنه أثير الحظ واهل لكل ما حبته به الآلهة وقدمته له زوجته .

كان انطونيوس يعرف ان كليوباترا قوية وجميلة ، لكنه لم يدرك على الحقيقة تماما مدى عبقريتها . فقد كانت تتدبر الأمر منذ سنوات . ومن وقت زواجها ومعاهدة انطاكيا وهى تقود هذا الرجل الساذج الطائش تدريجيا بعيدا عن أصله الرومانى . وقد حانت اللحظة ، آنذاك ، لتضع حدا لهذه المسألة . يجب أن يصبح قيصرون ملكا على مصر .

ـ ٩ ـ

كانت أوكتافيا فى روما ، بعيدا عبر البحر ، ترعى أطفالها الذين كان من بينهم أولاد أربعة لأنطونيوس . ولقد بعدت عن مراتب النساء ، الذين كانوا يؤدون فى ذلك الوقت دورا فى تاريخ العالم وذلك بعزمها على ألا تجعل بغيتها فى الشهرة أو اللذة أو الذهب ولكن على أن ترعى هذه المخلوقات البريئة التى كان من الممكن أن يلحقهم الاهمال لولا رعايتها . وفعلت اوكتافيا هذا دون تظاهر أخلاقى . وفى الحقيقة ، يبدو كما لو أن النغمة الزائفة التى رددها أخوها ، والأكاذيب الاجتماعية تسمع فى كل جانب ، كانت تحثها على أن تحيا حياة هادئة منزوية لا تليق بأخت أقوى رجل فى روما . ولم يحدث فى هذا الوقت ولا فى سنوات لاحقة أن تناقلت ثرثرة الناس فى روما اسمها يوما من الأيام كما أنه لا يبدو

فى حياتها رجال : برغم أنها لم تكن أكبر سنا من كليوباترا ، كما كان ينظر اليها على الدوام على أنها جميلة . وربما كان ما يلاحظ فى عائلتها من فتور المنبت امرا لازما لما تحياه من حياة غير حسية وفاترة ، مع أن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لأخيها . ولربما كانت متدينة أو على قدر من الفلسفة بحيث تقبلت فى سخرية الدور المنوط بها ، او أنها اعتبرته قدرها . ومهما يكن الأمر ، فان كبرياءها النبيل الجاد كان يبدو للمحيطين بها مسألة قديمة ، وكان هذا ما ترغب فيه تماما . ومع ذلك فقد سطع على رأس أخت اوكتافيوس ضوء باهر . كان أوكتافيوس قد شرع حينئذ يتحول الى الامبراطور أوغسطس ، فاستغل لذلك فضيلتها ، مادحا اياها باعتبارها صفة من صفات عائلته . ومن ثم فانه أصبح مسرورا عندما أرسل أنطونيوس زوجته الرومانية الى وطنها • وفى صرامة منع أخته ، التى أهينت كرامتها ، من أن تظل فى منزل رجل كهذا . ورفضت أوكتافيا أن تذعن لذلك حتى أن اوكتافيوس تلقى هذا الرفض فى نفس الوقت الذى تلقى فيه منافسه ذلك غالبا . وربما سيذهب الناس الى القول بأن الحرب الأهلية قد قامت من أجلها : وأنها كانت قضية أوكتافيا مرة أخرى . ولقد ظلت فى منزل أنطونيوس واستمرت ترعى أطفاله وتستقبل أصدقاءه . واذا ما كان يريد أن يوصى خيرا بأحد أو أن يساعد أحدا فى روما فسرعان ما يرسل خطابا وديا الى زوجته الرومانية ، دون أن يدرك مطلقا أن الآخرين عليهم أن يدفعوا نفقات كرمه وسخائه . وامتدح الجميع صبرها وأدانوا زوجها غير الوفى .

لكن الرأى العام الرومانى كان متقلبا تقلب انطونيوس نفسه . وما زال ، منذ مئتى عام مضت ، يجل النصر باعتباره هبة من الآلهة . كما أن ضياء الشهرة ، التى عكسها انطونيوس ،

بعد رجوعه من الاسكندرية على موائد روما بمرآة مدائحه ، قد أظهر أنطونيوس فى صورة باهرة مرة أخرى ، طالما كانت شخصيته أكثر قربا وقبولا عند الناس من شـــخصية أوكتافيوس التى هى بمنأى عنهم دائما ، وكانوا مغتبطين أن أتيح لهم حبه مرة أخرى.

أما اوكتافيوس ، الذى جعله عداؤه للشـــعب لا يزال أكثر حذرا وترقبا لكل هوى شعبى ، فيسرع الى تقديم برنامج مباريات كان قد توقف منذ عام . كما أنشأ نوعا من اليانصيب فىالسيرك، وكان يضـــع مائدة هائلة تغطيها الهدايا ، التى تصبح من نصيب أولئك الذين أسرعوا فى اختطافها ، حتى أن ذلك كله كان ينتهى بقتال يدا بيد ، الأمر الذى زاد من شعبية الواهب المنعم . وفى الوقت نفســه جند كتائب جديدة ، لكى يزيد من قوة القـــوات المقاتلة فى ايطاليا لتصبح ثلاثين فرقة . وتحدث فى السناتو عن الاتســاع الخطير لمصر باضافة ولايات وجزر جديدة اليها ، ولكن بدون أن يهاجم أنطونيوس مباشرة .

ضحك أنطونيوس عندما سمع بهذا . وبعث من الاسكندرية برده الى مجلس السناتو الرومانى بعد أسابيع قلائل ــ اذ كانت الأنباء تصل سريعا فى الصيف عبر البحر ــ قائلا انه قد أعطى فحسب ما كان يخص الآخرين ، وان الملوك الصغار الأتباع كانوا معتادين دائما على مثل هذا النوع من المبادلة . ومن ناحيـــة أخرى فان اوكتافيوس ــ وقد لجأ الى الهجوم هنـــا ــ عزل ليبيديوس واحتفظ لنفسه بأملاكه ، كما استولى أيضـــا على سيسليا وسردينيا ، التى كان قد أخذهما من آخر أبناء بومبى . وفضلا عن ذلك فانه قسم نصف ايطاليا بين قواد جيشه ، ولم يكن قد أرجع مطلقا السفن التى اقترضها وبعد أن قام أتبــاع أنطونيوس بهذا الهجوم الكاسح ، ظهـــر اوكتافيوس الغض فى الدورة التالية ، ليوضح فى نبرانه الحادة ، أنه سوف يتنازل فى

الحال عن نصف الولايات لو تنازل أنطونيوس أيضا عن أرمينيا ومصر فقط . وكان التصفيق فى القاعة مدويا لكن أحدا لم يكن يعرف أن اوكتافيوس وأصدقاءه قد أخفوا الخناجر تحت أرديتهم، ليكونوا على استعداد لأى طارىء . وقد أرادوا ، فى مواجهـــة عاصفة قادمة ، أن يكونوا أكثر حكمة من قيصر الأعزل .

وضحك أنطونيوس من هذه الأنباء أيضا ، كما أراد أن يرسل اجابة اكثر وقاحة ، لكن زوجته منعته هنا . وهل مصر ولاية رومانية ؟ لم تكن كلمات أوكتافيوس تعنى شيئا آخر. واستجمعت كليوباترا كل شجاعتها ، اذ يجب أن تظهر للعالم أجمع الآن وريث قيصر المكروه ، ذلك الذى كان سـيدا فى مصر . اعتمدت فى ذلك على أنطونيوس ، وبينت له نقض العهد الذى يحاول العـدو البارد الرأس أن يضع له قناعا يخفيه ، وتكلمت عن أطفالها وكيف يجب أن يكون مستقبلهم مأمونا ، وأثبتت له ، بالرســائل ، ان معارضيه قد ذهبوا الى مجلس السناتو يحملون أسلحتهم ، وجعلوه يدرك أنه فى حالة تصور امكان رجوعه الى روما ، فان الخناجر كانت فى انتظاره هو أيضا ، وأحصت له ما جمعه أوكتافيوس من قوة عسكرية احتياطية ، تلك التى لن يشركه فيها تطوعا مرة أخرى، وراجعت معه كل فقرات الأنباء الواردة الكاذبة والصحيحة ، التى كانت تمثل شعبية منافسة ، وامتدحت الحليف الميدى الجديد باعتباره مبعث أمن وطمأنينة ، ومنطلقا الى حرب قادمة ضـــد فارس ، وأكدت أهمية التجـــارة المتزايدة لمصر على الدوام ، وأهمية خزانة أموالها التى لا تنفـد ، حقـا ، أثنت هذه المرة على الاسكندر ، لكى ترسل الرومان بعيدا فى خطة زائفة . ولقـــد جمعت كل البيانات التى كشفت عنها الخرائط ، وكل ما يمكن التعبير عنه بالرموز ، جمعت ذلك كله بعاطفة حاولت اخفاءها ، على الرغم من الاغراء الذى كان يفصح عند صوتها الرخيم . وبذل

الضباط كل ما فى وسعهم ، وقد شعروا بالتحـــدى ، وما هى الا أيام قلائل حتى دبر الاعلان الحاســـم ، الذى تضمن اقامة العرض العسكرى ، من أجل الشعب ومن أجل ما تبغيه من دعاية فائقة ، على الخصوص ، من هذا الاحتفال الذى لم يســبق له مثيل .

كان أنطونيوس لا يزال يعــالج استخدامه لفرملة عربتها فى موكب النصر ؛ وذلك لخوفه الكامن من أن تسقط فى الهــاوية سريعا . وكان لا يزال يؤمن بدوره المزدوج فى أن يكون رومانيا واسكندرانيا فى نفس الوقت ، ولم يكن راغبا فى أن يلقب بملك. فان تشاؤما عميقا ، يرجع الى قرون مضــت ، جعل الجمهــورى يخشى التاج ، كما ان ذكريات تنحية قيصر للتاج بيده ، ذلك التاج الذى كان أنطونيوس قد قدمه اليه ، كانت تحاول أن تجــد فى ذهنه بيانا شافيا .

كانت كليوباترا تفكر فى ابنها فقط . وأن تراه متوجا بينما تظل هى تحيــا وتحــكم مصر ، كان هــذا هو ما تحــاول بلوغه بشغف وشوق ، فحينئذ سوف يكون بامكانها أن تواصــل حلم شبابها : كان قيصرون هو قيصر . لكن خطة كهذه كانت جديدة على الاسكندرية تماما حتى انها استلزمت الصوت الأقوى لرجل غريب ، وتأليف تاريخ عالمى ، وبما أن قيصرون كان نصف رومانى، فلم يكن بوسعه أن يتوج ، من الناحيــة الرمزية ، الا فى حضرة رومانى . وفى هذه الخطط التى كانت تأخذ فى اعتبارها مشاعر الشعب وحكم التاريخ على السواء ، فاقت مهارة كليوباترا وحسن تدبيرها مهارة أى حاكم عاش زمانها . ولقد كشفت عن مقدرتها فى أن تخرج ، بكل تألق ومرونة فطنتها ، دهاء التقاليد الشرقية بعبقرية غريزية تكون من مواهب النساء فحسب .

- ١٠ -

جاء موكب النصر ، فى أول الأمر ، ويا له من اغراء لأهـل الاسكندرية ؟ ومنذ أن كانت روما هى روما لم يجـرؤ رومانى واحد على أن يحتفل بانتصاره فى مكان آخر غير روما . فكان يحلم دائما بالكابيتول ، الذى يمكن للمرء أن يندفع منه الى الفوريوم ، لكى يظهر أمام السناتو وأمام الشعب الرومـــانى ، فذلك هو الجزاء لكل المخـاطر ، ولم يكن هنالك ، لمن كان رومانيا فى صميم فؤاده ، يوم فى الحياة أعظم من هذا اليوم .

واليـــوم ، وللمرة الأولى اندفع رومانى فى عربة النصر الرومانية ، عبر الطرقات الواسعة للمدينة الامبراطورية الجديدة ، فيسلب روما فخار القرون ومجد الأجيال ، لأن هؤلاء الذين كانوا يصيحون مهللين كانوا ينطقون بكلمات اغريقية أو بكلمات وايماءات لا تزال أكثر غرابة . ولم يحـــدث مطلقا أن أقامت المدينة مثـل ما أقيم حينئذ بأسلوب وتوجيه الزوجة وابتهاج الزوج فى حفلة تنكرية .

ومع شمس الصباح جاء المركب من القصر ، عبر تل لوكياس الى الفوريوم ، مارا بالحدائق ، فى الشارع الرئيسى ، وأمام مقبرة الاسكندر ومقابر البطالمة الى الجمنزيوم والميوزيون (المتحف) . وتبع الفرق الرومانية التى قادت الموكب ، الملك الأرمينى وزوجته وأطفاله ، لكن قيودهم كانت هذه المرة من الذهب . وبعد ذلك جاءت عربة أنطونيـوس ، تجرها خيـول بيضـــاء . ثم تلى ذلك السجناء الأرمينيون ثم الأمراء الأتباع يلبسون التيجان والأكاليل، وجاءت بعد ذلك الكتائب المصرية حاملة سيوفا فارسية مقوسة، ثم جاءت أخيرا كتائب رومانية أكثر .

وانتظرت كليوباترا وهى جالسة على عرشـــها ، فى مكان فسيح ، قدوم المنتصر الظافر . واذ ذاك ترجل وقاد السجناء اليها . لكن الملك الأرمنى تذكر حينئذ أنه شـــاعر ، ورفض أن يركع أمام الملكة . وخاطبها باسمها فقط ، وعندما تناول الزوج والزوجة النظرات أدركا ضرورة مكافأته هو وزوجته ، بدلا من الحكم عليه بالموت غدا . وهذا ما فعلاه . لكن ، كان النـــاس يجلسون حينئذ الى مائدة لا عهد لهم برؤية مثلها من قبل ، وفى اليـــوم التالى لم يتم التتويج ، لأن نصـــف الاسكندرانيين كانوا يغطون فى النوم بفعل الخمر . ثم احتفل بالتتويج ، بعد بضعة أيام ، فى ميدان كبير بطرف المدنية . وأقيمت هناك عروش ستة: عرشان كبيران من الذهب وأربعة عروش أصغر من الفضة . كان الوقت عصرا . وافتتح الموكب قطار طويل من العـــربات : وعليها رجال يرتدون زى « سايلينوس » ، أولئك الذين كانوا يصـــبون الخمر على الحشـــد المحيط من قواريرهم وأباريقهم ، ثم جاء صف من الأفيال أنصاف مقيدين . وكان الاســكندرانيون يألفون الخمر والأفيال ألفة كافية ، وعندما اتخذ أشخاص الرواية أمكنتهم ، أخيرا ، وقف أنطونيوس أمامهم ممثلا دوره المفضل — دور ديونيسوس ، فى عباءة أرجوانية مطرزة بالذهب ، ويتدلى أكليل زهر من جدائل شعره الأسمر ، وفي يده مايشبه الصولجان وكانت تجلس بجانبه ايزيس ، افروديت المصرية — وعلى رأسها تاج أبيها المزدوج ، والحية الذهبية منتصبة على جبينها مرصعة بالفضة والذهب ، وهى ساكنة ، كصور الآلهة على جدران المعابد المصرية التى تبين لنا هيئة ملكات الفراعنة منـــذ خمسة عشر قرنا مضت ، وترتدى زخارف ايزيس المتلألئة . كانت كليوباترا جالسة بمفردها ، لأنها فى ذلك اليوم الهة .

وفى مواجهتها ، وقف قيصرون أمام أول العروش الفضية هو الآن شاب يافع فى الثالثة عشرة مرتديا عباءة مقدونية وتاجا، الزى الذى كان يرتديه خلفاء الاسكندر على مدى قرون ثلاثة ، والى جانبه يتدلى السيف الرومانى القصير . وأعد للأطفال البالغين من العمر ست سنوات ، مكانا أعلى لكى يمكن أن يراهم الشعب : ظهر الاسكندر فى حلة أرمينية ، وعلى راسه الصغير تاج ومرتديا معطفا بأكمام ، وسروالا من الطراز الفارسى ، بينما كانت كليوباترا الصغيرة ترتدى رداء حريريا أبيض وعلى رأسها تاج ليبى بربرى ، بينما كان بطليموس البالغ عامين يلبس اللباس المقدونى بأحذية عالية ، ومعطف اغريقى وقبعة كتانية ، لكنه كان يلبس أيضا تاجا . وكل واحد من هؤلاء الأطفال محاط بحارس يرتدى الزى المقدونى .

وبعد أن انتهى النفخ فى الأبواق رفع ديونيسوس صوته الجهورى عاليا . فتكلم عن انتصاراته ، ثم قرأ قائمة بالبلاد التى أعطاها للملكة منذ عامين فى أنطاكيا ، لم يتكلم عن روما أبدا، ولكنه تكلم عن نفسه فقط ، وبدا كما لو كان يحب أن يفيض فى ذكر منجزاته . وحينئذ أكد أدعاءه بظهور عصر جديد ، عصر سوف يرون صورته على كل العملات « عصر تحكمه كليوباترا ، ملكة مصر وقبرص وسوريا . وأن قيصر بطليموس ، هذا الذى يقف الآن ، انما ينصب « ملكا للملوك » باعتباره شريكا لأمه فى حكم مصر » . ونصب الصبى الاسكندر ملكا على أرمينيا وميديا وأخته التوأم ملكة على ليديا ، وبطليموس الأصغر ملكا على فينيقيا وكيليكية .

وبين صخب الشعب وقرع الطبول ، ترك الأطفال الثلاثة الصغار دائرة حراسهم وجروا ، لتحية والديهم وهم يحاولون

التيجان الجديدة على أيديهم . ثم غابت الشمس كما لو كان غيابها حينئذ ضمن برنامج الاحتفال .

لم تتحرك كليوباترا . كانت تقوم بدور الالهة لرعاياها المصريين ، على نحو ما كانت تفعل كل عام ، فى عيدا سيرابيس . وسمعت الغوغاء يجدفون ويصيحون ، وفكرت فيما بينها وبين نفسها قائلة ، ليس به حاجة الى التنكر كى يؤدى دور ديونيزوس ولم تكن رأت الأطفال وهم يحاولون الوصول اليها ، متعثرين قليلا فى ارتباك وحيرة . ولم تكن رأت الكهنة والضباط ومئات الوجوه المألوفة لها منذ الطفولة ، واحتفال البلاط بأجمعه . فقط كانت ترى قيصرون .

ولقد وقف أمامها ، ساكنا كما كانت تقف ، ناظرا اليها بعينيه السوداوين من تحت حاجبيه المقطبين ، ناظرا اليها من خلال الجموع المكتظة . كان وحده الذى يشعر بأنه متوج حقيقة ، وعندما أعلن « ملكا للملوك » ، وهتفت الألوف أمامه فى بهجة وحبور ، كان هو الشخص الوحيد الذى شعر بأن شيئا ثقيلا قد استقر على رأسه ، شيئا لم يكن حلية ولا قناعا ، ولا لعبة من اللعب . ولقد ناقش أمه طويلا حول السيف الرومانى القصير ، وكانت قد أمرت فى أول الأمر أن يتقلد سلاحا مقدونيا . لقد عرف أنه سوف يكون الآن ودائما بطليموس ، وارث الاسكندر . لكن قيصر كان أقرب اليه ، كان قيصر أعظم من البطالمة ، وكان قيصر والده ، ولقد شعر كما لو لم يكن فى حياة أمه عاشق آخر سواه . لسوف يتقلد سيفا رومانيا ، ويوما ما سوف يجرد هذا السيف دفاعا عن مملكة أمه .

لكن المرء يقرأ ما كان يفكر فيه خلف حاجبيه المقطبين . فمن خلال جموع الشاهدين المكتظة كان يسطع على وجهه بريق

العينين السمراويين الثاقبتين ، من وجه ايزيس المصرية ، فمن أجله تعد التاج ، وتقيم مهرجان اليوم ، نعم ، لقد حققت ما كانت تطمح اليه . وها هو حلم شبابها يتحقق فى نهاية المطاف . فهنالك يقف قيصر وعلى رأسه التاج ! لقد بلغت مخاطرة حياتها العظيمة الى ذروتها . فالجرأة التى رسمت بها طريقها ، والثقة العارمة بمصيرها ، واعتقادها فى السلطان والجمال ، كل ذلك كانت قد ادخرته وضاعفت منه طوال العشرين عاما الأخيرة ، فى خلال رحلتها الخطرة ، بالقتال والدهاء ، بالطيش والهزيمة : كل ذلك كان ماثلا هنا أمامها فى شخص هذا الغلام الذى يحملق اليها بعيون قيصر السوداء ، بينما بدأ تاج الاسكندر الذهبى يكتسب لونا أحمر قليلا فى الضوء الواهن .

وفجأة صدرت عن الالهة حركة كما لو أن شيئا أفزعها فخلف قيصرون بدا انها قد أبصرت صورة أوكتافيوس يحملق فيها بعينيه الباردتين .

الفصل الخامس

ثناتوس

هذا الذى يولد ليحكم ، هذا الذى مهد السبيل لأن تستقر مصائر الألوف بين يديه ، انما يخطو من العرش كما يخطو الى القبر •

جوته

- ١ -

عندما تأخذ أقدار الشجاع فى الانحراف ، تبدو وقد اكتسبت جمالا أكثر روعة •

وبينما ينهار الرجل الضعيف أو يقع فى شرك تحطيم الذات، يقف الرجل القوى ويسلح نفسه ، لكى يواجه فى النهاية ، وبعد ملاقاة أعداء كثيرين ، القدر ذاته • وقد وجد قلبه المحارب ، بعد حرارة الأيام التى لا تحصى ، متنفسا وراحة فى ليالى خالية من الأحلام ، رطبة ، وها هو ذا فى كل صباح يطالعه يعمل من جديد

تتلألأ أفكاره في مائة ناحية ، وتوجه طاقته الى مائة مسألة ، مجاهدة دوما ، ومتغلبة دوما على مصاعب جديدة • وطالما هو يصارع ذواتا محسوسة ، ويقاتل دائما فى أماكن محصورة ، ويشعر أو يشم اقتراب عدو فى هيئة انسانية أو مادية ، فانه يناضل متقدما الى الأمام كل يوم رويدا رويدا ، واذا ما اضطر الى التراجع فان ذلك من أجل جولة جديدة قادمة فحسب •

لكن هنالك أوقاتا يسمع فيها ، خلافا لما يشاع عادة عن قوى معادية ، صوت ليس له أصل دنيوى • وتبدأ السموات الفسيحة فتنقلب ظلاما ؛ وينذر رعد خافت باقتراب قوى غريبة ؛ ووسط أشكال وأصوات العدو المألوف يلحظ أطيافا محتشدة وسحابة مظلمة كما لو كانت قادمة من جبال بعيدة • ثم يشمر الرجل الشجاع عن ساعده ، مصمما على خوض المعركة الفاصلة • فى أول الأمر يكون وجلا من عدو لا يستطيع أن يمسك به ، ولو كان عليه أن يفكر تفكيرا منطقيا لأسلم نفسه للضياع قبل هذا الاقدام • ولن تكسبه أية حيلة لحظة مهادنة يلتقط فيها أنفاسه • لكنه يستجمع قوته ويسعى الى أن يشد من أزره ليتفادى خطر قوة علوية فائقة ، فى أمل مستور فربما يكون قادرا حتى الآن على أن يتفادى مصيره المحتوم •

مثل هذا المشهد من مشاهد الشجاعة الباسلة نادرا مايصدر عن امرأة ، وحتى أية امرأة شجاعة يجب أن تكون حائزة لعبقرية خاصة اذا ما كان عليها أن تظل بمنأى عن هزة السلطان والعظمة • وقد تسعى الى تجنب المحتوم ، بتحذير من غريزتها الفطرية التى تسبق تحذير الرجل ، وباللف والدوران ، وبذلك قد تكسب مهلة متكررة ، وفترة أخيرة لا يكون لها فى أغلب الأحيان الحدة الدرامية فى النضال الأخير يصدر عن الرجل ، فالنذر التى يراها أصحاب مثل هذه الطبائع القابلة للايحاء قد تسمح ببعض اقباس من ضوء

تنساب بين أطيافها ، دون أن تسمح بأى تأويل يزيد الثقة بالنفس. وكل نواحى التردد والرقة فى الطبيعة الأنثوية ، الى جانب غريزة الألم لحماية أطفالها بحسم أكثر من سعيها الى غرضها ، والأمل فى الوصول الى اتفاق ، كل ذلك من شأنه أن يبين آخر السبل التى يمكن بها تجنب أعنف الضربات وأقواها .

والآن ، كان على كليوباترا ، وهى تواجه مصيرها أن تجازف بشن المعركة الفاصلة بطريقتها البطولية . كان عليها أن تجرب المرة تلو الأخرى ، كل حيلة وكل مراوغة ، وكل أسلحة المرأة فى الغواية والاغراء ؛ وفى الوقت نفسه كان عليها أن تقاتل بشجاعة الرجال ، من دور الى دور ، ودون خشية مع ذلك من رؤية المأساة تقترب فى سرعة ، ورؤية الموت فى النهاية ، وتأمل فى ميتة تليق بمقامها كملكة . ومن الضرورى ، وقد أحدقت بها نذر شؤم كثيرة ، جاءت من اعتقادها فى العلامات والنبوءات ، وقوت فى الوقت نفسه من هذا الاعتقاد ، من الضرورى والأمر كذلك ، أن تكون قد سمعت كورس الأصوات المصيرية وهى لا تزال مجرد ترجيع خافت وراء أبواق الحرب . وبنظرتها الصائدة النافذة وبفهمها السريع ، أدركت منذ زمن طويل ما بزوجها من ضعف ، واذا ماكانت تلتمس ، فى السنتين الأخيرتين من حياتها ، أن تحول مسالك أنطونيوس التى تختلط بالهزل واللهو الى جهد متكامل ، فانها قد نبذت فى أعماق ضميرها الأمل فى أن تجعل نصف الرجل هذا يصبح فجأة رجلا مكتملا . فعلت هذه المرأة الشجاعة مافعله رجال قلائل : لقد شعرت بالنهاية التراجيدية مقتربة ، ومع ذلك واجهتها .

- ٢ -

كانت افسوس ـ تلك المدينة التى ظلت طوال قرون موطنا للثقافة الاغريقية ، والتى قهرها الرومان ، ثم حررها الاسكندر ، ثم سقطت فى أيدى الرومان مرة أخرى ـ كانت فى موقع مماثل للاسكندرية ، بين البحر من ناحية وأرض خصبة من ناحية أخرى . وقد سلك الغزاة القادمون من جبال آسيا الصغرى طريقا مهجورا يؤدى الى البحر المتوسط حيث تقع اليوم مدينة أزمير ، غير بعيد من مدخل البحر . ويكون نفس الطريق مفتوحا الى جبال آسيا الصغرى أمام الغازى القادم من الغرب . وافسوس هى الميناء الحربى العظيم فاذا ما امتلكها أحد غزاة العالم الشرقى وحصن نفسه هنا ، فانه يحفز منافسه على الخروج من قاعدته الغربية ؛ وكانت هذه قاعدة استراتيجية هامة .

ومنذ أن حكمت أرتيميس الشهيرة ، وهى ديانا العظيمة عند أهل أفسوس ، منذ أن حكمت من معبدها المتلألىء لم يحدث أن رأت المدينة أبدا من قبل معسكرا حربيا ، يمتد بين البحر والجبال ، محتشدا ومجهزا تجهيزا كافيا على هذا النحو كما حدث فى ربيع السنة التالية (سنة ٣٢ ق . م) لأن أنطونيوس المتمركز . بقواته هنا ، كان فى هذا الوقت السيد الفعلى للعالم الشرقى ؛ وامتد سلطانه من الفرات وأرمينيا الى البحر الأيونى واليريا (البلقان الحديثة) ومن رمال كيرينياكا (برقة) الى الحبشة . وكان يقود مائة ألف من المشاة ، واثنى عشر ألفا من الفرسان وخمسمائة سفينة ، بينها مراكب بثمانية مجاديف وبعشرة ، كان يأتمر بأمره جيش كهذا لم يمتلك مثله الاسكندر ولا قيصر . وكان أنطونيوس، وقد تلقى أنباء معينة من روما ، قد عاد الى أفسوس من حملة جديدة له فى أرمينيا ، وهى حملة لا تخبرنا المصادر عنها بشىء أو أنها

تزودنا بتقارير مهوشة متضاربة • هنا ، فى هذا المكان عسكر بجيشه فى انتظار وصول كليوباترا ، التى كان عليها أن تحضر مرة أخرى بنفسها وذهبها •

عندما غادرت وطنها هذه المرة ، فكرت ، وسط تشاؤمها ، فى كل ما يمكن حدوثه ، وعرفت من قبل أنها قد تبقى بعيدة عن مصر لعام أو أكثر • لكن أين سيكون مقامها والى أين هم ذاهبون؟ لم يكن أحد يعرف حقيقة أى عدو سوف يداهمه هذا الجيش الهائل• ارتعدت شعوب آسيا ، وغنى الجنود أغانى الانتقام من الفرس ، الذين يجب سحقهم فى النهاية ؛ وأقسم حلفاؤهم أنهم سيسيرون معهم حتى نهاية العالم ؛ ومع كل ذلك ، فقد كان العالم الشرقى بأجمعه يتحدث عن التهديد بالحرب الأهلية ضد أوكتافيوس •

كان أنطونيوس وكليوباترا كلاهما شاعرين بهذا تماما • وكان لا يزال هو يرجو ولا تزال هى تخشى أن يكون باستطاعتهم بعد ذلك كله الزحف لقتال الفرس • فطالما كان يعتبر نفسه على الدوام الرومانى الظافر ، وبينما كانت تنظر اليه على الدوام باعتباره ملكا لمصر ، فان أهدافهما كانت متباينة ؛ وأصبح اطلاق الحرب الأهلية من عقالها متروكا لعدوهما الأكبر فى روما ، الآن أو حينما يشاء • وما هى الا فترة من الاثارات المستمرة ، حتى ازداد ضباب سوء الفهم والتحدى المتبادل حدة الى أن أصبح من المستحيل أن يعرف يقينا ما اذا كان أسطول العدو قد أقلع قادما فى عرض البحر من قبل أم لا •

ومن الضرورى أن كليوباترا ، وهى تعبر البحر المتوسط للمرة الرابعة ، استرجعت ذكرى رحلاتها الأولى : كأفروديت ذاهبة الى طرسوس فى أول الأمر ، وكملكة ذاهبة الى أنطاكيا فى رحلتها الثانية ، وكالاهة حرب الى قلعة « الشعر الأبيض » فى الرحلة

الثالثة ، أما الآن فهى جميعهن فى واحدة ؛ اذ كانت ، بعد بضع سنين على ولادة طفلها الأخير ، ومع كل سلطانها وقوتها الحربية ، قد استعادت آنذاك رشاقة شبابها • غير أنها الآن تجلب معها ، فوق مائتى سفينة ، غلالا ومعادن وملابس ، وثروة قوامها عشرون ألف طالنت (ما يعادل عشرين مليونا من الدولارات) ، دع عنك نصف حاشيتها من الخصيان والعبيد ؛ وكل ما كان يملكه العالم القديم من الثروة المفرطة •

وفى اليوم التالى ، وهى تقف فى مقدم سفينتها كعادتها ، كان قلبها يموج بعواطف متصارعة • كان حقا أمرا نادرا أن تقدر تقديرا جادا مغزى الاقدام على حرب فارسية جديدة ؛ وكأمر أساسى كانت تشعر بالثقة من أنها تستطيع أن تجعل أنطونيوس على شفا الوقيعة مع أوكتافيوس ، وأن تجعل أوكتافيوس على وشك أن يضرب ضربته • وكان الوقت فى صالحها ، فهم الآن أشد منه قوة ، وعليهم أن يثيروه ويقهروه ! كانت العلاقات مع روما تزداد توترا عاما بعد عام ؛ وكانت ترغب كامرأة حقا ، فى أن تضع للتوتر نهاية قاطعة ، بنفس السرعة التى ينتهى بها التوتر بين شخصين من جنس مختلف ؛ اذ أصبح ذلك بالنسبة لها أمرا غير محتمل ولا يطاق • فقوانين الديكتاتورية ، والتعطش الى الحركة الذى يحكم كتل الشعب فى العاصمتين الكبيرتين ، وازعاج ومكيدة الأمراء العديدين بحوض البحر المتوسط ، والتهديد بانهاء الائتلاف الثلاثى ، كل ذلك جعل من المستحيل أن يستمر هذان الرجلان فى سلام ، كل فى نصف العالم الخاص به •

والا فهل كان ممكنا أن تجدد الحكومة الثلاثية مرة أخرى ؟ ربما كان هذا ضروريا لعودة الوفاق بين أنطونيوس وزوجته الرومانية • لكن الملكة كانت ستقف حينئذ عاجزة لا تملك الدفاع ضد الرجلين وضد المرأة التى كانت أختا لأحدهما وزوجة للآخر ـ

ضد حكومة ائتلافية كهذه • كانت سياستها آنذاك تسير فى اتجاه ارغام أنطونيوس على أن يطلق أوكتافيا لكى تختص هى به • لكن هـــذا الطلاق معناه الحرب ، والحرب تعنى تسوية المشكلة الكبيرة الفاصلة بين روما والاسكندرية ؛ وبما أن امرأة اغريقية هى التى كانت تحكم فى الاسكندرية ؛ فان هذا فى واقع الأمر كان هو بعينه النزاع القديم ، مرة أخرى ، بين أثينا وروما ، ينتهى الى قرار • لكن ما الذى يمكن أن تسفر عنه هذه المخاطر ؟ وهل كانت النتيجة ــ لو نظرنا اليها نظرة هادئة ــ شيئا مرغوبا ؟ ومع ذلك فلم يكن هذا وقت التفكير فيما كان مرغوبا فيه • لم يعودوا أحرارا بعد فى اختيارهم !

هكذا ، فان كليوباترا ، أدهى نساء عصرها وأشدهن ذكاء ، برغم أنها كانت شاعرة بنقائص أنطونيوس ، وبرغم أنها أحست بأن الجانب المولع بالفن فى شخصيته قد جعل من المستحيل عليه نهائيا أن يصبح سيد العالم ، كانت مضطرة حينئذ ، وقد وقعت فى الشرور العويصـــة لقدرها ، الى أن تحفزه الى خـوض معـركة نهائية معركة كان من الممكن أن يكون قيصر كفئا لها، لا أنطونيوس•

ومن هنا كان تشاؤمها القاتم الكئيب•وقد سمت أن بيروريوم، وهى مستعمرة أنشأها أنطونيوس ، ابتلعها زلزال ؛ ومن هنا كان شحوبها عندما سمعت أن « تمثال أنطونيوس فى جزيرة « ألبا » قد غمرته مياه الرشح أياما عدة ، ثم عادت برغم أنها كانت تزال باستمرار » •

لكنها ألقت بكل هذه الخواطر المحزنة وراءها حينئذ ، وفى الغد وقفت ثانية فى مقدم سفينتها ، ملكة محاربة ، وقد عاودها شبابها من جديد ؛ مستجمعة قوى قلبها وعقلها ، لكى تتمكن فى الصراع القادم أن تمد زوجها بما كان يعوزه •

لكنها هى كانت تفتقد ابنها • كان قيصرون قد بلغ حينذاك من الكبر حدا بحيث لم يعد يرافقها كغلام ؛ ويجب أن يحكم فى عاصمته ، يعاضده خدمها المجربون ، كانت هذه مخاطرة وحرمانا • ومع ذلك فارقته كليوباترا ، لأنه الشخص الوحيد الذى يمكنها أن توليه الثقة فى حكم الدولة أى وقت من الزمن ، كما أن هذه كانت فرصته ليجرب نفسه فى مدرسة الحياة العظيمة • ولو أنه غادر مصر برفقتها ، فكم كان يسهل على متآمرى القصر أن يقتلوا أولادها الثلاثة الصغار ! وفى تاريخ عائلته جرائم كثيرة من هذا القبيل • كل دافع معقول حثها على أن تترك قيصرون فى الاسكندرية •

مع ذلك سمعت فى غسق أعماق روحها همسا خافتا سمعت صوتا يخبرها ألا تعرض ابنها ووريثها الى خطر السجن لو حالف الحظ أوكتافيوس • وبما أنها أحست فى هذا النذير الحاسم بلحظات اكتئاب وقنوط ، فانها كانت مدفوعة الى تخيل امكانية الهزيمة والهروب ، عندما ترغب فى العثور على شريكها الشاب سالما مع قواته ، حتى أنه ليمكنها أن تعتمد على قوته • ومع ذلك فنادرا ما حدثت نفسها بهذا ، وأبدا لم تلفظ به لأنطونيوس •

- ٣ -

حاول أوكتافيوس أن يخمد شعبية عدوه ، بسيل من الدعاية ، مجاهدا ، بالخوف والارادة السيئة ، ستر ما به من ضعف ، وأفاض أتباع أوكتافيوس فى ذكر مباذل أنطونيوس التى كانت تصدم الرومان بمائة أكذوبة عنه وعن كليوباترا •

وقد قدم موكب انتصار أنطونيوس فى شوارع الاسـكندرية لأوكتافيوس أقوى اتهام وأكثره فاعلية ، كما كان عدم قتله لملك أرمينيا الأسير برهانا على عدم رجـولته • كان صحيحا أنه سرق مكتبة برجامون ونقلها الى عاصمته الجديدة ؛ كما فعل نفس الشيء بتمثال زيوس الشهير فى مايرون ، وتمثال هرقل فى ساموس ، وأجاكس ، وكل هذا كان ينظر اليه كأسلاب لروما ، لا لمصر • لكن أوكتافيوس حينذاك ، هو الباسل الرابط الجأش دائما بازاء الغائب ، أطلق سهامه المسمومة ضد الملكة ؛ وبعضها الى أنطونيوس نفسه ، أمام مجلس السناتو المنعقد ، وبعضها الآخر بواسطة مئات من مثيرى الفتن من بين أتباعه • فلو أنه استطاع فحسب أن يجعل موقف كليوباترا مستحيلا أكان بامكانه اذن أن يفسر الحرب الأهلية القادمة للمواطنين الرومان باعتبارها حربا ضد امبراطورية معادية•

ومع ذلك ، كان الأمر واضحا : فهى تملك قوة سحرية ، أو لم تكن مصرية ، وابنة قوم كانوا يعبدون الحيوانات ؟ لقد أضلت بجرعة من حبها سحرية حواس النبيل الرومانى ومشاعره حتى أنه أقام ذات مرة وليمة كبيرة لكى يقبل قدمها العارى • وفى الشوارع كان يرافق محفتها ويمشى على رأس خصيانها •

وربما كان يقاطعه البعض ، بينما يجلس للقضاء فى المحاكم المصرية ، بالرسائل الرقيقة التى أرسلتها اليه على رقائق العقيق ؛ وذات مرة ، عندما رآها تمر أمامه ، ترك المحكمة فجأة فى وسـط الحديث • يمكن القول بأن الرجل قد فتن وخلب لبا ؛ وكيف يمكن لرومانى آخر أن يخضع على هذا النحو لزوجة افريقية ! كان أولادها جميعا أبناء زنا ؛ لأن زوجة أنطونيوس الشرعية انما تدعى أوكتافيا، والابن الأكبر الذى جرؤت على تسميته قيصرون ، لا يمكن أن يكون ابنا لقيصر ، اذ أين هى تلك الوثيقة التى اعترف قيصر فيها بأبوته له ؟ لم يكن المرء يسمع شيئا غير الاسراف وتبديد ثروة موروثة •

فكان لأنطونيوس مبولة من ذهب ، وفى احـدى الولائم ، حـديثا جدا ، أذابت الملكة لؤلؤة تقدر بملايين فى الخمر ثم تجرعت القدح دفعة واحدة حتى الثمالة • لكنها كانت صاحية على الدوام غير سكرى بين كل هذه العربدة وهذا السكر ؛ وكان هذا راجعا الى القوة السحرية لخاتمها الياقوتى !

لم يكن تأثير هذه الوشايات مما يغفل آمره ولايقام له وزن، لكنه لم يكن كافيا لالحاق الضرر بأنطونيوس لأنها صدرت عن عضـو الحكومة الثلاثية غير المحبوب ضد أنطونيوس المحبوب • وبما أن أوكتافيوس كان شاعرا ببغض المواطنين فانه أجبرهم جميعا منذ ذلك الحين على أن يقسموا يمين الولاء له : وتلك بدعة وجدها الرومان بغيضة غير مقبولة ، اذ كانت تشير فحسب الى نهاية الجمهـورية بشكل قاطع • وعندما رفضت بولونيا القسم أدار لذلك أذنا صماء وأعلن فى مجلس السـناتو أن ايطاليا بأكملها قد أقسمت يمين الولاء له •

كان الارهاب عاما الى حد أن قناصله وأربعمائة رجل فى مرتبة عضوية السناتو غادروا البلاد سرا ، لكى يلحقوا بأنطونيوس قبل نشوب الحرب الأهلية ، لأن أنطونيوس ، كما قال أصدقاؤه ، سوف يعيد الجمهورية •

أى خيبة واخفاق أحس به هؤلاء الرومان القلقون عندما نزلوا بأفسوس ! فهنا معرض للشـعوب والأزياء ، هنا مصريون وعرب وأرمينيون وميديون وأغريق ويهود وسوريون ، الجميع يتجمعون من السفن الى البحر ثم الى المعسكر • وفى معبد أرتيميس تردد صدى مائة لغة بين الجدران الرخامية والأروقة الخشبية ، فأين كانت روما وسط هذا كله ؟ كانت الفرق الحربية القديمة ، قد أصبحت نصف شرقية ونصف بربرية تحيى قناصلها بفتور ساخر يصدر

عن جنود قد نسوا ، مع وطنهم ، منذ زمن بعيد هؤلاء القوامين على حماية الحرية والدفاع عنها ٠

ثم من كان هذا الذى يستقبل شـــيوخ روما على عرش من العروش ؟ أكان هذا الرجل ممثلا مسرحيا ؟ أكان أنطونيوس حقيقة؟ العباءة الأرجوانية فوق انسترة الرومانية ، وفىقدميه أحذيه بيضاء، وعلى رأسه قبعة لبـــادية من الطراز المقــدونى ! وبجانبه تجلس ايزيس ، الاهة مصر ، بتاجها المزدوج ، وفى رداء من الحرير السورى الأخضر ! وحولهم ، فى مركز الأتباع ، ملوك تراقيا وبافلاجونيا ولبنان وجالاتيا والجميع غارقون فى ألوان العالم الشرقى ! لكن نعم ـ فما تزال هنا بقية من روما ! ما أن نهضت الملكة وغادرت مكانها حتى كانت محاطة بجند رومان ـ لكنهم كانوا يحملون ، بدلا من الحروف الأربعة الكبيرة س ٠ ب ٠ ك ٠ ر ٠ المحفورة على دروعهم طره من الحرفين أ ٠ ك ٠ وقد أحكما فى رشاقة ٠

وسرعان ما برز فى المعسكر حزب رومانى جديد ٠ وانضـــم اليه كثير من الضباط ، وطالما كانت الملكة تظهر حتى فى مجلس الحرب ، ويولى أنطونيوس رأيها اهتماما كبيرا ، فان قلة من الأصدقاء القدامى أجمعوا أمرهم ، وأمسكوا به راجين أن يرسلها الى بلدها اذا لم يكن يريد أن يفقد عطف كل رومانى ٠ وكان من الســـهل أن تكتشف كليوباترا ما أشاروا به عليه ، ومن السهل أن تتخلص من نصيحتهم ٠ أفلم تحكم مصر مدة خمسة عشر عاما ؟ فمن كان يستطيع أن يجرؤ على مهاجمة نفوذ وشهرة من يجد المال اللازم لكل هذه الكتائب ؟ ومن كان ، بعد كل ذلك ، هؤلاء الرعاع ، هؤلاء القنـــاصل بملابسهم الرديئة ، الذين جرؤا على الحضور الى هنـــا واطلاق الشائعات ضدها ؟ لقد حان الوقت لتغيير المشهد ٠

وبلمســـه بارعة استطاعت أن تعيد الجنرال مـرة أخرى الى

الباخوسى ؛ وهو أمر قدمت جزيرة ساموس أفضل بيئة له • كان هناك الوقت ؛ فالحرب لم تبدأ بعد ، والوقت كان ربيعا ، وكان هنالك سلام ، والبحر والأرض يشعان حياة • وبينما كان العالم بجانبهم يكشف عن عذابه فى تأوهات ودموع ، كانت تلك الجزيرة وحدها تزمر وترقص ؛ حتى كان من الطبيعى القول كما قال « بلوتارك » : « بأية هيئة سيحتفل هؤلاء الناس بانتصارهم ، عندما تكون استعداداتهم الحقيقية للحرب بمثل هذه الروعة ! »

على هذا النحو تسابق الأمراء والأتباع فى روعة الهدايا وصنوف الترف والرفاهية • والتجأ مئات من الناس الى الجزيرة ، هربا من الفوضى والدمار القادم ، لكى ينسوا مع الخمر والنساء ما يهددهم به المستقبل • كان بينهم جميعا فى أول الأمر ديونيسوس الاسكندرية الجديد ، ذلك الذى كان شعاره : عش ودع الآخرين يعيشون ـ العب ودع الآخرين يلعبون ، وذات مرة عندما أعد طباخه وليمة أرضت حتى هذا الأكول المرفه ، منح أنطونيوس الرجل منزلا هدية ، ولأن الممثلين أدخلوا السرور على قلبه منحهم مدينة برينى ثم أبحر مع حاشيته الى أثينا ، وكان من الصعب أن يخمن من ذا الذى كان يرشده بحرص فى أثناء الرحلة •

كانت احدى رغباتها القليلة التى لم تكن كليوباترا حققتها حتى الآن هى أن تصبح ملكة فى أثينا لبضعة أيام • لم تكن زارت أبدا من قبل الأماكن المقدسة للفكر الهيلينى • ولقد ملأتها هذه الأماكن بعاطفة صوفية ؛ اذ كانت ثقافتها فى أصلها أثينية خالصة• هنا سارت على درب الاسكندر وأرسطو ؛ وتحدث اليها كل معبد أكثر مما تحدث اليها أى معبد فى مصر من قبل • لكن غيرتها من زوجات أنطونيوس كانت تثير دائما أشد مشاعرها هياجا ؛ فقد عاش هنا مع كليهما • وبطريقة لا تعرف حتى معنى الحرج أراها

المنزل الذى ضرب فيه فولفيا ، وذلك الذى عاش فيه بعد ذلك مع أوكتافيا النبيلة ٠

كانت الرغبة القوية لكليوباترا حينئذ هى أن تستأصل أوكتافيا من أفكار الأثينيين ٠ ولم يكن هنالك ما هو أبسط من ذلك ، فلماذا منحت أكثر السادة لطفا وأنسا زوجا لها ؟ وكان أنطونيوس مبتهجا بأن يؤدى دورا جديدا ، وعندما قرر وفد من أشهر رجال وسيدات أثينا الترحيب بها، رافقهم أنطونيوس بنفسه، طالما أنه كان أيضا « مواطنا أثينيا » وألقى خطبة الاحتفال على مسامع زوجته ٠ ثم نظم احتفالا داعرا أذهل أثينا كلها ، وآخر الأمر اندفع صاعدا الى الأكروبوليس ــ « قلعة أثينا » المضيئة فى عربة الاله ٠ واحترم الأثينيون ، وهم المهيئون من قبل لأن يخضعوا للسلطان والقوة ، احترموا كليوباترا ، باعتبارها خليفة الاسكندر وأقاموا تمثالا لها فى البارثينون ٠

امتلأ قلب كليوباترا بعواطف غريبة ٠ ففى روما كان هنالك تمثال لها فى معبد فينوس ، وهنا فى أثينا فى معبد الالاهة أثينا ! فهل قصدت الآلهة أن يتوحد فيها طرزان وحضاراتان ــ وأن تبين أن السلطان فوق الجمال وأن الحكمة أعظم من السلطان وأجل ؟ أو هل كانت أثينا منتصرة اليوم على روما فى شخصها الرمزى ؟ لكن تمثالها البرونزى ، الذى كان قيصر أقامه منذ اثنتى عشر عاما ، قد أزالوه من المعبد وتحطمت منه أجزاء متفرقة ، وربما يكون بعض الرعاع الأغنياء حديثا أذابوا سيقانها وأعادوا سبكها آنية للغسيل! كان المغزى أوضح من ذى قبل ؛ فهنا فى أثينا ، بالقرب من الاسكندر ، الذى انحدر منه أسلافها ، كانت فى وطنها ؛ لكن فى روما كان لها أعداء فقط ٠ أصبحت روما معادية لها ، لأنها كانت تنتمى الى ابن قيصر غير الشرعى ذلك الذى كان يكره ابنها ، الابن

الحقيقى • وكانت مهمتها القادمة هى أن تبعد كلية عن روما • وكل شيء كان يعتمد على قدرتها فى تحريضه على طلاق الزوجة الرومانية•

- ٤ -

وعلى غير توقع ، ساعدتها زوجته الأولى ضد الزوجة الثانية • فقد جاء أنتيليوس ، ابن فولفيا وأنطونيوس ، الى أثينا • وكان أنطونيوس يميل الى هذا الغلام ابن الرابعة عشرة ميلا شديدا • حقا كان أصغر من قيصرون ، كما لم يكن — فى تقدير كليوباترا — نظيرا له فى أى جانب من الجوانب • وقد جاء من منزل أوكتافيا ، حيث ربته وتعهدته هناك هو وأولاد لأنطونيوس آخرين ؛ حتى أن الغلام لم يكن لديه سوى أمور سارة يقولها عن أمه العطوف •

ولكن ماذا قال ؟ وما الذى كان يحدث هنا ؟ لقد جاء من روما جيمينيوس ، وهو رفيق قديم فى السلاح ، جاء بقصد ظاهر ، هو أن يحذر أنطونيوس من شقاق قد يحدث بينه وبين روما • وعلى الفور اعتبرته الملكة عدوا لها وأعطته أقل الأماكن شأنا على المائدة ، ثم سألته ، من رأس المائدة ، عما كان يريده • تردد الرجل فى اجابة ، وعندما سئل مرة أخرى عما قد يكون وراء بعثته ، أجاب بهدوء ، أن من الأفضل لأنطونيوس لو أنها ترجع الى مصر ؛ والا فسوف يعتبرونه فى روما بمثابة عدو لوطنه • وعند هذا — فيما يروى بلوتارك — ضرب أنطونيوس المائدة بقبضته ؛ لكن الملكة أجابت ببرود شديد قائلة : « حسنا فعلت يا جيمنيوس ، باعترافك دون أن ترغم على ذلك » •

فى اليوم التالى فر جيميثيوس ؛ وسرعان ما تبعه فى ذلك بلانكوس سكرتير أنطونيوس ومهرج البلاط ، ثم فر بعد ذلك

صديق آخر من أصدقائه ؛ حتى أن بعض الشيوخ أسرعوا بالرجوع الى ايطاليا · سمع أنطونيوس بذلك فلم يقل شيئا ، وضحك ؛ غير أن كليوباترا كانت تتعطش الى الانتقام · كان السخط المتراكم الذى تكشف أواره للحظة فى اجابتها على قول جيمنيوس ، على الملأ ، كان يحاول الافلات وأن يجد له متنفسا · ماذا ! أكان ينبغى على كليوباترا الملكة ، وهى التى أنجبت لأنطونيوس أطفالا ثلاثة أن تتنــازع مع ظلال امرأتين من النســاء المستهلكات ؟ كانت قد سمعت الكثير عن هذا الرومانى فى الوقت المناسب · سمعت من أنطونيوس أن أوكتافيوس أرسل له خطابا يحتوى على اتهــامات ضدها؛ لكن العيون هم الذين استطاعوا أن يبلغوها رده على صهره · ولم يكن الرد باعثا على دهشتها ، لكن الخلف يجدون فيه ما يثير اهتمامهم ، اذ هو الرسالة الخاصة الوحيدة لأى من هؤلاء الأربعة التى لا تزال محفــوظة ــ والآن بقيت مجــرد فقرة منهــــا ذكرها سيوتونيوس ، الذى وجد الرسالة فى أرشيفهما · كتب أنطونيوس الى أوكتافيوس يقول : « ما هذا الذى يثير غضبك نحوى ؟ ألأننى أنام مع الملكة ؟ انها زوجتى · هل ذلك بأمر جديد ؟ لقــد كانت زوجتى منــذ تسع ســنوات ولا تزال · وأنت ألا تزال تنــام مع دراسيلا ؟ اننى أراهن بحياتك وصحتك أنه سيكون فى حوزتك ، وقت قراءة هـــذا ، تيرتيوليا أو تيرينتيلا أو ايوفيليا أو سالفيا تيتيسكيميا ، أو جميعهن فى وقت واحد ! ثم ما الذى يعنيه فى النهاية كون هذه المرأة أو تلك هى التى يقضى الرجل منهــا وطره ويرضى معها شهوته ؟ » ·

هنا يتكلم جندى لجندى آخر ، أو ليس هنا أنطونيوس بأكمله فى هذه السطور ــ أنطونيوس المحارب والباخوسى والسوقى ؟

عرفت كليوباترا آنذاك ما فيه الكفاية ، وتذهب اليه مصرة

على طلاقه لأوكتافيا • وكانت مستعدة لأن تغمره بفيض من الأسباب تبرر بها مطلبها هذا •

ألم يجرؤ ابن فولفيا على التجديف فى حق أوكتافيا ، وعلى تهديد ذلك الرومانى ، وعلى تحذير واحد من الشيوخ ؟ أو لم يضرب أنطونيوس على المائدة بقبضتيه ؟ لقد أراد أن تلاحقها ثرثرة روما بالعار ، لأن هؤلاء الفارين سوف يصفون كل ما رأته عيونهم هنا ! هكذا يضحى بها مرة ثانية ! وكما هو الشأن عندما احتفل بشهر عسل زواجه من أوكتافيا ، هنا فى أثينا ذاتها ! كانت الحرب وشيكة الوقوع ؛ ولم يكن لدى أوكتافيوس مع ذلك من المال ما يكفى للحرب ؛ وقد جعلته الضرائب الجديدة التى فرضها على الناس مكروها كراهية مطلقة ؛ والآن حان وقت التعامل معه ؛ بما أن الجيش العظيم فى أفسوس كان منتظرا أمرا بالمسير • ليتقدم الجيش اذن ، وليطلب الطلاق من أوكتافيا • وذلك معناه اعلان الحرب على أخيها •

لكن بينما كان أنطونيوس حينذاك صامتا مترددا ، أى حشد من العواطف كان قلبها يجيش به ! الكبرياء والحقد والسلطان — سلطانها على سفنها ومالها ! وما لصوتها العذب من سحر كذلك ، والقضايا التى يمكن أن تطرحها فى أثناء الليل • وما هى الا أيام قلائل حتى دعا أنطونيوس قواده وبعضا من أعضاء السناتو ، وبما أن كل واحد شعر بأن الأمور لا يمكن أن تستمر على ما هى عليه ، فانهم أدلوا بأصواتهم جميعا حول ما كان يقع لسنوات مضت ، وحول أفضل الأمور الممكنة آنذاك فى أسرع وقت • وكانت قلة من المرتابين قد شغفهم من قبل ذهب الملكة • وأعلن أنطونيوس طلاقه فى رسالة ، أمر فيها زوجته الرومانية أن تترك منزله فى الحال ، وكان هذا المنزل قصرا لبومبى ، لم يدفع أنطونيوس أبدا ثمنا له •

كان هذا يوما عظيما بالنسبة لأوكتافيوس ، عندما رأت روما بأسرها أخت أحد أعضاء الحكومة الثلاثية ، التى أنجبت أربعة أبناء لعضو آخر فى الحكومة ، رأتها تترك المنزل الذى قادها اليه زوجها من قبل ، على مرأى من الشعب ، منذ ثمانى سنوات • وكانت هذه ضربة ضد سمعة أنطونيوس الطيبة ؛ ولم يكن خصمه ليحلم بضربة أشد من هذه دهاء ! ومع ذلك فما زال الكثير بعد • واحتشد الناس حول أعضاء الســـناتو الراجعين من أثينـــا ، غافرين لهم ردتهم المتكررة • أعلن أحدهم أن أنطونيوس يعطى ضيوفه خمرا حمضية بينما يشرب هو الفاليرنيان ، وقص آخر أن كليوباترا تصيح فى كل مناسبة : « سوف أنهض يوما ما بأعباء الحكم من فوق الكابيتول لا ريب ! » لكن بلانكوس ، اله البحر الأزرق الأخضر ، وأصدقاءه فلكى ينالوا الحظوة عند أوكتافيوس ، فانهم خانوا عهدا من عهود الصداقة بينهم وبين أنطونيوس ، كان لا يزال عظيما • كانوا قد وقعوا من قبل ذات مرة كشهود على الوصية التى كتبها أنطونيوس فى روما عندما تزوج أوكتافيا • ولقد كشفوا آنذاك لحاميهم الجديد عن مكان تلك الوصية ومحتوياتها • لم يكن هنالك مكان فى روما أكثر قداسة من معبد الفستالز ؛ ولم يسجل التاريخ الرومانى أبدا من قبل ، فيما نعلم ، بين كل جرائمه العديدة ، سرقة أوراق أودعت هذا المعبد فى حراسة الآلهة • ولقد وزن أوكتافيوس ببرود الضرر الذى قد ينجم عن هذا النقض والانتهاك لقدسية المعبد ، بالفائدة التى يمكنه أن يحققها بنشر الوصية على الشعب • وقرر أن يخاطر فأرسل أمرا الى الكاهنة الكبرى • وأجابت بأن ما فى عهدتها من الوثائق مصونة حتى موت أنطونيوس ؛ وبوسع أوكتافيوس أن يحصل عليها بالقوة فحسب • ولقد ذهب أوكتافيوس الى المعبد ، ثم دخل وانتزع الوصية عنوة •

بمثل هــذه الوســائل ، كسرقة وصية مسروقة ، استطاع

أوكتافيوس أن يحقق بمهارة فائدة تفوق ما حققته فولفيا من تزييف الأوراق المنسوبة الى قيصر • كان يعرف أن بلانكوس اختلس مالا من أنطونيوس ؛ وهذا ما كان كل واحد يعرفه ، وأدرك أن الرجل قد فر لخشيته من افتضاح أمره • والآن يقرأ فى مجلس السناتو تقريرا مثيرا عن أسلوب حياة أنطونيوس ؛ تقريرا يفيض بالمبالغات والمفارقات حتى أن أحد أعضاء السناتو القدامى صاح فيه قائلا : « بحق هرقل ، أيمكن أن يقضى أنطونيوس يومه حافلا بكل هذه المشاغل » • لكن ، لم يكن هذا سوى المقدمة فحسب •

والآن يعتلى أوكتافيوس نفســه المنصــة ، ويشرح كيف أن أنطونيوس قد حرم الفهم والادراك بتأثير جرعة سحرية ، وأن جيشه يأتمر بأمر خصى مصرى ، بينما كانت القيادة الحقيقية فى أيدى شرميون وصيفة كليوباترا وايراس مصففة شعرها • وتغلى روما غضبا ، لأن المرأة المصرية كانت تحاول أن تصبح حاكمة لها ؛ وأنه لذلك كان مضــطرا الى فض الأختــام المقدسة للوصــية – ثم قرأ أوكتافيوس هذه الوصية ، كان أنطونيوس يعترف فيها بقيصرون، وبأى أولاد تنجبهم كليوباترا منه ، باعتبارها ورثة شرعيين ؛ وقد قسم بينهم الولايات الآتية ••• وعند موته يحمل جسده فى موكب مهيب من الفوريوم ، ثم يجب أن يرسل بعد ذلك على احدى السفن الى الاسكندرية ، حتى يمكنه أن يستقر بجانب الملكة كليوباترا ، فى نهاية المطاف •

لم يكن بوسع أنطونيوس الذى ارتكب بكتابة هذه الكلمات القليلة اثما أن يترك وصية أكثر اعتدالا وانصافا ؛ وكانت سرقة أوكتافيوس لها حيلة دنيئة ، ومع ذلك فان أوكتافيوس قدر عواقب هذه السرقة تقديرا صحيحا • فكم كان من عدم صفح الرومان عن أنطونيوس ! كان دائما مقامرا طروبا ؛ ولكن ألم يكن أخلص أعوان قيصر ؟ أو لم يكن منتصرا فى قتاله لقتلة قيصر ؟ حقا ، منذ ذلك

الحين احتفل بانتصاره ، انتصار الجيوش الرومانية ، فى بلد أجنبى·
لكنه الآن ، الآن أصبح واضحا أنه لم يكن فى صميم فؤاده رومانيا أبدا ؛ وأنه رغب فى أن يرقد رقدته الأخيرة فى تربة أجنبية ! لايمكن الا لرجل مسحور أن يكون على هذا النحو من عدم الاخلاص والوفاء ! وهكذا صح أن المرأة قد تسلطت بسحرها عليه ، وفى الحال ألغيت قنصلية العام القادم ، التى كانت قد منحت له من قبل ، وجرد من كل مناصبه الرسمية ؛ لكن شهرته لا تزال عظيمة حتى أنه لم يكن أعلن بعد حتى الآن عدوا للوطن ·

ولم يكن اوكتافيوس بحاجة الى هذه المسألة الأخيرة ، فقد أعلن الحرب على ملكة مصر · وألقى حربته ، فى معبد بيللونيا ، على الحد الرمزى فى أرض العدو ·

- ٥ -

تكاثرت العلامات والنذر· فبينما كان أنطونيوس فى بتراس، أصابت صاعقة معبد جده ، هرقل · وفى أثينا جرف اعصار صورة باخوس من فوق افريز معركة العمالقة على الحائط الجنوبى للأكروبول ، تلك التى تعلو مسرح ديونيسوس مباشرة · واكتسحت نفس العاصفة تمثالين هائلين كان اسمه محفورا عليهما وحطمت طيور غريبة العش الذى بنته الخطاطيف فى مؤخرة بارجة كليوباترا، التى كانت تسمى أنطونيادس · وعندما ذكرت هذه النذر ضحك أنطونيوس ، لكن الملكة لاذت بالصمت ·

ورجعا كلاهما الى أفيسوس ، عندما طلب أوكتافيوس منهما طلبا غريبا : أن يدعه ينزل فى بلاد اليونان وهناك : يفرض عليه بقعة من الأرض لا تزيد على دورة حصان فى يوم واحد ، وبعد

خمسة أيام سوف يكون مستعدا للمعركة • وألقى أنطونيوس الرسالة جانبا • ورأى من خلال الخطة أن أوكتافيوس يرتعد من لقائه في ميدان القتال المقدوني ، وهو مكان اللقاء الطبيعي للجيشين؛ فهنالك فى فارساليوس ، انتصر الشاب أنطونيوس تحت قيادة قيصر • لهذا السبب اقترح أنطونيوس على أوكتافيوس ، مع نفس الرسول ، أن يكون ميدان المعركة بالضرورة ، هو فارساليوس ،وان لم يكن ذلك ملائما له ، فليلاقه أوكتافيوس — وهو الشاب الذى يصغره بعشرين عاما — فى مبارزه • ولم يسمع أحد أوكتافيوس الماكر وهو يضحك من هذا العرض فى هدوء •

والآن يستعد أوكتافيوس لتجهيز سفنه ، اذ لم يكن أحد يعرف هل ستقرر المعركة بحرا أم برا أم فى كلا الجانبين معا •

ومهما يكن الأمر ، فان أوكتافيوس افترض أن خصمه سوف يضطره الى خوض معركة فى البلقان • ولهذا السبب عرض على ملك الجيتيين ، الذى سوف يكون لمساعدته شأن حاسم ، أن يزوجه ابنته جوليا ؛ ووعد هو فى الواقع أنه سيتزوج بنفسه بالتالى من ابنة الملك ؛ وكل هذا ليحصل على مساعداته • كان أسطوله وجيشه يصغران جيش أنطونيوس وأسطوله ؛ وعلى أية حال ، فقد كان لديه اثنان وعشرون ألف رجل ومائتان وخمسون سفينة • كانت خطته أن يحتجز العدو فى ابيروس بعشرين فرقة ، طالما كان يخشى ميدان فارساليوس • وفقد أنطونيوس ، مرة أخرى ، ثلث مالديه من جنود الأسطول ، بسبب المرض غالبا ، ومن ثم فلكى يعوض الخسارة دفع شباب اليونان جميعهم الى خدمته ، دون النظر الى مهارتهم ؛ ويتحدث البعض — فى هذا — عن مئات من الحمارة القادمين من الجبال ممن لم يروا أبدا مجدافا من قبل •

لكن القرار لم يكن متوقفا على الحمارة ولا على ملك الجيتيين ،

ولا حتى على وصـيـة أنطونيوس ، بكل عواقبهـا • بل كان قلب أنطونيوس وقلب كليوباترا هما اللذان يقرران هنا ، كما هو الشأن فى سائر مآسى التاريخ ، خط القدر •

لاحظت الزوجة ، فى الشهور السابقة على القرار ، غالبا زوجها فى صمت : فى ساموس وفى أثينا وهنا أيضا فى أفسوس . لاحظته عندما لم يكن لديه دور يقوم به ، وعندما كان يعبر الشارع وحيدا فى ضوء الشمس ، أو عندما كان يحملق فى النجوم من نافذة حجرته ليلا ؛ أو يدلف من الأبواب لكى يحملق فى اثر غادة قوية شابة ، أو عندما كان يجلس بجانبها ، فى احدى الأمسيات الهادئة ، محدقا فى قدحه • فى مثل هذه الأوقات كان يروعها انحطاط بنية وسحنة هذا الرجل ابن الخمسين عاما : البطن البارز ، المتدلى على ركبتيه المتراخيتين ، وخديه المتهدلين ، وذقنه المترهل ، وفضلا عن ذلك ، عيونه الزجاجية التى تحملق بغباء فيبدو أنها لا تدرك شيئا وأعجز من أن تبحث عن شىء • ووصلها همس كثير من أركان حربه ــ فهو يأتى متأخرا جدا الى الاجتماعات ، وغالبا ما لا يستمع الى ما يقال وأحيانا يغفو فى نوم لدقائق معدودات ــ كل ذلك أكد لها فى النهاية ما بدا أن أحلى ساعاته تدحضه ، لكنه كان مشتعلا حينئذ حبا وغراما •

وهكذا أخذت ترتاب فى قدرته على أن يحرز نصرا ، السبب الذى انصرفت من أجله الى النذر والطوالع ، تلك النذر والطوالع التى كانت تتوعد بالسوء • أيمكنه أن يكون قويا ساعة اتخـاذ القرار ؟ أيمكن أن تسانده روح قيصر لمجرد أنه كان يقف فى ميدان قتال قيصر ؟ وما الذى كانت تتوقعه من نظام جيش غير متجانس قضى فى المعسكر عاما : ومن ضباط يشاركها الكثير منهم شكوكها، ولهذا كانوا يتطلعون بأعينهم من قبل الى الرومانى الآخر ؟ ألا يزال بامكان هذا الرجل بوجهه المنتفخ أن يكسب معركة السيادة على

العالم ضد رجل فاتر فى الثلاثين من عمره ، يساعده اثنان من أمهر القواد ؟

كانت تدرك جيدا ما ينصح به أعداؤها فى المعسكر قائدهم عندما انفردوا به فى الأسابيع الماضية ، ولم يكن هنالك شاهد يرغم القائد على أن يعاضد الاتجاه الرسمى • كان هناك كانيديوس ، الذى يخدمها باخلاص حتى ذلك الحين ؛ ربما من أجل مالها فحسب، وكان يستخدم نفوذه العظيم لدى أنطونيوس لصالح حزبها • وكان لا يزال هناك من أعضاء السناتو فى المعسكر عدد قليل ، وكان الجميع يحثونه فى احترام وزمالة ، على أن يقاتل فى البر بدلا من البحر ، وعلى أن يرسل الملكة بالضرورة الى وطنها مع سفنها السريعة ، ويزحف الى مقدونيا ، حيث يوجد هناك جزء من كتائبه، وأن يكسب تحالفه مع ملك الجيتيين ، وحينئذ فى ميدان فارساليوس أو فى مكان لا يبعد عنه كثيرا يجبر العدو الأضعف على خوض المعركة • فحينئذ يضمن ، وهو أعظم قواد البر ، الانتصار على عدوه !

لكن لماذا يجب ألا يكسب النصر معها ؟ لأنها كانت تريد معركة بحرية ؛ وقد كانت على الأرض ، مع كل حاشيتها ، مصدر عرقلة •

كانت هذه هى الحقيقة ، وان لم تكن الحقيقة كلها • وذات مرة فحسب ، قال السناتور الارستقراطى العجوز أهينوباربوس لصديقه الحقيقة كلها ؛ لن يكون بوسعه ، مع كليوباترا التى كانت ايطاليا كلها تكرهها ، أن يدخل روما ؛ حتى باعتباره منتصرا ، لكنه يستطيع بدونها ، وهو المحبوب منذ عشرين عاما ، أن يجعل الناس ينسون كل الأقاويل السيئة التى افتراها وروجها أوكتافيوس والتى سببتها الوصية كذلك• كانوا يعتبرونه آخر من بقى من الجمهوريين،

ومن ثم فقد كان الرجل الوحيد الذى يفهمه الشعب ؛ فهو فقط ، وليس خصمه ، الذى وعد الفرق المحاربة بأن يعيد الحريات القديمة الى روما بعد النصر •

ويتأوه الرجل الثقيل ذو العيون الزجاجية ، قليلا وهو يتابع هذا النداء الأخير من روما كان يرجو منه أن يصبح رومانيا مرة أخرى ؛ لكنه لم يقل شيئا •

بعد ساعات قليلة عرفت كل شىء ؛ عرفت حتى أنه تأوه • وما كان هؤلاء الأصدقاء الرومان ينصحونه به ، حتى وان لم تكن فكرت مطلقا فى دورها فى المعركة ؛ وكان على العكس تماما مماتنصحه هى به • ومرة أخرى ينبغى على المرأة التى جذبت هذا الرجل الى دائرة نفوذها ، وقدمت له أحلى الساعات والمتع الفريدة ، ومنحته ثلاثة أطفال ـ مرة أخرى يجب على كليوباترا التى برهنت على عظمتها فى ميدان القتال ، والتى لم تخطئها الشجاعة أبدا ، يجب عليها أن تمنع صديقها وزوجها فتحول بينه وبين النصر ، تماما كما كانت تخشى انتصاره فى الحرب الفارسية • لكن هذه المرة يجب ألا يهزم مع ذلك ! ولقد كان من الممكن ، وقد بدا لها فى حالة ضعفه ووهنه ، أن يهزم فى معركة برية كبيرة ، يجب عليها أن تتجنب مثل هذه المعركة تماما ؛ طالما أنه لن يكون هناك ذكر ـ والأمر كذلك ـ لمساعدتها له ، مساعدة أسطولها الذى يكون تقريبا نصف قوته البحرية • وفضلا عن ذلك فسوف تكون الحرب فى مقدونيا بعيدة عن سلطانها بعدا تاما ، ذلك السلطان الذى لا يزال حاسما هنا على شواطىء البحر المتوسط • ولضعف ثقتها ، على هذا النحو بعقل أنطونيوس وما ينتابه من تردد ، فيجب عليها أن تؤمنه وتؤمن نفسها ضد خطر قرارات نهائية حازمة ، فلو قهره أوكتافيوس لضاع ولضاعت هى معه ، أما باعتباره منتصرا عليه فلسوف يرجع الى روما ، لكن ليس كملك بجانب ملكته ، كما

كانت تتوقع من قيصر ذات مرة ؛ لا ! لم يكن لديه شيء من الحمية والسورة التى ألهمت قيصر فى مثل عمره .

وابتكر ذهنها المبـــدع ، فى معضـــلة كهذه طريقـــا ثالثا ، مناسبا ، وسوف يمكنها أن تتجنب القرار ، بمعركة صورية ٠ومثل هذه الفكرة لا تخطر فقط الا لذهن يختلط بكثرة من النذر وطوالع الشؤم ؛ لكن الخلاص كان لا يزال ممكنا فيما يبدو ؛ ولولا هـــذا لهوت الى صمت مميت قاتل ٠ وكذلك أمر أنطونيوس ، الذى خاطر وهو فى أثينا بقطع علاقته بروما ـ الأمر الذى كان يفوق احتمال شخصيته الضعيفة ، فقد كان ممتنا حينذاك لأنه استطاع مرة أخرى أن يبتعد عن اتخاذ قرار يتجنبه لسنوات ، منذ معاهدة أنطاكيا ٠ لم تكن جرعة سحرية ، بل شخصيته هو ، تلك التى جعلته ينساق لحكم مصيره ٠

لكن بينما رفعت امرأة عظيمة ، حتى الآن ، رجلا ذا مواهب عادية الى الجو النقى الجاف لذهنها الصافى ، فانها كانت تهبط آنذاك الى الغيوم الرطبة لطبيعته الباخوسية ٠ هنا ولأول مرة منذ أن كانت قادرة على العمل والتفكير بدأت جسارتها تخيب ، وهنا بدأ تاريخ كليوباترا يفقد معالمه المحددة ٠

- ٦ -

كان أجريبا ، وهو القائد الذى كسب لأوكتافيوس انتصاراته عادة ، قد علم من رسل كثيرين أن الاضطراب يسود معسكر العدو وقلبه ٠ فيسرع بقواته ، فى مسيرة اضطرارية ، الى الساحل الجنوبى لايطاليا ثم يحملها على أن تبحر سريعا الى الساحل الشـــمالى لبلاد اليونان ، بينما ظل جزء آخر من جيشه يواصل المسير الى مقدونيا،

حتى أن قواته كلها كانت متجهة صوب الجنوب الشرقى ضد العدو. وكان كل فريق يتحرك فجأة تحركا سريعا، لأن أى قصور فى الهمة أو تردد يتحول بما يشبه السحر الى دفعة قوية ترجح كفة العازم المصمم على الغلبة .

ومع ذلك فما زال أنطونيوس رجلا وقائدا . فما أن تلقى أنباء تقدم أوكتافيوس حتى دفع بجيشه الكبير الى الحركة فجأة ؛ مثل أوكتافيوس ، فى البر والبحر ، كما أرسل جزءا من جيشه الاغريقى بحرا الى بتراس ، وأرسل جزءا آخر على ظهر الأسطول ، وكلاهما كان ذاهبا ناحية الغرب . وبما أنه كان يأمل أن يلاقى العدو بحرا ، ولكنه كان فى حاجة الى جيشه البرى كقوة احتياطية له ، يجد فيها عونا أو تغطية لعودته ، فكر فى أن يخوض المعركة على الساحل الغربى لبلاد اليونان . واليوم ، يأخذ المسافر من أزمير الى كورفيو السفينة عبر قناة كورينثة ، وبما أن خطة قيصر لحفر البرزخ لم تكن قد وضعت بعد موضع التنفيذ ، فقد كان على أسطول أنطونيوس أن يبحر ناحية الجنوب الغربى، حول البيلوبونيز ، ثم يتجه شمالا الى الجزر الواقعة بين بلاد اليونان وايطاليا حيث يقع الحد الفاصل بين نصفى العالم الرومانى كما حدده أخيرا أعضاء الحكومة الثلاثية . وبما أن رحلة أوكتافيوس كانت أقصر فانه قابل العدو الى الجنوب قليلا من كورفيو ، بالقرب من جزيرة ليوكاس .

على هذا الساحل ، الذى هو شمال اليونان الآن ، حيث تكثر الخلجان والفرج تشق الأمواج طريقها عند أحد الأطراف بقوة خلال صخور أنف الجبل المتقدم وتجوف خليجا طوله يبلغ ثلاثين ميلا وعرض نصف ميل ولا يزيد اتساع مدخله الضيق على نصف ميل قليلا . وخليج امبراسيا هذا ، المعروف حاليا بخليج أرتا ، كمرفأ طبيعى ذى قيمة لا تقدر بالنسبة لهؤلاء الذين يبحثون عن ملجأ

يعصمهم من الريح ، لكنه خطر فى الحرب لمن يتعقبهم العدو ، طالما أنه يمكن محاصرته بسهولة أكثر حتى من حصار الدردنيل ، الذى يبلغ عرض مدخله عشرة أمثاله • وحوله مستنقعات بحيث سيكون من الصعب على أى تعزيزات أن تتقدم ، ويقوم خلفه جبل بيينديوس، الذى ربما كان حينذاك (ومع بداية أغسطس) قد فقد آخر ماتبقى له من غطائه الثلجى • هنا ، عند اكتيوم ، وعلى التحديد فى قلب الامبراطورية الرومانية ، تلاقى جيشـــا تلك الامبراطورية ليقررا مجرى التاريخ •

وصل أوكتافيوس الى موضع على التلال الواقعة شمالى الشرم، وعلى يمينه كان البحر الأيونى ، ممتدا الى شواطىء وطنه ، برنديزى، وتارنتوم ومسينا ؛ هنالك كان يقف ككلب حراسة لا تغفل عن الباب عيناه • ذلك لأن كل أسطول أنطونيوس كان فى الخليج الصغير ، على اتصال بالجزء الأعظم من جيشه الذى يمتد الى مسافة بعيدة فى البر • وبما أن العدو كان قد قطع عليه أى مدد يأتى من البحر ، فان طوابير المئونة الطويلة ، التى لم تهدأ ليلا أو نهارا ، جلبت كل مئونة الجيش من البر ، على ظهور البغال أو أكتاف الحمالين من الرجال • كان مدخـل الخليج قد أغلق تماما بعـدد من سـفن أنطونيوس ؛ ويصبح فى حمـاية ومنأى ، ولكن كموضـع دفاعى فحسب • ولو أنه ذهب الى طرف الشاطىء حيث كان يقف التمثال العظيم لأبوللو ، وراقب عدوه من هناك ، حيث كان مرابطا على جانب التل غير بعيد عنه ميلا واحـدا ، لرأى ذلك العــدو فى انتظاره ، ساكنا مثله ؛ ولرأى أيضا أن وراءه ، وأبعد من مرمى البصر ، كانت تنتظره سفن مستعدة للانقضاض على أسطوله اذا ما ظهر لها • ولقـد قام هو نفسه ، عنـدما وصـل أوكتافيوس ، بخدعته فى قوة الجيش البرى بأن حمل بحارته على التنكر كجنود فى الجيش • أفلا يجب على كل قائد أن يتـذكر هاتين المعركتين

الأخيرتين اللتين قررتا مصير روما ؟ اذ كانت هذه هي الحرب الأهلية الثالثة في جيل واحد • هكذا تماما تقابل قيصر وبومبي ، وبعد ست سنوات تقابل المنتقمون لموت قيصر والمتآمرون عليه • وفي كلتا المناسبتين كان أنطونيوس ظافرا : في معركة فارساليوس بقيادة قيصر وفي فيليبي بقيادته هو • ومن ناحية أخرى فان أوكتافيوس وقت نشوب المعركة الأولى كان لا يزال طالبا ، وفي المعركة الثانية فر من الميدان •

وحتى الجو النفسي للقتال كان هو أيضا نفس الجو ؛ ألم يكن قيصر ذاته قد وصف هذه الحرب ضد بومبي باعتبارها حربا بغير معارك ؟ فلمدة أسابيع ظل الواحد منهما رابطا في مواجهة الآخر ، وما لم يفقد أحدهما الصبر لما وقعت المعركة أبدا • هكذا تماما وقف أوكتافيوس وبروتوس في فيليبي : وواجه كل منهما الآخر لمدة أسابيع ولم يجبر أحدهما الآخر على القتال • كان يوجد دائما هذا التردد عندما يواجه روماني رومانيا آخر من نفس وطنه ، وهو تردد ليس مبعثه اباء أخلاقي ، ولكنه زعزعة وعدم ثبات بين الأحزاب المتنازعة ؛ فبينما يرتعد كل فريق فرقا من اتخاذ قرار ربما يكون من الذكاء والحكمة التفاوض وابرام معاهدة • وحينئذ أظهر أنطونيوس تفوقه وعلو منزلته في كلتا المعركتين ، بقيادة قيصر في الأولى ، ثم عندما كان وحيدا ؛ والآن ربما يتعرض للهجوم للمرة الثالثة • غير أنه الآن أضعف قلبا وفكرا • لم يكن عليه ، منذ سبعة عشر عاما ، وكقائد شاب من قواد قيصر ، بلا مسئولية سياسية ، الا أن يتقدم ، ما أن يأمره بذلك قيصر ؛ وفي المعركة الثانية كانت رغبته الشديدة في الانتقام من قتلة قيصر قد قضت على امكانية التفاوض • أما الآن ، فبوسع الملاحظ الخارجي أن يرى رومانيا يقاتل رومانيا ، لكن الأمر في جوهره ، وفي أعماق قلب أنطونيوس،

كان يتمثل فى أن رومانيا ينازع رجلا شرقيا وكان الشرقى يسعى الى تجنب اتخاذ قرار •

وعلى ظهر السفينة ، خلال أسابيع الرحلة البحرية ، أدرك نصيحة زوجته ، ومنحها قوة التصميم والفعل ؛ فالمعركة البحرية كانت هى الحل ؛ ومع ذلك فسيكون هدف المعركة لا تحطيم أسطول العدو بل انقاذ أسطوله هو فقط • هنا لم يعرض تشاؤمه أبدا لضوء العقل • فماذا سيكون من أمر جيشه البرى مادام حاضرا هنا ، مستعدا للمعركة ؟ كان قد ترك فرقا أربع على ظهر السفن فى كيرينياكا ، ومثلها فى مصر ، ومثلها فى سوريا ؛ ولم يستطع أحد من أركان حربه أن يفهم السبب فى عدم تركيز القائد لهؤلاء الثلاثين ألف رجل من قواته هنا ، اذ كانوا مازالوا يعتقدون أنه ستنشب بين الجيش معركة برية • وكان أنطونيوس نفسه يعتمد على هذه الكتائب سرا انتظارا لما يحدث مستقبلا • على أية حال ، فانه أراد أن يرحل بعد اصطدامه بالعدو الى الجنوب غير خاسر - ولم يحدث نفسه أبدا بالرغبة فى الهرب الى مصر • وهل كانت كليوباترا تحدثت عن الهروب ؟ هل تفكر حتى فيه • كلا ، وانما هى ذريعة رجل نصف مشلول ، لم يعد يجرؤ على تسمية الأشياء بأسمائها •

لم يعد ممكنا أن يظل خبر الجزء الأول من هذه الخطة ، وهو القتال البحرى ، خافيا أكثر من ذلك ، طالما كان يجب الاعداد له • هل كان القائد مجنونا ؟ هذا ما كان الضباط يفكرون فيه • أكان القائد العظيم ، بكل فرسانه ومشاته يرغب فى أن يخاطر بمصيره فى البحر ؟ وهل نسى أن كثيرا من السفن مجهزة تجهيزا سيئا وأن أسطول أجريبا قد حطم بومبى الأصغر ؟ وبدأت الأحزاب تتشكل داخل قيادة الجيش ، ومرة أخرى ، وجد فى أيام قليلة أفراد شكوا فى توفيقه ، وعلم أنطونيوس أن اثنين من الملوك الحلفاء قد فرا ثم

أعقبهما دوميليوس الرومانى · كان الهرب أمرا سهلا للغاية ؛ فماهى الا مائة خبطة بالمجداف حتى يصل المرء الى صفوف الأعداء · حينئذ ضحك أنطونيوس بصوته الهرقلى ؛ وأرسل للرومانى أمتعته وخادمه ليلحق به ، وسـمع أنطونيوس بعـد ذلك ، ربمـا برضا وارتياح ، أنه قد سقط ميتا فجأة بعد ذلك بقليل ، ربما بتأثير النـدم · ثم قيـل بعـد ذلك أن أهينوباربوس أصابته الحمى من المستنقعات الحارة ؛ وأنه أراد أن يخرج فى نزهة بحرية ؛ فسوف يرطب نسـيم البحر دمه · وبعـد ذلك بنصف سـاعة كان مع أوكتافيوس · حينئذ غضب أنطونيوس ، فهذا رجل نبيل وصديق، رجل كان يعتمد عليه ! وأى شىء يستطيع مثل هذا الرجل خيانته فيه وايصاله للعدو ! وعندما أوعز اليه بأن عضوا آخر من أعضاء السناتو موضع ريبة ، قام بقتله بيديه ، ثم انتابه الرعب بعد ذلك من فعلته الدموية ، فربما يكون هذا المساء ، وتحت تأثير كل حوادث الفرار هذه ، قد صب جام غضبه على شخص آخر ، على نحـو ماتفعل الطبائع الضعيفة ، وبالطبع على زوجته ·

فى الأحياء المجاورة لهذا المعسكر ، الذى لم يكن ثمت مدينة كبيرة يعتمد على مباهجها ، ومع رؤية العدو اليومية ، ومع توقع عمل متحفز مفاجىء ، استعادت كليوباترا طاقتها السابقة ، وعندما كان الصراع وشيكا ، لم يحدث لها أن قامت من قبل ، منذ معركة قيصر فى الاسكندرية أن اشتركت فى أى قتال حقيقى ؛ كان ذلك منذ سبعة عشر عاما مضت ، من أيام فارساليوس · ومرة أخرى رقدت فى خيمتهـا ، لكن بعـد أن حولتها مائة من الألوان التى عكستها الأقمشة الحريرية المتعددة حينذاك الى حجرة خانقة ، ملأها الجـو اللافح الرطب للخليج المغلق ، الذى تحيـط به المستنقعات الضحلة ، بهوائه الحار الرطب ، بينما كان جفاف الصحراء ، هنالك

على الحدود المصرية يكسب ذهن المرء صفاء فهل مما يدعو الى الدهشة أن تتملكها كآبة غريبة عليها فى أوقات أخرى ؟

أبقت الملكة ماشطاتها من حولها ؛ هؤلاء النسوة التى قال أوكتافيوس عنهن فى مجلس السناتو الرومانى أنهن الحكام المستوردون لمصر . غالبا ما كانت الملكة تعاملهن كصديقات ، لكن دون أن يعرف أحد كم سيطول أمد هذه المعاملة ؛ كانت تلعب معهن كما يلعب المرء مع حيواناته المخلصة ، اذ لا العصر ولا طباع كليوباترا جعلا من الصداقة الحقيقية مع واحدة من العبيد أمرا مسموحا به . كانت ترقد فى وضعها المعتاد ، وقدماها على الوسائد، وأمامها كومة من القلائد والحلى ، والأقراط ، ومشابك الشعر ، التى تتلألأ فى ضوء الشموع المعلقة ؛ وهى مجموعة من الأحجار الثمينة وغيرها ، تتطلع اليها مثلما يمكن أن تتطلع اليها امرأة فى عبادة صامتة لفترة ما . لقد كانت ، وهى ترقد هنالك ، الملكة الشرقية فى كمالها ؛ تغرز أصابعها الطويلة بين المجوهرات ، تخلط الألوان التى توائم مزاجها ، وتدندن برفق ، بينما كانت واحدة من مصففات شعرها تجلس أمامها القرفصاء والأخرى خلفها ، راقدة على بطنها أمام خزانة المجوهرات المرصعة بالذهب ، تلتقط مناولة سيدتها ما تركته يسقط ، أو كانت ترغب فيه . وربما تنقضى ربع الساعة فى هذه التسلية الصامتة ، بينما تغنى بصوتها الجميل فى عذوبة بنغمات عميقة خافتة على الدوام ، وكما لو كانت تضيق بشىء ما .

وفجأة سمعت فى الخارج صوت خطوات ثقيلة وقرقعة السلاح؛ ودخل أنطونيوس ؛ فاختفت الوصيفتان فى سكون . وفى الحال انفجر فيها بصوت صاخب متوعد : كان أفضل أصدقائه يهجرونه ويفرون ، ملوك وأعضاء فى السناتو ، رومانيون وأجانب ، وربما يكون الآن قتل رجلا مخلصا ؛ ويضغط ضباطه على شفاههم عندما يصدر أوامره اليهم خشية أن يوجد ما يدفعهم الى الظهور بمظهر

الرفض ، وذلك كله مرجعه الى فكرتها المجنونة عن معركة بحرية ! نعم ، كان ذلك بسببها ، فهي التي كانت تصب في أذنيه باصرار على الدوام ضرورة تجنب مقدونيا على الرغم من أن ذكرى فارساليوس وكل حساب معقول كان يشده الى هنالك ! تلك كانت لعنة الزواج من امرأة أجنبية ! وعندما ينسى روماني وطنه فعليه أن يدفع اذن عقوبة ذلك ! لكن الوقت الآن متأخر جدا ، وكل شيء سائر نحو الهلاك والدمار •

وبخطوات مجلجلة يقترب من الخيمة ثم يجاوزها ، ثم يخطو الآن ، متخذا في خطوة نصف دائرة ومتوقفا في الغالب لينتصب أمامها ويصب لعناته على رأسها • في أول الأمر نهضت على وسادتها في وضع راكع وفي يديها قلادة طويلة من الياقوت، لكن وقد استمر في لعناته وشتائمه التقطت الياقوت ، وتجذبه بين أصابعها ، مؤرجحة اياها جيئة وذهابا ، قابضة عليها من أسفل بكف مجوفة، مظهرة سرورها بلعبة انعكاس الضوء عليها • واذا كانت قد ذعرت في أول الأمر ، فان ملامحها أخذت تفتر رويدا رويدا مع ازدياد غضبه الأعمى • وهذا ما جعله يغلي ثورة وغيظا ، وأخيرا وقف أمامها ، ضاربا الأرض برجله ومتمتما في عنفوان غضبه ، وبحركة أمومةجذبت المجوهرات ناحيتها ، لكي تحميها من قدميه ، لكنه تتبعها بحذائه الغليظ فأبعد الحلقات الأخيرة منها ، التي كانت لا تزال في متناول قدميه ، حتى أنها طقطقت عند ضغط حذائه عليها ، وفجأة قفزت كليوباترا على قدميها •

كانت تقف أمامه آنذاك موجهة سهام عيونها السمراء الذهبية الى وجهه وقد علاه الاحمرار • كانت صامتة ثم ذهبت من أمامه بسرعة ، وبدأت تتجول بدورها في الخيمة الضيقة ، لكن بخطوات أكثر هدوءا وثباتا • وهنالك ارتمى على جلد حيوان كان مبسوطا أمام وسادتها •

وفجأة بدأت تضحك • ويا للأسف ، لقد خسر الآن مركبا على الأقل • فالعقد الذى داسه تحت قدميه كان يساوى فى قيمته مركبا على الأقل • وأما بالنسبة لروما ، مدينته المقدسة ، فليس أفضل من أن يعقد صلحا وسلاما مع أوكتافيا غدا • لم تطلب منه شيئا أكثر من الخروج من الخليج فى حرية مع كل سفنها الستين •

وضحك وقذفها بسبابه • وهذا ما جعلها فجأة تثور غضبا؛ فانتزعت خنجرا من جـدران الخيمـة ، كانت تعلقه فوق وسادتها دائما ؛ واقتربت منه وهى تمسك به فى يدها منخفضا ، وأشارت بيدها اليسرى اليه أن يخرج ، وأمرته أن يغادر الخيمة فورا •

عندما أمسكت السلاح قفز على قدميه برشاقة غير متوقعة من رجل في ثقله ، ممسكا بسيفه اذ ذاك • والآن ، وقد أمسكت بالخنجر مشـيرة الى الأرض ، شعر فحسب بتهديد يدها اليسرى الآمرة • كان المحارب فى داخله صامتا ؛ وتخيل سيد العـالم ذلك المنظر باعتباره ثورة عصبية فى ساعة غضب كتلك التى خبرها فى النساء أحيانا ؛ وضحك قليلا ، ودمدم بقول بذىء ، وترك الخيمة ببطء بضحكة أخرى عصبية ، ثم واصل الضحك ، لثوان قليلة ، كممثل كوميدى قديم بارع ، ذلك الضحك الذى وصل الى أسماعها بينما كان يقف خارج مدخل الخيمة •

وعندما زار الملكة فى ذلك المساء مرة أخـرى متأخرا • لم يذكر أحدهما ما حـدث بكلمة واحـدة • فقد أمسـكت بالقـلادة المنسحقة تداعب بها أنفه وتضحك •

- ٧ -

في مساء اليوم التالى تم الاعداد لكل ترتيبات المعركة . وكان كل جيش فى مثل هذه المناطق المتجاورة قادرا على ملاحظة استعدادات عدوه ؛ وكان هذا أمرا مألوفا مع العادة القديمة عادة الاستعداد للحرب صراحة ، فى كلا الجانبين ، لمعركة تدور فى اليوم التالى . ولكى يوهم عيون العدو بأنه واثق من النصر ، أقام أنطونيوس وليمة عند الغروب . وكان قد أمر بأن يقدم الى الملكة كل طبق قبل أن يحضر به اليه ؛ فالى هذا الحد الكبير كان حقا غير واثق منها فى أعماقه ، على الرغم من المصالحة المضحكة بينهما .

كانت الملكة قد وضعت في شعرها ، قبل تصفيفه ، أزهارا مسمومة ؛ وحينذاك ، بينما كانت تجلس بجانب القائد الذى احمر وجهه من الخمر التي يعبها ، يحيط به ضباط مخمورون ، أخذت الأزهار من رأسها فجأة وألقت به فى القدح أمامها . ثم دعته ، وهى تحييه باعتباره ديونيسوس ، ليشربا سويا من خمر ممزوج بالأزهار . وأمسك بالقدح ، ورفعه الى شفتيه ، بيد أنها أمسكت بذراعه ، صائحة : « ها أنت ترى يا أنطونيوس . أنت ترى ! لقد كان على أن أتذوق طعامك من قبلك ، أكنت كذلك ؟ وأنت ترغب فى حماية نفسك منى ؟ حسنا ، لو كنت أريد قتلك ، فانظر كم كان ذلك يهون ! » وأمام كل الضيوف ، أرغمت مجرما، كانت قد دعته لهذا الغرض ، على أن يشرب الخمر التي ألقت فيها بالأزهار المسمومة ، وفى الحال كان الرجل ميتا بعد أن تلوى على الأرض .

ربما يكفى هذا المشهد ، الذى سجله بلوتارك ، بكل قسوته القديمة ، ربما يكفى فى حد ذاته برهانا على تفوق كليوباترا وعلو منزلتها ؛ اذ بينما أعلنت عدم ثقته فيها أمام الضباط المحملقين فى

ذهول ، وأمام الجيش بأكمله من خلالهم ، لم تضع زوجها فى موضع المخطىء فحسب أمام أصدقائه ، بل انها أيضا سجلت سبقها عليه فى حالة ما اذا كان ينبغى التفكير فى قتلها بالسم ، كل هذا وهى تجلس الى المائدة ، والأزهار المسمومة فى رأسها ، وبين جرعة الخمر والجرعة التى تليها ، وفى الحال مباشرة قبل أى قرار يضمهما بالضرورة معا ٠

وعندما استقل أنطونيوس سفينة قيادته فى صباح اليوم التالى ، رأى أنها كانت متبوعة بسمكة صغيرة من ذلك النوع المسمى « معوق المراكب » ، ومن ثم ترك السفينة ، وفقا لخرافة قديمة بين البحارة ، واستقل سفينة أخرى ٠ ثم أمر رجاله غاضبا ألا يقولوا عن هذا شيئا ، لكن كليوباترا سمعت به واعتراها الشحوب ٠ وأخذ أنطونيوس ، وقد لاحظ هذا التحذير ، كل الرومان النبلاء معه ، انه الى هذا الحد الكبير لم يكن يثق فيهم ٠ وفى نفس الساعة صباحا قابل أوكتافيوس رجلا يقود حمارا ، وكان على درجة من الدهاء ، فحينما سأله عن اسمه أجاب : « اسمى هو المحظوظ ٠ وحمارى يسمى القاهر » ٠ وفى ذلك الوقت تقريبا يروى أن جنديا عجوزا صاح فى أنطونيوس قائلا أتعطيك جراحنا وايماننا ثقة فينا قليلة هكذا حتى تستودعها هذه المراكب الخشبية القديمة ؟ اترك المصريين فى البحر ، لكن دعنا ننطلق الى الشاطىء، حيث نعرف كيف نموت ونقهر أعداءنا ! » ٠

وربما كان القائدان قد سمعا فى بعض الأحيان أصوات بعضهم البعض ، لأن أجريبا ، القائد الفعلى لقوات أوكتافيوس ، اقترب بثلاث قطع بحرية مسافة ألف وستمائة ياردة بين أسطول العدو ٠ وانتظر الجميع نسيم البحر ، انتظروا سفن أنطونيوس العظيمة ، ذوات الخمسة أو العشرة أماكن للمجاديف ، التى كانت مصفوفة كذلك ثلاثا ، وهى قابعة آنذاك أمام مدخل الخليج

بلا حراك • وكانت الستون سفينة المصرية ، وقد حجبتها السفن الكبيرة فأصبح من الصعب رؤيتها ، بسبب ظلال السفن الكبيرة من ناحية وظلال التلال من ناحية أخرى ، كانت هذه السفن لاتزال راقدة ، فى هدوء ، فى مياه الخليج تحت امرة كليوباترا ، كما أصرت هى على ذلك من قبل • وحتى الآن لم يجرؤ القواد الرومان أن يقترب أحدهم من الآخر ، وربما كان سينتهى الأمر بهم الى ركود وتوقف مرة ثانية ، ما لم يقذف نسـيم البحر الذى هب عصرا ، بحاجز سفن أنطونيوس الى شطرين • ولقد بدا كما لو كانت الآلهة أكثر شجاعة من المحاربين البشر ، لكن ربما كانوا كذلك ، طالما كانوا مجرد متفرجين •

غير أن شكا معينا دخل الى عقول جند أنطونيوس • اذ أن عشر فرق قوية من الجنود وضعوا فوق ظهر مائة وخمسين سفينة ، على كل سفينة ألف وخمسمائة رجل ، وكانت حمولة ثقيلة جدا ، كما أنهم لابد أخذوا معهم الأشرعة الثقيلة على ظهر السفن كذلك • فلماذا ؟ ويا للغرابة ! لقد أشيع فيما بعد ، أن المرأة المصرية ، أمرت عبيدها سرا ، فى الليلتين الأخيرتين ، بأن يحملوا كنزها على ظهر مراكبها • تلك كانت الحقيقة ، وكان أمرها معروفا للعدو ، اذ أن اثنين من ضباط أنطونيوس ذهبوا ، فى الليلة السابقة الى أوكتافيوس ومعهم ألفان من الرجال ؛ وهناك ، قرر أوكتافيوس ، فى مجلس الحرب ، أن يسمح لأسطول الملكة بالمرور دون اعتراض لسـبيلها ، اذا ما رغبت فى الهروب • ثم حـدثت المعركة ، بين القائدين المترددين ، تلك المعركة التى عجل بها أخيرا اله الرياح ، على مرأى من الجيش ، حيث كان جنودهما يتطلعون من التلال كما لو كانوا يشاهدون مسرحا للألعاب ، ويهتفون مشجعين فريقهم •

كانت المعركة ــ فيما يرويه بلوتارك ــ أشبه بمعركة برية من أن تكون قتالا بحريا ، أو أنها ، ربما كانت أشبه بهياج مدينة،

اذ كانت هنالك عموما ثلاث سفن أو أكثر لأوكتافيوس تحيط بسفينة أنطونيوس وترميها بالرماح والحراب ، بينما كان رجال أنطونيوس يقذفون ، من أبراجهم الخشبية ، القذائف المتنوعة من آلات الحرب المستخدمة » ويكتب ديون كاسيوس فيقول : « مع الضربات المزبدة للمجاديف اندفعت مراكب أوكتافيوس الصغيرة الضيقة الى الأمام ، بحرص دائما لكى تكون فى مأمن من نيران العدو • وكانوا يحتالون ، هنا وهناك ، لأحداث ثقب فى احدى السفن ؛ واذا ما فشلوا يهرعون بعيدا قبل أن يمسك بهم ، وفى الحال ينقضون على نفس السفينة مرة ثانية أو على سفينة أخرى من السفن المشتركة • كانت سفن أوكتافيوس أشبه ما تكون بالفرسان ، مندفعة الى الأمام حينا ومسرعة الى الخلف حينا آخر ، بينما كانت سفن أنطونيوس أشبه بجنود مشاة مسلحين ومثقلين، كانت تحاول أن تحمل نفسها وتتمسك بمواقعها على قدر الامكان » •

وكانت هذه المعركة ، بالنسبة لكليوباترا ، هى معركتها الأولى منذ سبعة عشر عاما • كان كل ما تحوزه ، وكل ما ألهم المرأة المترجلة كثيرا ، تلك التى فازت بالقلب العظيم ، قلب قيصر ــ كان الشباب والحب والطموح والدفاع عن عرشها ، وعن حياتها فى الحقيقة ــ كل ذلك كان صامتا آنذاك ؛ وكثير من الظروف كانت متغيرة ومعكوسة • فقد كانت بسفنها الستين ، سجينة فى الخليج الضيق ، وبينما كان الآخرون يشعلون النار صراعا بينهم ، كانت هى تنتظر فحسب وتسمع بينما يقرر الأجانب مصيرها • ولقد جعلها السكون الذى قضى به عليها قلقة لا يقر لها قرار ، ومنذ منتصف مارس ذاك لم تكن خبرت أبدا يوما كهذا اليوم •

ففكرت فى منتصف مارس ، ووازنت بين المواقف • كانت حينذاك تحت وطأة لعنة قدر ناجز ؛ وكانت مضطرة على ذلك الى

مراجعة كل خططهـا ، وقواها ، ووسائل أمنهـا ، لكى ترتفع الى ذروة الطاقة والنشاط عندما تكون الضربة قد حلت · واليوم تخطو بقلق على ظهر سفينة قيادتها جيئة وذهابا ، محملقة فى البحر ، ومرسلة رسلها ، وعندما أعلنت صيحات أتباع أنطونيوس احتراق سفينة أخرى من سفن أنطونيوس أدركت أن المعركة قد ضاعت · فلماذا لم تصدر أوامرها اذن بالهجوم عصرا ، وتساند بجنودها وبحارتها الرجـل الذى كان يقـاتل قتالا حامى الوطيس ويصيح آمرا جاذبا القوس وملقيا القذائف بيديه ؟

ذلك لأن خطة المعركة الصورية لم تكن أبدا موضوعا لاتفاق ملزم لهما ، كما وأنها لم تكن قد اتضحت كخطة قتال ، فلم تكن فى الحقيقة أمرا متفقا عليه تماما ، وخلال الأسابيع القليلة الأخيرة ، بينما كانت بصدد التحقق من أخطار احراز نصر ، فان كليوباترا ، لابد أنها ، كزوجة جندى ، وكملكة ، وفى معركة كمحبوبة قيصر ، تصـــورت مفاخرة بعبقريتها امكانية النصر ؛ وما كانت ستتجنبه اذ ذاك ، شأنها شأن أى انسان لا يجرؤ على رفض عطايا الآلهـة انصياعا لخطة ما · بهـذا التحفظ السرى فقط ، قبل أنطونيوس اقتراحها حقيقة ، والذى كان دافعا له على القتال هنالك لم يكن أكثر ولا أقل من تأليف هذه الخطة : أى ، ارادة المحارب فى وطيس المعركة لقهر عدوه ، ولئن كان أحد سيدعه يذهب ويبحر الى مصر فتلك كانت مسألة أخرى ·

لكنها ــ وهى سجينة فى الخليج ، بعيدا عن المعركة ، وقريبة مع ذلك قربا يمكنها من سماع ما يدور فيها ، وفى وضع ، كقائد ، ربما كان فريدا فى التـاريخ الحربى ــ ألم يكن واجبا عليهـا أن تتخيل من ساعة الى أخرى ، ما سيحدث لو أن هذا القتال البحرى تقرر فى صالح أوكتافيوس ، وضد أنطونيوس ؟ ألم يكن مصيرها معلقا على شجاعة قبطان معاد جرؤ على الاقتراب كثيرا حتى استطاع

أن يشعل النار في احدى سفن خصمه الرئيسية ؟ ألم يكن مستقبل مصر ، وحياة أطفالها ، معلقة في هذه الساعة على خوف قائد منزعج قد يهجر موضعه انقاذا لنفسه ؟ وماذا سيصير اليه أمرها لو هاجم أجريبا سفينة القيادة ومات أنطونيوس ميتة بطل رومانى ؟ آن تقاد في سلاسل أرسينوى وصياح غوغاء الرومان يخرق أذنيها ، أمام عربة انتصار القاهر ، وهو يحدجها بنظرته الباردة الجشعة متشفيا ، عبر شوارع روما الى الكابيتول ، وبجانبها قيصرون ، ذلك الذى سينتقم أخيرا منه وريث قيصر الآخر !

فقدت الاعتبارات الهادئة في الأسابيع الأخيرة القليلة ، فقدت برودتها في ساعة التصميم ، وقد أحدقت مثل هذه الرؤى بكليوباترا • ولم تعد تحتمل هذا الشلل أكثر من ذلك • وصرخت طلبا للهواء ، للحرية ؛ وأعطت الأمر لأسطولها بأن يأخذ طريقه في البحر •

- ٨ -

وما هى الا ساعة تنقضى ـ حتى كانت أنطونياس ، يصحبها الأسطول المصرى بأكمله ، مبحرة في البحر الأيونى جنوبا والريح تملأ أشرعتها • وعندما ظهرت سفن كليوباترا فجأة في المدخل الضيق للخليج لم تتعقبها أية سفينة وفق ما قرره أوكتافيوس ؛ وهكذا مرت سفن رائعة لم يمسسها شىء وسط السفن المقاتلة التى تزأر ويتصاعد دخانها ، الى البحر المفتوح وكأنها تعبر حارة صغيرة • وتتفق كل الوثائق والسجلات على أن أنطونيوس • الذى لمحها ورأى الاشارة المدبرة من قبل ـ لم يتردد عند ذلك لحظة واحدة • وأقلع في الحال مستقلا قاربا ومجدفا بنفسه حتى وصل

الى سفينة قيادتها فاستقلها وليس معه الا ابنه أنتيلليوس واثنين من أصدقائه ٠

مهما يكن من أمر ، فلقد تعقبتهم فى الحال سفينتان من السفن المعادية ، فطاردهما أنطونيوس ، الذى أمسك بزمام القيادة على الفور . رجل واحد فقط جاء واقترب بقاربه من السفينة كثيرا . حيث قذف القائد بحربته ٠ هنا صاح أنطونيوس فيه قائلا :

« من تكون أنت ، يا من تتعقب أنطونيوس ؟ » ٠

وصاح الصوت مجيبا من أسفل : « أنا أيوريكليس ، ابن لاشاريس ٠ أنا مسلح بحظ أوكتافيوس فقط ، لكى أنتقم لأبى ! » ذلك أن أنطونيوس كان قد أمر بقتل والده ، وحينئذ وجه واحد من رجال أنطونيوس ضربته الى الرجل ، لكنه هرب ، وتحايل ، بمساعدة عدد قليل من السفن ، على أخذ سفينة أخرى من السفن المصرية ، التى كانت محملة بمال وفير » ٠

بعد هذا القتال الأخير والقصير انهارت معنويات القائد ، وكذلك بسبب زيادة توتر الأيام الأخيرة القليلة ، وجثمت على روحه معظم الأمور التى جرؤ عليها والتى لم يجرؤ على الاتيان بها كثقل ساحق ٠ ويقص علينا بلوتارك أن أنطونيوس جلس ثلاث ليال فى مقدمة السفينة ، صامتا لا يأكل ولا يشرب ، ورأسه فى الغالب مدفونة بين يديه لساعات أحيانا ٠ وفى آخر الأمر فان وصيفات كليوباترا قد « حملاهما على أن يكلم كلاهما الآخر ، ثم على تناول الغذاء سويا ، ويمكن القول بأنه لم ينقض وقت طويل حتى جعلاهما ينامان سويا » ٠

وتمضى أيام قليلة ، يصلون بعدها الى الساحل الجنوبى للبيلوبونيز عند تينارون ، وهناك استعاد أنطونيوس نفسه مرة

أخرى · وعرف أنطونيوس بما حدث ؛ لم يكن أحد من رجاله قد لاحظ هروبه أولا ؛ وعندما تحقق كانيديوس من الأمر ، لم يجرؤ على اعلانه ؛ وعندما أخفق القائد فى الظهور اليوم بأكمله ، عند ذلك فقط ، وكان بقية أعضاء السناتو قد ذهبوا وانضموا الى العدو ، وأذاع أجريبا نبأ واقعة هروبه ، بدأت الكتائب التى هجرها القائد تصدق الخبر ؛ وبرغم ذلك فان الجيش البرى لم يستسلم فى الحال ·

تحطم الأسـطول ، فذلك كان واضحا كل الوضوح ، لكن الجيش البرى بدا ولا يزال متماسكا ؛ حتى أن أنطـونيوس أمر كانيديوس أن يزحف الى آسيا الصغرى عبر مقدونيا · كان لايزال، وفق التقديرات المتكررة بوسعه أن يعتمد على تسـع عشرة فرقة وعشرة آلاف فارس ، وكان أبعد بكثير من أن يعتبر نفسه خاسرا ، ولم يكن أقل اسرافا من ذى قبل ، فقد أعطى أصدقاءه اللاجئين ، الذين تبعوه سالكين طرقا خطرة ، أعطاهم احدى السفن المصرية بما تحمله من مال ، كما أعطاهم أيضا رسائل لمعاضديه فى كورينثه وأثينا · ثم واصل رحلته الى مصر ·

وكان أوكتافيوس نفســه هو أبطأ الرجال تصــديقا للنصر ـ ماذا ؟ ـ أبمعركة واحدة فقط ، كسبها له أجريبا نودى به ، بالحظ والمصادفة ، فجأة لكى يصبح سيد العالم الرومانى ؟ هو ، ذلك الذى كان يتحايل باندفاع وبرود وبحساب لأن يجد طريقا له بالدهاء والخديعة بين الحركات المتنوعة للأحزاب ، طوال السنوات الثلاث عشرة الماضية ، هو الذى هزمه من سنوات قليلة فقط بومبى الأصغر ، هو الذى كان بالأمس عضوا فى الحكومة الثلاثية مكروها من كل رومانى ؛ وغير مسامح الا لأن قيصر رفعه الى منزلة ابنه ! ها هو الآن الديكتاتور ابن الاثنين والثلاثين عاما ، الذى يدين بحظه السعيد الى الثروة التى ورثها عن أبيه ، ها هـو الآن قائد لامع بفضل حماقة أقوى منافسيه ـ هو ، حفيد المرابى ، قد أصبح

وجأة سيد العالم الغربى الوحيد ! وبما أن أوكتافيوس يفتقد الى كل مايمكن أن يرفعه الى مستوى رسالة كهذه ـ يفتقد الى التقاليد والخيال والحس ـ فان أول ما حدث له فى مبدأ الأمر وهو ضيافة الجنود الجدد ـ اذ كان قد انحاز اليه فى النهاية نصف جيش أنطونيوس ـ كان موقفا غاية فى الحرج والخطورة ، طالما أنه لم يكن ليستطيع حتى أن يدفع رواتب فرقه القديمة • الشيء الوحيد الذى أدخل السرور على قلبه فى هذا الموقف هو فرصته السانحة ليصب نقمته وسخطه ، وطالما كان نادرا ما يجرؤ على الاعتراف لنفسه بأشواقه البدائية التى يحسها فى أعماقه ، وطالما أنه كان يحب أن يظهر دائما بمظهر النبيل الرواقى ، فانه كعادته ندب آخرين الى قتل أتباع أنطونيوس • وبعد هذا النصر أصبح لديه الوقت والميل الى الانتقام لأحقاده القديمة ؛ كتلك التى يحفظ ذكراها نحو منافس مهزوم منذ زمن هو كوريو ، ذلك الذى كان ، شأنه شأن زوج فولفيا الأول لا يقوى أبدا على تحمل الغلام أوكتافيوس • واذ ذاك يأمر بقتل ابن كوريو ، الذى كان قد حارب فى صفوف أنطونيوس •

واستمتع لفترة طويلة بترف الولائم وحفلات التكريم التى أعدتها من أجله روما المرتعدة • وكان على كاهنات الفستال أنفسهن أولئك اللاتى استباح حرمتهن منذ شهور قليلة مضت عندما سرق وصية أنطونيوس ، كان عليهن الآن أن يأتين لمقابلته خارج أبواب المدينة وثبت قرن سفينة أنطونيوس على معبد قيصر ، وأقام قوس نصر فى الفوريوم ؛ وتسابقت ايطاليا كلها فى اقامة التماثيل ؛ وما من أحد ليعترف بأنه كان حتى من أتباع أنطونيوس • وأعلن يوم ميلاد أنطونيوس فى مجلس السناتو يوما مشئوما ونذير سوء • وطالبت روما كلها بغزو مصر •

هنا كان الضغط مرتبطا بالنقطة الحساسة عند أوكتافيوس• ومضى القائد المنتصر الى آسيا الصغرى ، بعد شهور ثلاثة من معركة

اكتيوم ، وذلك ليتسلح ضد مصر • اذ هنالك ، عند فم النيل ، ما زال يعيش الشخص الوحيد الذى كان لدى أوكتافيوس سبب لأن يخشـاه ؛ ذلك هـو ابن قيصر الحقيقى • فيجب أن يتحطم فى نهاية الأمر •

- ٩ -

اقترب الأسطول المصرى من فنار الاسكندرية ، تزينه الزهور ومئات الأقمشة تضوى بمختلف الألوان ؛ فيجب اقناع الاسكندرية كلها بأنه عائد بعد النصر الى أرض الوطن •

ما الذى يعنيه الأمر ، لو أن اشاعة هروبه ، بالرغم من رحلة الصيف القصيرة ، سبقت وصوله على ألسنة الناس ، أو فى ذلك الغد الذى سيقص فيه البحارة المخمورون حقيقة ما حدث ؟ ثم ماذا كانت الحقيقة فى النهاية ؟ كان الأسطول عائدا الى الوطن ، بعد سنة من الغياب ، فى كامل قوته ؛ ولا يبدو على سفينة واحدة أثر لجراح ، ألم يكن ذلك نصرا لسياسة كليوباترا أن حركت أسطولها لخوض الحرب الأهلية بين القائدين الرومانية دون أن تكون قد حددت هدفا من ذلك ؟ ولو جرؤ أحد فى المدينة على أن يخبر آخر بالقصة الحقيقية فسوف يكون هنـاك ما يدفعه الى الاعتـذار على ما بدر منه •

وجـدد الخطر العظيم ، الذى كانت معرضـة له ، شـباب كليوباترا : وبعثت فيها أرض أجدادها القوة من جديد • وبحيوية كتلك التى كانت تنسـاب فى عروق المـرأة المترجلة بنت الحادية والعشرين التى أقصيت عن العرش ذات مرة ، حتى أن قيصر العجوز شعر بأنه مدفوع بجذوة نفسها المتقدة ، بهذه الحيوية ألقت كليوباترا

بنفسها فى صخب الحياة الاسكندرانية · ولئن كانت قوتها تضاءلت فانها التجأت الى الدهاء ؛ ولئن كانت قد حرمت من المساعدة الرومانية للمرة الأولى خلال خمسة عشر عاما ، فانها استفادت من ذهب البطالمة ، وبدلا من زوجها وجدت ابنا شابا ·

وطالما أصبح قيصرون حينئذ ، وقد كان فى حوالى السابعة عشرة من عمره ، رجلا حاكما لمصر وحده باعتباره ملكها ؛ وطالما عرف حينئذ أنه قيصر بطليموس حتى أن الاسكندرانيين قد نسوا تسميته بقيصرون ، فان أمه بذلك قد نالت أوفر الجزاء على ما أنفقت فى تربيته · كان أوكتافيوس ، الرجل الذى يفصلهم عنه البحر ، لا يزال يسمى نفسه قيصر ببساطة ، لكن قيصر المصرى هذا له حق أعظم فى الاسم · الآن يوجد فى العالم قيصران ·

نعم ، بينما اقتربت سفينة قيادتها المزدانة من فاروس ، وبينما كان ابنها يستقل قاربا لنقائها ، وقد بدا طويلا نحيفا ، يلتمس رؤية عينيها بنظرتها السوداء اللتين يظللهما حاجبان نادرا ما يرويان ، عند ذلك بدأت ظلال الشهور الماضية القليلة تتبدد وظلماتها تنقشع · أكانت فى حلم ؟ ألم تكن قد أبحرت من قبل ذات مرة الى ميناء مدينتها العريقة لتلتقى بقيصر ، الذى كانت حياته تزخر بخطط جديدة وجريئة ، فى شوق الى مناقشتها معها والى القتال ؟

·

هكذا كان الحال لأسابيع وشهور · وكان الناس على وعى به · وهل وجد ، بين البطالمة جميعا ، أخوة وأخوات ، مثل هذا الزوج المتآلف والمتحد بقوة بين كل من سبقهما من الحكام ؟ كان قلب الابن مملوءا حماسة ورغبة جامحة فى الانتقام ، وكان بقلبه أيضا أعظم شغف يستشعره قلب شاب ؛ واذا كانت خبرة عشرين عاما ولحظات

خوف نسوى قد حركتها فجأة الى أن تزيد من حرصها ، فان فارسا شابا كان يقف بجانبها يمنحها القوة .

ومتى كان لها من قبل عاشق أو زوج أو خادم بمقدورها أن تثق به فى جو القصر الخانق هذا ؟ ومن كان بين كل وزرائها مخلصا لها حتى النهاية ؟ لئن كان يجيئها الآن شاعر أو عالم من الموزيون ناصحا لها من جـــديد ، فانه لأشبه بتحية تأتى من عالم آخر : فكانت تبتسم وتدعه ينصرف . أو لم يكن أنطونيوس قد كذب عليها فى ضعفه والتجأ الى حيل وألاعيب المخمور ، نعم ، والتجأ الى هذه الحيل الرومانية التى سرعان ما تعلمت أن ترى أنطونيوس من خلالها ؟ كان قيصر هو الوحيد الذى وثقت به ، ومع ذلك فانه لم يخبرها أبدا بكل خططه تماما ، لو كان هناك شخصان قادران على تحقيق خطة لعالم جديد ، فمن الممكن أن تأخذ هذه الخطة طريقها المحتمل لأن أحدهما حلم بها وقام الآخر بتنفيذها ؛ عنـدما يكون أحدهما أعطى الأوامر بمفرده والآخر أطاع ؛ وعند ذلك فحسب .

لكن الآن ، وفى العام الأربعين والأخير فى حياتها ، تعلمت طبيعة كليوباترا النسوية لأول مرة منذ وفاة قيصر ما الذى يمكن أن تعنيه نصيحة رجل صديق ومساندته ؛ وطالما أن الذى أعطاها هذا السند وهذه النصيحة هو ابنها فلم تكن العلاقة الجديدة تعقدها جاذبية جنسية أو غيرة : حقا ، كانت قادرة على أن تدلف الى جمال هذا الرحاب الجديد من الحياة حتى وسط الصخب والضجيج الذى أثارته بنفسها .

ذلك لأنها منذ اليوم الأول تماما لرجوعها الى الوطن بدأت تطبق كل الوسائل الممكنة ، وتستخدم كل الأشخاص الذين أمكنها استخدامهم ، وتستغل كل الظروف المتاحة ، فى الاستعداد لكل حل ممكن للأزمة . وأعطاها الشتاء الوقت لذلك ، حيث لم يكن

بمقدور العدو أن يعبر البحر اليها ، واستفادت هي منه • وقامت في العاصمة ، بسجن أو قتل كل من كانوا موضع شك وريبة : كان الرعب ، لا حب رعاياها ، هو الحاكم الآمر اليوم ، ولئن كان أوكتافيوس سيأتى فى الربيع ، فيجب كسب الأصدقاء الذين سيساعدون فى حماية مصر • لكن منذ معركة اكتيوم ، من كان هنالك ولا يرتعد نرقا أمام حاكم العالم ؟ والملك الميدى ، الذى كانت ابنته تعيش هنا فى البلاط ، كخطيبة الاسكندر الصغير ، كيف يمكن كسب هذا الملك تماما كحليف ؟ والملك الأرمينى الأسير، الذى منحته حياته بعد النصر ، كمكافأة لمعارضته الشعرية ، يجب أن يقتل الآن ، وأن ترسل رأسه الى الملك الميدى ، حتى لا يخشى بعد ذلك عودة الشاعر الى عرشه بنصر قد يناله أوكتافيوس • وهيرود ماذا عساه أن يكون ؟ ذات مرة ، وهى مسافرة فى رحلة عبر بلادها ، كان قد بالغ فى اظهار نبله وفروسيته ، وكانت تعلم بأنه كان متآمرا على حياتها • ترى من ترسل الى هيرود ؟ واختارت ألكساس ، الذى كانت تثق فيه ثقة عميقة ، وغالبا ما استفادت منه فى علاقاتها بأنطونيوس • ولفترة من الوقت لم يكن هنالك أخبار• ولم ترد كلمة من الرسل الموفدين الى أمراء البحر المتوسط • لقد فضل الجميع أن ينحازوا الى جانب المنتصر فى أكتيوم • وعندما كانت تعوزها الكتائب يجب عليها أن تحرص بشدة على ألا يعوزها الذهب ! والخزانة التى خضعت للرومان خضوعا تاما يجب أن تمتلىء مرة أخرى حتى تفيض ! وأمرت كليوباترا بقتل مواطنين أثرياء لكى يمكنها أن تأخذ أموالهم ؛ ونهبت معابد قديمة من أجل اذابة النذور الذهبية واعادة سبكها • لكن ماذا كانت فاعلة بالخزانة ـ ماذا كانت فاعلة بنفسها لو جاء الرومان ؟ وفضلا عن ذلك أين يمكن أن يذهب الأطفال ؟ فكرت فى الشمال الغربى والجنوب الشرقى • وأرسلت رسلا الى أسبانيا وبلاد الغال ، لكى تكتشف ما اذا كان يوجد أعداء لأوكتافيوس فى هذه البلاد ، يمكنها أن

تسلحهم وأن تزودهم بمالها • وفى الوقت نفسه أرسلت جزءا من أسطولها من بيليزيوم الى برزخ السويس والآن تجر السفن على عجلات فوق الأرض الى البحر الأحمر •

وكان قيصر قد شرح ، فى أثناء رحلة القصر العائم فوق النيل ، امكانية مثل هذه المناورة • ونقلت السفينة الأولى بنجاح، لكن قائدا رومانيا ، هو ديديوس ، الذى فضل جانب أوكتافيوس، حرض العرب ضدها ، حتى نهبوا السفن وأحرقوها •

لم تكن لتستسلم • وهى الآن تفكر كيف يمكنها أن تنقذ الأطفال ؟ تبينت طريقين للقوافل من النيل الى البحر الأحمر ؛ الى الهند ، التى سمعت عنها أمورا غاية فى الدهشة والطرافة منذ طفولتها ، والهند ترتبط معها بعلاقات تجارية ـ وربما كانت بعيدة بعدا كافيا ؛ ولا يمكن بالتأكيد أن تصل أيدى العدو الى قيصرون هناك ! ان العالم فسيح ! فلم اليأس ؟ ألم يكن لأوكتافيوس العظيم أعداء كثيرون جدا الى درجة أنه قد يقتل يوما ما ، وفي أى مكان ، كما حدث لقيصر ذات مرة ؟ ومضت كليوباترا فى نضالها ، متألقة كما كانت فى شبابها •

- ١٠ -

كان أنطونيوس رجلا محطما • وكان قد أبحر ، برفقة صديقين وقليل من الأتباع ، بعد رجوع الأسطول ، الى باريتونيوم ، وهو ميناء صغير غرب الاسكندرية ؛ لم تكن لديه الشجاعة لدخول العاصمة ومواجهة الناس • فى هذا الظرف ، كان متأكدا من أن كليوباترا سوف تطلقه بسرور غير آسفة • وكانت كليوباترا تعرف نوبات الاكتئاب التى تصيبه أثر ليالى الانغماس فى السكر ؛

والآن تنتابه نوبة من هذه النوبات ، لكنها أسوأ من المعتاد مئات المرات • كان يجلس هنالك على الشاطىء مسلوب الحواس ، وهو لا يزال سيدا لأعظم جيش برى على ظهر الأرض ، ولا يزال مسيطرا على نصف الامبراطورية الرومانية : يحملق فى الأرض بغباء ، ولا يرى لأزمته مخرجا ؛ بين خطباء أغارقة أرستقراطيين ، يخطبون فيه بأمثلة تاريخية عن سوء الحظ وتقلبه،ومعه صديقه ليوسيليوس، الذى ادعى فى فيليبى أنه بروتوس المهزوم ، ومنذ ذلك الحين وقد صفح عنه وقربه أصبح مخلصا على الدوام ، وموضع ثقته لمدة اثنى عشر عاما •

ومع ذلك ، فعندما جاءت الأخبار من وراء البحار يوما ما ، بأن البقية الباقية من جيشه فى بلاد اليونان قد انضمت الى أوكتافيوس ، أراد أنطونيوس قتل نفسه • وعلى ذلك ذهب اليه ليوسيليوس ، وتكلم معه عن فيليبى ، وكيف أنه قد كسب المعركة بمفرده ، وكيف زحف ، أوكتافيوس حليفه ، متسللا ليختبىء بين الحشائش فى جبن • بذكرى هذا الانتصار ، التى لم يكن باستطاعة أحد أن يثيرها أفضل من الصديق القديم لبروتوس ، بهذا ذكر الرجل البائس بضرورة العمل •

وعندما عزم أنطونيوس ، حينئذ ، على العودة الى الاسكندرية، واقترب من العاصمة مع صديقيه أصبحت اليد العيا للجانب الكوميدى فى طبيعته • كيف كان ينبغى عليه الظهور أمام الاسكندرانيين ؟ وفضلا عن ذلك ، كيف كان سيقترب من زوجته ، التى بدت تتغافل عن وجوده بدلا من أن تركع تضرعا وطلبا للمغفرة ؟ ألم تكن أدوار المغتصبة والغاصب محفوظة ؟ هكذا بدا له ، أنها ، أى الحزب الخاطىء المذنب ، ظهرت أمام العالم بحيلة من الحيل ، باعتبارها غير مذنبة وظافرة ! ولم يكن يرى أن حيلتها هى فى شروعها فى العمل • يجب عليه أن يفعل شيئا أكثر من الفعل،

يجب عليه أن يتفلسف ، لكن بطريقة من شأنها أن يتعلم العالم منها ، وأن يرى الاسكندرية فى ضوء فلسفته •

غرب الجزيرة الصغيرة المواجهة للقصر كان حاجز الأمواج الطويل يمتد الى البحر الى أن يصل الى شبه جزيرة ضيقة ، حيث كان يوجد بيت قديم من بيوت النهو بناه البطالمة ؛ وسرعان ما أعد ليشغله أنطونيوس ، وانتقل اليه القائد المعذب مع صديقيه • وتذكيرا بتيمون ، مبغض البشر اليونانى ، أطلق اسم تيمونيوم على منزله • وهناك كان يجلس فى الضوء المتقلب فى ظل الفنار . موضعا لفضول أهل الاسكندرية ، وأصبح فى الحال غرضا لنكاتهم الخبيثة • كان يرى قواربهم تطوف حول شبه جزيرته ، واذا ما سقطت عليه نظرة غريب بينما كان يجلس قارئا فى النافذة يقطب جبينه ليبدو تراجيديا أكثر قليلا •

لم يكن هذا الرجل ، الذى هو أشد الناس فطرة ، مضطربا جدا كما كان فى هذه الأسابيع القليلة ، عندما حاول أن يبرأ من يأسه الخالص بالكوميديا بدلا من الأعمال الحقيقية • فلطالما ظل أنطونيوس على الدوام ، بسبب أزيائه الباهرة كلها ، هاويا فكه المزاج، وهو الذى كان مولعا بأن يؤدى دوره بدافع من هواه الخالص، وبدون هذا الهوى تفشل الكوميديا فشلا مطبقا ، هكذا كان يجلس هنالك يقرأ أفلاطون ، الذى لم يكن قد قرأه منذ أيام التلمذة فى أثينا • وحاول أن يرى انعكاسات نفسه فى الأساطير القديمة ؛ فى قصة تيمون ، الذى طلب الى الأثينيين أن يسرعوا ويعلقوا أنفسهم فى شجرة تينه قبل أن يقطعها • أو فيما يروى من أنه لم يكن قد عانق أحدا سوى ألقبيادس ، وأنه فسر ذلك لرفيقه أبيمناتوس : فهذا الشاب سوف يجلب كارثة لأثينا يوما ما ! لأنه حاول بكراهيته وحقده أن يسكت صوت حُبه المكبوت لروما • وربما كان هذا هو السبب ـ وربما كان مجرد مكابدة ، وشوقا الى حياة أقل هدوءا

وتعففا ـ الذى دفع هذا المنتحل شخصية تيمون ، الى أن يضع حدا لعزلته ويعود الى القصر ، بعد أسابيع قليلة ٠

أسكتت كليوباترا ، بحيلة لبقة ، ضحك الناس الصامت بأن أقامت « عيدا للضحك والخمر » حتى أن الرجل المتصدع والاسكندرانيين الناقدين على السواء استطاعوا أن يعودوا سيرتهم الأولى ٠ سوف يبلغ قيصر رشده فى السابعة عشر ، ولئن ماتت فسوف يتركز السلطان كله فى يديه ، وفى الوقت نفسه هناك أنتيلليوس ، ابن أنطونيوس من فولفيا ، الذى كان فى السادسة عشرة حينذاك ، والذى احتفظت به الى جانبها منذ معركة أكتيوم ؛ دون أن تعطيه بالطبع ، أى سلطان ولكن تعمل على خداع والده وادخال السرور عليه ٠ بهذه الطريقة جاهدت أن تجدد حيوية سياسة الدولة وأن تنبه الرأى العام وأن تعيد ، فى الوقت نفسه، معنويات زوجها ، الذى كان يمكن ، بمنبه يسير ، أن يتغير فتوره الشديد الذى لا هدف له الى نشاط وفاعلية .

وأعطت ، كل هذه الاعلانات تصحبها ولائم عظيمة ، للاسكندرانيين فرصة امتداح أنطونيوس باعتباره أبا للشابين اللذين تلقيا شملة الشجعان Toga Virilis ، وزوجا للملكة ٠ لقد فعلت ما فى وسعها لذيوع شهرته ، واحتفلت بيوم مولده احتفالا عظيما ، متغاضية عن يوم مولدها هى ٠ بل انها حتى سمحت له أن يداعب الموت بطريقته الخاصة ، اذ لكى تعيد الاحتفالات القديمة بفترته الديونيزوسية ، ولترمز مع ذلك الى الفصل الخامس ، أحيا أنطونيوس « نادى المتفردين » باعتبار أنه « نادى تحدى الموت » ٠ وهكذا كانت العربدة متفقة مع ما يمليه الموقف من خطورة ٠

ربما ابتسمت الملكة ، لكنها تركته يسلك سبيله ؛ فلماذا

تسلبه الحيوية التى عاودته ؟ بالطبع ، كانت تحبه ، واذا ما كانت لا تفكر فى قيصر فقد بدا أنها تحبه دوما · ألم يكن التوأمان ـ اللذان يظهران الآن ، فى عامهما الحادى عشر ، وقد كبرا ـ ألم يكونا برهانا على أن أمهما قد أسلمت نفسها ، ذات مرة ، لهذا الرجل ، دون غرض قصى ، ودون أمان ، ودون عهد ، ودون أن تطلب الزواج منه الا بعد انقضاء سنوات ، هذا الزواج الذى تجعله أقل النساء شأنا شرط للاستسلام وعندما كان مصير امبراطوريتها يقتضى ذلك ؟ نعم ، لقد أغرته بالابتعاد عن روما ـ كان ذلك حقا ، لكنها كانت معدة لانجاز هذه السياسة والحفاظ عليها ، سياسة قلبها وامبراطوريتها · نعم كانت تحبه حقا ، ولم يجد الكتاب القدماء ، الذين كانوا جميعا أعداء لها بغير استثناء ، لم يجدوا مطلقا ما يتصيدونه ضدها من أنها اتخذت لها عشيقا خلال حياتها الزوجية ·

وكونه قد كرهها فى بعض الأوقات ، كما فى تلك الساعة التى سبقت المعركة مباشرة ، فليس ذلك نقضا لحبه لها · فأنطونيوس الذى كان سجين جسده كلية ، كان يجد متعته على الدوام معها ، والآن ، وقد أصبح رجلا بدينا فى أوائل الخمسينات ، وقد اعتاد تماما عشرة رفيقة مجرية فانه فى وضعه الراهن هذا متعلق بزوجته التى لا تكل أكثر من ذى قبل ، وحالما هجر سياحاته فى الأفلاطونية ؛ وقد اتضح له أن ما تؤدى اليه الفلسفة من حصاد لقليل ·

وكان عليهما قبل أن ينقضى وقت طويل أن يبرهنا لنفسيهما على حبهما المتبادل ·

وجاء هيرود الى الاسكندرية ، حاملا أنباء مشئومة ، متظاهرا بأنه قدم ليتفاوض فى عقد حلف · وعرفا منه حقيقة الكتائب التى

كان يجهزها اوكتافيوس ؛ وأنه قد نقل سفنه عبر برزخ كورينثه على عربات ، فى نفس الوقت الذى كانت تحاول كليوباترا فيه أن ترسل سفنها عبر برزخ السويس •

لكنه عندما أصبح مع أنطونيوس أخيرا بمفرده ، أعطاه ، أى هيرود ، نصيحة خاصة : فيمكنه بضربة واحدة أن يجعل مصر ولاية رومانيـــة وبذلك يرغم اوكتافيوس على الموافقة على عقد حكومة ائتلافية ثلاثية من جديد • وليس عليه الا أن يقتل الملكة •

كان هذا الرجل هو نفسه الذى أحجم عن قتلها فى وادى الأردن لأنه كان خائفا فحسب • وربما فشل حتى عيون كليوباترا فى أن يسترقوا السمع وينقلوا ما دار فى هذه المناســـبة من همسات • وبالطبع صد أنطونيوس الرجل • فهكذا كان اخلاصه لزوجته شديدا جدا حتى أن هيرود وجد من الضرورى أن يسرع فى الرحيل ، لأنه شعر بأنه الآن ضيف على عدو • وذهب مباشرة الى رودس ، حيث كان ينزل أوكتافيوس ، وأظهر ولاءه وخضوعه وقدم له هدايا من الذهب ، ثم أخبره بما سمعه عندما قابل أنطونيوس ، وسمح أوكتافيوس له بأن يظل ملكا على مملكته كمكافأة له •

لكن هيرود الخائن أثار حماســة أنطونيوس للنضـــال ، وحينذاك ألقى بنفسه فجأة فى خضم الأعمال لاستعداد نشط ، ومرة أخرى أخذ يعمل مع الملكة وابنها جنبا الى جنب • وكانت أحدى عشرة فرقة ما تزال عاطلة بغير عمل فى سوريا وآســـيا الصغرى ، وليس بها الا نصف عددها من الضباط فقط • ربما كان يستطيع أن يدفع لها أكثر من أوكتافيوس ؟ ورحل أنطونيوس ليكسب هذه الكتائب الى صفه ، حتى ضد ارادة ضباطهم الخاضعين؛ ويبدو ، أول الأمر ، أنه كان مضطرا الى قتال قائده ، جاليوس • لكنه عندما اقترب من فرقه القديمة ، واستطاع أن يخطب فيهم

بصوته المرعد القوى أمر جاليوس بدق الطبول لتغطى أصواتها على كلماته ــ وهكذا جرب أنطونيوس المسن نفس النكسة التى صادفها من قبل ذات مرة على يد ليبيديوس ٠

ثم تذكر عدة آلاف من المصارعين ، كان قد ألف منهم فرقة وتركهم فى سوريا ؛ وكان قد دربهم ليحتفلوا بانتصاره ٠ هؤلاء الجنود الذين استدعاهم عن طريق رسول ، اتجهوا فى الحال صوب مصر ٠ لكن قائدا آخر حاصرهم ــ ذلك هو ديديوس نفس القائد الذى سلم سفن الملكة للعرب ــ وضاع كل شىء ، لأن اوكتافيوس كان قادما اليهم الآن ٠ ورجع أنطونيوس الى العاصمة : فيجب أن تكون مجهزة للدفاع ٠

كان هنالك حينذاك مشهد مريع ؛ فلكى تنقذ كليوباترا ابنها أمرته أن يغادر البلاد ٠ أمرته بذلك عيناها وأغراه صوتها ؛ فقد مارست كل ما لها من سلطان عليه كملكة وكأم ؛ لكن ذلك الشاب ، الذى أصدرت أمرها اليه كان قد تعود ، خلال العامين الأخيرين ، أن يحكم كملك ، معها وبدونها على السواء ٠ وعندما بينت له أن كل شىء سوف يضيع اذا ما ظل فى مصر ، وأنه سوف يقدم عاجلا أو آجلا لنجدتها أو للانتقام لها ، عند ذلك فقط نجحت فى اخضاع روحه الشابة ٠ وفى عدد قليل من السفن المحملة بالأسلحة ، وفوق ذلك بالذهب ، أرسلت فى اثره كل ما كان فى حاجة اليه ليتخذ طريقه الى الهند ٠ وكان على معلمه القديم أن يصحبه أولا عبر الصحراء حتى « قفط » الواقعة على النيل ، ثم الى ميناء بيرينكى بعد ذلك ؛ ومن هناك بامكانه أن يكمل الرحلة الكبيرة الى الهند مع السفن المحملة بالتجارة الى ذلك البلد ٠ وبوسعه فى الهند ، بين الشعوب التى كانت تعرف المصريين من خلال التجارة معهم ، بوسعه أن يجند الرجال ، ويرجع ليطرد الرومان ٠

لم تستطع كليوباترا أن تسلم بخطة خيالية كهذه ، لكنها كانت تعلة فقط لتبعد الغلام وتنقذ حياته • وهذا ما فهمه قيصرون، بالطبع ، وواجهه بخطته السرية الخاصة به • فلو ضاع كل شيء في الاسكندرية ما الذى سيتبقى هنا لانقاذه ؟ لكنه لو ظل حيا ، فسوف يأتى اليوم الذى يستطيع فيه أن يقود حزبا رومانيا ضد اوكتافيوس ، أفلم يكن هو ابن قيصر ؟ وهذه المغامرة التى كان ماضيا اليها حينذاك أعظم بكثير من نضال أخير يائس • ولسوف يرى !

يجب أن يبقى هروب الملك سرا • وعندما اختفت مجموعة الفرسان الصغيرة ليلا فى الصحراء مباشرة خلف المدينة ، وبينهم قيصر المتنكر ، عرفت كليوباترا أنها لن ترى ابنها مرة ثانية • فلو أن الآلهة تحفظ فحسب هذا الشاهد على حلمها العظيم ! هنا شعرت بأن تاريخها قد بلغ نهايته ، وأنها تستطيع فقط أن تموت، كما عاشت ، فى كبرياء وجمال •

— ٩١ —

دخل اوكتافيوس مصر من بابها الشرقى ، دون مجابهة فى أغلب الأمر • واحتل بليزيوم • وحدثت كليوباترا نفسها ، وهى فى قصرها بذكريات شبابها • كان نفس القصر ، وأعدت المدينة مرة أخرى للدفاع ضد جيش كان يقترب عبر الدلتا ، ومرة أخرى كان الى جانبها رومانى ، غير أنه لم يكن قيصر • لكن الوقت الآن وقت حرب ! وليس وقت الذكريات ! وقت عمل ما يمكن عمله ! وقت كسب الوقت ! هل كان حقا أن رسولا قادم من أوكتافيوس فى الطريق اليها ؟ ليدخل الرسول اذن !

وجاءها نبيل رومانى يدعى ثيرسوس . فان أوكتافيوس يرسل تحياته اليها . لقد أحبها على البعد منذ زمن طويل ! ولسوف يترك لها راغبا أرض مصر ، والتاج ، وأطفالها . وليس عليها الا التخلص من أنطونيوس ، وسوف يكون كل شىء بعد ذلك سلاما وسعادة !

وفكرت الملكة . لكم كان غبيا ! ولكم كان فظا ! وبعد ذلك سوف يزحف الى العاصمة لينتقم لموت أنطونيوس الرومانى ، ويحطمنا ! فياله من وغد حقير ، وياله من سبة لاسم قيصر ! لكنها لم تقل للرسول هذا كله ، وحتى لم تقل « لا » ، واحتفظت بالرومانى فى البلاط ، طالما أنها كانت قادرة فى الأمسيات الطويلة على أن تحصل منه على أشياء كثيرة نافعة كان سيظل صامتا بالضرورة بشأنها . لكن الدهشة لحقت بكليهما بعد ذلك : أصبح أنطونيوس غيورا ، سواء من الرسول أم من سيده ، ترى ، هل كان يفكر فى الأزهار المسمومة فى شعر كليوباترا ؟ وفجأة دخل عليهما الحجرة وضرب الرومانى بقسوة ثم طرده ، معطيا اياه رسالة الى اوكتافيوس قائلا له فيها : لقد كان ثيرسوس وقحا ؛ لكن اذا ما كان اوكتافيوس قد شعر بالاهانة فلديه هيباركوس رهينة أنطونيوس ، وانه كان يرحب جدا بشنقه !

لكن الملكة غيرت خططها فجأة ، حيث لم تعد المسألة بعد مسألة انصات أو اغراء على الفعل ، وطلبت من الرومانى المذعور أن يخبر سيده بأنه ان كان يريد رأس أنطونيوس فليأت فقط ويحتل المدينة ويأخذها عنوة ! بهذه الصيحة المخيفة علم أنطونيوس بالخطة الفاشلة ، وربما أخبر زوجته ، بضحكته الصاخبة المدوية، بنفس الطلب الذى كان هيرود قد طلبه منه مؤخرا فيما يتعلق بها .

كان الوقت وقت الاستعداد ، وحينئذ نقلت كليوباترا كل ما كانت تملكه من ذهب ومجوهرات ومن عاج وحراير وروائح أجنبية أيضا ، الى مقبرتها المصرية التى بنتها منذ زمن طويل وفق طراز مقابر أسلافها • كانت قريبة الى القصر تماما ، والى الناحية الشرقية من أنف الجبل المتقدم فى البحر ، عند ليوكياس ، كانت جزءا من معبد ايزيس الذى كان يسمى أيضا معبد أفروديت ؛ اذ أنها عندما كانت قد بنته هناك ، فى سنوات سعادتها ، كانت قد شعرت بأنها تؤدى هذا الدور المزدوج : دور ايزيس وأفروديت • ويوما بعد يوم أخذت آنذاك تحول جزءا من نشاطها ، الذى كان يجب أن يكرس لمشاكل الدفاع ، الى منح الكنوز ، فى غرفة الدفن هذه ، تلك الكنوز التى جمعتها هى وآباؤها من قبل • اذ لو جاء العدو فينبغى أن تحرق نفسها ، ومعها كل هذه الكنوز التى كان العدو يسعى اليها ، فى هذه المقبرة ، فتلك هى رغبتها •

كان الوقت شهر يوليو ، لكن الجو كان رطبا رطوبة كافية ، فى هذه الغرفة المقبية بغير نوافذ ، والتى لم يكن بها سوى فتحة صغيرة فى أعلى القبة • كانت هناك غرفتان فى الواقع ، لكن الباب كان معدا بحيث يسقط فى تجويف ؛ وأى شخص يترك فى المقبرة كان سيظل سجينا • فمن اذن الذى سيشعل النار فى الجميع ؟ وافقت وصيفتاها المخلصتان على الموت معها لكنهما كانتا من الضعف بحيث لا يمكنهما القيام بهذا العمل بنفسيهما • وفى هذه الورطة استشارت طبيبها اوليمبوس ـ ولقد جاء تقريره الينا من خلال رواية بلوتارك ـ فنصحها بأضمن أساليب الموت : بسم الحيات •

لكن أية حيـــة ؟ تلك كانت المشكلة . ان الخواص التى استلزمتها كليوباترا من سمها هى بحيث يجب ألا يكون مؤلما جدا ،

ويجب أن يكون مفعوله سريعا ، ويجب ألا يشوه هيئتها . وجيء بمجرم الى القصر ؛ ورقدت على وسائدها بينما ركع الرجل المكبل بالقيود فى وسط الغرفة ؛ وقدم أحد العبيد سم الحية اليه ، فتلوى من الألم ومات . لكن ذلك لن يجدى . وغدا يجب أن يجربوا نوعا آخر . وتكرر المنظر مع نوع مختلف . فى هذه المرة اقتربت من الرجل وهو يموت ، يدفعها شوق شره لأن تعرف ما كان يشعر به . ولقد بدا موته غير مؤلم بالمرة ، لكنه عاش لمدة ساعة . وأخيرا وجدوا النوع المطلوب ، فهذه المرة بدا الرجل وقد سقط فى الحال بعد أن لدغته الحية ، فى نوم ، ولم تكن هنالك أية مقاومة ، واكتست ملامحه تعبيرا مرحا ، وعندما نادته باسمه ، وشفتاها لاصقة بأذنه ، أتى الرجل وهو يموت بحركة دفاع يسيرة ، كما لو كان غير راغب فى أن يوقظه من نومه الهادىء أحد . كان هذا ما أرادت ، وعلى ذلك أعدت للأمر عدته .

لو أنها استرجعت تاريخ فترتها ، لكانت واجدة للانتحار أمثلة كثيرة . كان الرومان مدمنين عليه عندما يبلغ الخطر مبلغه ؛ وكانوا يعتقدون أن الرومانى فحسب هو الذى يستطيع قتل نفسه . ومن بين الرجال الذين قتلوا قيصر ، سقط أربعة أو خمسة قتلى بسيوفهم . كما سمعت عن كاتو ، أنه وقد هزمه قيصر ، رقد فى سريره مساء يوم بأكمله ، يقرأ محاورة « فيدون » لأفلاطون ، وهو وحيد تماما ؛ ثم أغمد الخنجر فى صدره . وكان كل واحد قد سمع الكلمات النبيلة التى قالتها آريا ، تلك التى طعنت نفسها ، عندما حكم على زوجها بالموت ، وأمسكت بيده قائلة وهى تبتسم : « ها أنت ترى ، انه لأمر غير مؤلم . » لكن كليوباترا اهتزت مشاعرها من الأعماق لذكرى طفولتها عن عمها ، الذى كان قد قتل نفسه تجنبا للعار .

كانت كليوباترا على استعداد لأن تتبين أنه ليس ضروريا أن يكون المرء رومانيا ليقضى على نفسه بالموت ، وفى نفس الوقت كانت مصممة على القتال طالما كان هنالك أمل • وكان أنطونيوس أيضا مستعدا ، وكان يبدو أنه سوف يسعى الى الموت فى المعركة • فالآن قد ظهر أوكتافيوس أمام أبواب المدينة • واستعاد أنطونيوس شبابه ، اليوم عاد مرة أخرى قائدا للفرسان ، وكما كان قد أحرز الانتصار على اوكتافيوس ذات مرة ، فانه الآن يدفع بفرسانه ، فى ميدان السباق ، الى القتال أيضا • الآن تألقت شخصيته القديمة الحقيقية ؛ وعندما دخل غرفة الملكة تكلم كرجل مفتون نشوة ؛ ووجدها ، كما يقول بلوتارك ، مدججة بالسلاح ، فقبلها وقدم لها ضابطا كان قد حارب من قبل ببسالة بالغة • وابتسم له فى اشراق، ثم أعطاه درعا ذهبيا • فى ذلك المساء نفسه هجرها الضابط هذا الى صفوف العدو •

فى مثل هذه الأجواء المتقلبة ومع الضربات المرعدة تقذفها صوب الأسوار مجانيق العدو ، ومع شغب المواطنين ، بعضهم يقاتل ، وبعضهم يطلب العفو ، وفى حرارة يوليو اللافح ، ومع الخيانة المتكررة وتلقى أنباء الشؤم المتلاحقة ، شعر كلاهما بأن المدينة سوف تسقط غدا • حينذاك تحدى أنطونيوس خصمه أن يبارزه ، مرة أخرى • وأرسل اوكتافيوس اجابته الساخرة ، قائلا ان على أنطونيوس أن يجد وسيلة أخرى من الوسائل ليموت بها • وفى الليل جلس أنطونيوس الى وليمة بين ضباطه ، وبينما كان يتناول الشراب قال انه سوف يطلب غدا الموت لا النصر • وفى الغد سيكون لهم جميعا حاكم جديد •

فى تلك الليلة نفسها ظن كثيرون من سكان المدينة أنهم يستطيعون سماع وقع الأصوات وآلات الموسيقى ، كما لو كان

أتباع باخوس يرقصون ، فى طابور غير مرئى ، خارج المدينة وفى معسكر العدو .

رغب أنطونيوس فى أن يقاتل برا وبحرا . لكنه شعر فى اليوم التالى أن الخيانة قد وقعت فى كلا الميدانين . فقد رأى ، وهو يرقب الموقف من فوق تل صغير ، أن السفن التى ارسلها من الميناء لتشتبك مع العدو ، رآها تحيى ذلك العدو بمجاديفها . واستجاب العدو للتحية ، وتآخوا جميعا رومانا مع رومان . وآنذاك ، وقد قاد فرسانه عبر البوابة الشرقية ، ليشتبك مع فرسان اوكتافيوس مرة أخرى ، رأى جميع فرسانه ينضمون الى العدو . وزأر كثور جريح ثم ركب راجعا الى القصر خلال ألف من سكان العاصمة الفارين ، واقتحم البـــاب ، بقـوة متبوعا باثنـين أو بثلاثة من الجنود ثم زأر قائلا : « الخيانة ! لقد خانتنى ! الملكة متحالفة مع العدو . »

ولكن ، فى هذه اللحظة تماما ، اقترب منه رسول : فلقد قيل ان الملكة ماتت .

- ١٢ -

لم تكن الملكة ميتة ، لكنها اعتقدت ، أن أية رسالة أخرى لا يمكن أن تصلها فى المقبرة . وفى ساعة الاستسلام أسرعت الى ضريحها مع الوصيفتين . وهنالك أنزل النســـوة الثلاث الباب الثقيل عن طريق الحبال ؛ وأصبحن مع الكنز وحدهن . أخيرا ، كان بوسعهـا آنذاك أن تعتمد على الخنجر ولن يتمكن أحـــد من الدخول ، ومن الضرورى أنها كانت هنالك منذ ساعة عندما سلمت رسالتها الى أنطونيوس .

لم يكن معه خنجر ، وهو فى القصر وحيد ، وقد ذهب الخدم جميعهم الى المنتصر ، لكن لديه سيفه فحسب ، ومن الصعب ، أن يلقى المرء نفسه على سيف طويل ، دون مساعدة ، الأمر الذى يعلمه جيدا كل رومانى وهو يموت • غير أنه كان لا يزال معه حامل درعه ، وكما كان قد ناشد الغلام ، فى أثناء انسحابه الى أراكسيس، أن يقتله متى أمره بذلك ، فانه طلب أيضا نفس الطلب من حامل درع آخر اسمه ايروس • ربما كان سيناسب أنطونيوس أن يموت بيــد ايروس ؛ لكن ايروس لم يجرء على قتل سيده ، فاســتدار وقتل نفسه بالسيف الكبير • فقوى هذا من عزم أنطونيوس وألقى بنفسه على السيف • وسقط ، لكنه لم يمت • وصرخ طالبا أحدا أن يقتله •

فى نفس الوقت وصل عدد قليل من العبيد • ووجدوه هناك، وأخبروه بالمكان الذى ذهبت الملكة اليه ، وأنها ما زالت تعيش ، فرجاهم بصوت ضعيف أن يحملوه اليها • ففعلوا ذلك ، وطرقوا الأبواب ، وأعطو كلمة السر • ووجدت كليوباترا التى لم تيأس مطلقا ، ذريعة حتى الآن ، وأخبرت رجالها أن ينصبوا السلالم حتى منفذ السقف ــ وغاصت كلماتها فى الغالب مع صدى الغرفة المغلقة ــ وحيث ربطــوا النقالة بالحبــال ، جذبت النســوة الثلاث الرجل المحتضر الى المقبرة .

يصعب أن تكون هذه التقارير التى سجلها الكتاب القدماء مجرد روايات مختلقــة ، لأن الطبيب أوليمبــوس ، هو آخــر من تكلمت كليوباترا اليه ، يعطى تفصيلا لكل ما حدث ، وليس هنالك ما يمكن أن يكون اكثر صدقا فى الشهادة • ما هى تلك الرغبة التى أبداها أنطونيوس المحتضر ؟ بينما كانت الملكة تنوح طلب هو خمرا ! وهكذا ، بعد أن استعاد قوته قليلا للحظة ،

نصحها بما يجب عمله : فمن بين كل أولئك المحيطين باوكتافيوس يمكنها أن تثق فى بروسيليوس فقط • كان أنطونيوس القديم الذى يفيض مرحا وبهجة هو الذى يصفه بلوتارك فى النهاية على أنه القائل لكليوباترا : « بالنسبة لى ، عليك ، بالأحرى ، أن تبتهجى لذكرى سعادتى الماضية لا أن تندبى سوء حظى الراهن ، طالما أننى كنت مجيدا فى حياتى ومجيدا فى مماتى . لقد هزمت كرومانى ، وبرومانى فقط كانت هزيمتى • »

مات أنطونيوس فى اللحظة التى أطل فيها بروسيليوس نفسه برأسه من أعلى السلم • فان اوكتافيوس يرسل الى الملكة احتراماته وتحياته ! وليس بها حاجة الى الخوف ؛ فلن يلحقها أذى أبدا !

وأجابت بأنها سوف تفتح اذا ما وعدها اوكتافيوس فحسب بتاج مصر لابنها قيصر • وكان مشهدا فريدا ، يقوم على الكوميديا، حيث كانت تجرى المفاوضات فى أشد الأوضاع المصطنعة خطورة• ولم يطل الرومان الموقف ، فنزلوا الى القبو عن طريق الحبال ، ورفعوا الباب الغائر ، وهنا أصبحت المقبرة معبدا مرة أخرى يمكن لأى أحد دخوله •

حدث هذا كله بأسرع مما كانت تتوقع كليوباترا • من سيحضر لها الحيات الآن ؟ لكن لا يزال لديها خنجرها • وتحسسته ، فأمسك الرومانى بذراعها • وفقدت المرأة المترجلة سلاحها ، فى المقاومة • ودخل الحجرة رجل ثان وثالث بأوامر جديدة ؛ وكان عليها أن تستسلم • وقفت الملكة بينهم عزلاء من السلاح دون حماية ، بين زوجها الميت والمرأتين اللتين تبكيان على الأرض • حينئذ أمر الضابط رجاله أن يبحثوا عن اسلحة قد تكون مخبأة • تلك كانت لحظة مخيفة ! تحسس جسدها ستة من

الرعاع بأيديهم ، دون أن يعرفوا ما هى حدود حرياتهم فى البحث والتحرى • ووقفت ويداها مرفوعتان فوق رأسها مرغمة • وكان هذا هو الهوان الوحيد فى حياة كليوباترا •

— ١٣ —

يقال أن قيصر عندما تلقى رأس بومبى الدامية بكى فى صمت •وفى نفس الحالة ، أرسل اوكتافيوس يطلب أصدقاءه وضباطه ، ثم فتح حزمة من الوثائق كان يحملها معه دائما ، وقرأ عليهم قليلا من رسائل أنطونيوس المتعجرفة ، مع نسخ من ردوده المتواضعة عليها • وهكذا أظهر للعالم أى الرجلين أفضل • ثم ذرف « قليلا من الدمع » وأرسل فى الحال بروسيليوس ليأتى بالملكة حية » • « ذلك لأنه كان فى غاية القلق على انقاذ الكنوز من الآثار ، تلك التى كانت ستضيف الى مجد انتصاره اضافة بالغة العظمة » فيما يقول بلوتارك •

ودخل الاسكندرية فى عصر ذلك اليوم • وخر الآلاف سجدا أمام القائد ، الآلاف ، الذين رأوا فى شبابهم ، منذ ثمانى عشرة سنة مضت ، قيصر وكليوباترا يدخلان المدينة • وكان هناك مئات الألوف من بين الذين وقفوا منذ عامين فى المكان الفسيح ، حيث ظهر انطونيوس ، على اعتبار أنه ديونيسوس ، بجانب الالاهة ايزيس • والآن يرقدان فى المقبرة : هو ميت ، وهى سجينة ذليلة • لكن الرجل الفاتر القلب كان أذكى مما كانت عليه أرواحهم المتأججة ، اذ طلب من المواطنين أن ينهضوا ، فلن يمس أحدهم بسوء ، لأن هذه كانت مدينة الاسكندر العظيم ؛ ساعتها كان يقف بجانبه فيلسوف عظيم هذا هو الرواقى أريوس ؛ الذى كتب له الخطبة اليونانية التى سيلقيها • وبعد ذلك سار الموكب ،

ولا يزال ينهج فى ذلك نهج قيصر ، الى مقبرة الاسكندر ، وأمر أوكتافيوس بأن يفتح لكن بدلا من أن يظهر ولاءه واجلاله للميت ، تحسس الجسد ، حتى أن قطعة من أنف القاهر علقت بيده . وفى رعب ألغى برنامج زيارته لمقابر البطالمة بعد ذلك .

ويبدو أن كليوباترا قد ترددت للخطة ـ أو ربما لأيام ثلاثة فى الواقع . فلو كان بامكانها فحسب أن تنقذ مصر من أجل أولادها لتحملت فى سبيل ذلك أى شيء ـ أى شيء ، اللهم الا شيئا واحدا ! ولكنها لو علمت يقينا ما كانت تعرفه فقط ظنا وتخمينا ـ لو علمت أن أوكتافيوس كان يخدعها ، وأنه سيأخذها معه الى روما ، ليعرضها على الشعب فى موكب انتصاره ـ حينئذ كانت تعرف ما يجب عليها عمله . أعقب الرسول الرسول . فلو انها كانت ستقدم معه فلسوف يستقبلها كملكة . وظلت حيث كانت ، فلم تكن تثق فى اوكتافيوس . ووصل رسول آخر : أن أوكتافيوس يحذرها من قتل نفسها ، والا فسوف يقتل التوأمين على ذلك . وأصابتها الحمى من الحزن والجوع والخوف والحر معا ، ولا يدرى أحد على أى شيء كانت ستوافق ، فى هذه الحالة من الضعف ، لانقاذ الأطفال ، أو الى أى مدى صدقت الرجل الذى كانت تكرهه من الأعماق . لكن أتى فى النهاية ، وقبل موتها، دور جمالها مرة أخرى لنجدتها ، ذلك الجمال الذى عاشت بسحره دوما .

كان دولايلا ، وهو ضابط شاب ، يعبد كليوباترا على البعد، برغم أنه لم يرها مطلقا ، قد صمم على أن يقف الى جانبها ، طالما لم يفعل ذلك أحد سواه . وبما أنه كان من بين صفوة اوكتافيوس فانه عرف نية هذا الأخير نحوها . فسوف يبحر بعد ثلاثة أيام، ويأخذ الملكة وأولادها الثلاثة معه الى روما . جاهد دولايلا

لزيارتها فى الضريح مجازفا بحياته ، ولكى يقابلها فى غيـاب أى رقيب ، وليهمس فى أذنيها بما عرفه وكان آخر عابد لكليوباترا ٠

عرفت اذ ذاك كل ما كانت فى حاجة الى معرفته . وأبصرت حينئذ ، أرسينوى ، تمشى فى الأغلال ، وعيناها على الأرض ، أمام الجياد الأربعة فى عربة المنتصر ، هكذا سارت فى طريقها المرسوم الى الكابيتول ، وقد ارتوت كليوباترا فى أعماقها بلذات الانتقام . وكذلك امرها الآن ، سيراها مئـة ألف من الرومان فى موكب النصر ، كلهم ممقوتون لهـا ، كلهم رعاع ، كأولئك الذين كانوا يتحسسون جسدها منذ وقت قريب ـ لكنها لا تمقت أحـدا منهم مقتها له ، هـذا الذى كان سيقف على العربة مسـتمتعا بانتقامه العظيم ! ولقد قر عزمها على القرار . كان ذهنها صافيا مرة أخرى . وكان كل شيء يعتمد على قدرتها على خـداع اوكتافيوس بأنها ترغب الاستمرار فى الحياة !

وأرسلت اليه رسالة ، ترجوه أن يدفن أنطونيوس دفنـا ملكيا واستجاب لطلبها ، وأدت المرأة ، التى كان يمكن أن تكون بطبيعة الحال صامتة بجوار قبره ، أدت دورا ليشاهده المشاهدون وصاحت قائلة : « آه يا انطونيوس العزيز » ـ قالت ذلك بطريقة تراجيدية أمام أولئك الذين سيصفون المشـهد لأوكتافيوس ـ « آه ، ان يداى ما زالت حرة كما كانت فى الماضى ! بيد أنهما الآن يدا أسيرة ! لقد فرق الموت بيننا ! فها أنت تسـتقر كرومانى فى أرض مصرية ! وأنا ذاهبة لأبحث عن نهايتى فى بلدك (لو أن لآلهة الجحيم سلطانا ، فأتوسل اليهم بك اذن ، وطالما أن الآلهة العظمى قد تخلت عنى ، لكى لا أجلب لك العار فأرغم على السـير فى موكب النصر ! » .

وفى اليوم التالى تجلت لها فى الضريح نية القاهر .

لم يكن لديها الشجاعة ولا الرغبة فى النهوض ، وظلت فى السرير ، شعرها غير مصفوف ، ومرتدية قميصا طويلا ، يكسبها الحزن والدموع كآبة . ودخل اوكتافيوس عليها بانحناءة مجاملة من رجل العالم . لكنه حملق فيها حينئذ بعينى عدو فاترتين نافذتين . قيصر ، عدو لقيصر ! ولم تستطع عيناها أن تلمح فيه غير عدو لابنها ، وعبثا بحث هو فيها عن السـحر الذى اشتهرت كليوباترا به .

الآن ، عليها أن تؤدى دورها حتى النهاية بذكاء . عليها أن تجعله يعتقد حتى النهاية أنها تريد الحياة والاستمتاع بها ، ذلك اذا كان عليها أن تكسب وقتا ، وتكسب ثقة ، وتضمن حصولها على الحيات . ماذا كان يفعل ، خلال كل هذه السنوات ، أولئك الذين تضرعوا اليها ، الى الملكة الجليلة العظمى ، طالبين الرحمة والعفو ؟ كانوا يلقون بأنفسهم أمامها . ونهضت كليـوباترا من سرير مرضها وألقت بنفسها على الأرض تحت أقدام الرومانى ، وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى فعلت فيها ذلك . ونصحها مجاملا أن تثق فى حلمه . وبما أنها عرفت ما كان يريده فى الواقع منها فانها أرسلت تطلب قائمة كنوزها . وأخذ القائمة بشغف، وهو مستغرق فى النظر اليها وفى فحصها أكثر من النظـر الى الملكة ، وعندما جاهر وكيل خرجها ، فجأة ، بأن هذه القائمة لم تكن كاملة ضحك اوكتافيوس . وعلى أى الأحوال ، فان كليوباترا لطمت وكيل خرجها وجذبت شعره ، ربما لتبرهن على حيويتها، حتى سقطت على سريرها مجهدة .

وصاحت قائلة : « يا للوقاحة ! أيتهمنى خادم باخفاء قطع قليلة من المجوهرات ! كنت أنوى أن أهـديها لأختك اوكتافيا ولزوجتك ليفيا ، حتى تميل هاتان السيدتان فتعاملاننى بلطف ورقة ! » .

أكد أوكتافيوس لها تقديره العميق ، وانحنى ثم تركها . الآن شعر بالاطمئنان الى نصره ، لأنها ترغب فى الحياة بأى ثمن !

لكنها كانت قد كسبت قليلا من الحرية . وما لم تساعدها المرأتان ، فيجب أن يكون الطبيب قد فعل ذلك حينئذ . ثم ظهر فلاح ــ أو هكذا اعتبره الحراس ــ فى اليوم التالى حاملا سلة من التين للملكة المريضة ، وعندما فحصوا السلة أراهم التين على السطح ، لا الحية الموجودة بأسفلها .

وعند رؤية سلة الفاكهة أعملت كليوباترا ذهنها . وأمرت باعداد حمام لها ، ثم ألبستها الوصيفتان كل المجـوهرات التى اعتادت على الظهور بها فى كل المناسبات الرسمية ، وثبتا على رأسها تاج مصر المزدوج . ثم أعدت وليمة فاخرة ، تحوى خمرا حلوا . وبعد ذلك كتبت الى أوكتافيوس تسأله أن يدفنها الى جوار انطونيوس .

لابد أن أفكارها الأخيرة كانت مركزة على قيصرون . عرفت أنه الآن آمن ، ومختبىء فى الميناء ، وسرعان ما يتخذ طريقه الى الهند . ما الذى يمكن أن يصيبه بأذى وقد امتزجت فى قلبه روح قيصر وروحها . ووصلت الى الحية وصورته فى خاطرها وفى قلبهـــــا .

عندما قرأ اوكتافيوس الرسالة أراد أن يهرع الى الضريح ، لكنه تذكر ما يجب أن يكون عليه من وقار ، فأرسـل ضابطا . ووجد هذا الضابط أن الحراس لم يكن لديهم علم بحدوث أى خطأ أو أمر غير عادى . وعندما دخل أبصر الملكة راقدة فى كل

بهائها ، وعلى رأسها تاج البطالمة ، كانت أحدى الوصيفتين ميتة، بينما الأخرى تحتضر ، فصاح قائلا :

« حسنا ما فعلتموه ! » فأجابته الفتاة بقولها « شيء حسن حقا ، لأنه كان من تدبير الملكة » .

وسمح أوكتافيوس للمدينة أن تدفنها دفنا ملكيا بجوار أنطونيوس ، لكنه لم يكن هو نفسه حاضرا » .

لم يكن يفكر سوى فى أمر واحد : أن يسرع باخراج كنز البطالمة من السراديب ، ويرسل كل الذهب والمجوهرات على ظهر سفينته . ويا ليت جده المرابى كان حيا ليرى هذا اليوم ! والآن بوسعه أن يدفع رواتب فرقه كلها .

أصبحت مصر ولاية رومانية ، وكان هذا أعظم فتح لروما منذ سقوط قرطاجنة ، منذ مائة واثنتين وسبعين سنة مضت . وأخذ أنطونيوس الأطفال الثلاثة معه الى روما . وهناك قامت أخته بتربيتهم مع بقية الأولاد ، الذين كان من بينهم سبعة أطفال لأنطونيوس ، من زوجات ثلاث ، شبوا جميعا فى رعاية اوكتافيا المهذبة الرقيقة .

لكن أين كان قيصرون ؟ بوسع أوكتافيوس أن يحتمل التفكير فى هروب الملكة من موكب نصره . ولكن الغلام لا يزال حيا ، وهو الشخص الوحيد الذى يمكن أن ينازعه السلطان ، هذا الغلام يجب أن يموت . فأين كان ؟ منذ اليوم الذى دخل فيه الاسكندرية ، ورسله يتدافعون بحثا عنه فى كل جهة ، يحفزهم الى ذلك أكثر الوعود اغراء ، طلبا للظفر بالجائزة الثمينة . أكان مبعثا للدهشة أن وجدوه أخيرا ؟ كان لا يزال عند بيرنيكى . وقد أكد له أحد الضباط الأذكياء ، بلباقة أن اوكتافيوس سوف

يستقبله استقبالا وديا للغاية . وكل ما فى الأمر أنه يريد الاعتراف به ملكا على مصر قبل أن يبحر الى رومـــا . ومربى قيصر ، الفيلسوف ــ أكان ساذجا أم ضالعا فى المؤامرة ؟ ــ هذا المربى أغراه بالموافقة . وهذا ما فعله قيصرون ، وعنـــدما نزل الى الاسكندرية حياه الأسطول التحية الملكية .

وفى القصر ، سأل اوكتافيوس ، وكان يرغب دائما فى أن يلقى المسئولية على شخص آخر سواه ، سأل الفيلسوف اريوس ما اذا كان يحق له أن يقتـــل قيصرون . فأجاب أريوس ، وقد كان يعرف ما هو مدين به لسيده الجديد ، أجاب بقول هوميروس الساخر : « ليس من الخير وجود قياصرة كثيرين ! » .

أعطى اوكتافيوس اشارة ، فقام بخنق الشاب قتلة مأجورون قبل أن تطأ قدمه أرض مملكته . وعلى هذا النحو هلك وعـــد الحلم العظيم الذى حلم به على هذا الشاطىء ذات مرة زوجان ملكيان ، تذكارا لأكثر الناس نبلا ، على هذا النحو هلك آخـــر ممثل للاسكندر ، ذلك الذى كان قيصر العجوز قد ألقاه فى رحم الملكة الشابة ليكسب له العالم يوما ما .

وحينذاك ، استقر كل شىء ، وسوف يغادر اوكتافيوس البلاد غدا . وكان لا يزال هنالك أمر يصدره أوكتافيوس ، يجب أن تزال كل تماثيل انطونيوس وكليوباترا .

حينئذ ظهر نبيل ثرى ، يدعى أرشيبيوس ، ورجاه أن تترك تماثيل الملكة قائمة . وما أن أبصر نظرة الرومانى الغاضبة ، حتى أومأ الى عبيـده ، فألقوا أمام أوكتافيوس بعشرة أكيـاس ، بهـــا ألف طالنت ذهبا . تلك هى اللغة التى كان يفهمها سيد العالم ، فأومأ بدوره موافقا ، ورجع عن أمره ، ولن تزال سوى تماثيل أنطونيوس فحسب .

وبينما كان أوكتافيوس ، فى اليـوم التالى ، مبحرا فى طريق عودته الى وطنه ، استدار ناظرا الى شواطىء مصر التى أسلمت له ذهبا وفيرا ، فتألق أمامه التمثال البرونزى لآخر البطالمة من فوق جبل لوخياس . وحملق فيها ، لكنها لم تكن تراه .

كانت كليوباترا تنظر عبر البحر مليا ، تنظر الى روما .

(تمت)

قائمة بالتواريخ

ق . م (قبل ميلاد المسيح)

١٠٢ (؟) : ميلاد قيصر

٨٣ : ميلاد ماركس أنطونيوس

٦٩ : ميلاد كليوباترا

٦٦ : ميلاد أوكتافيا

٦٣ : ميلاد أوكتافيوس (قيصر اغسطس) .

٥٩ : أعتراف روما بوالد كليوباترا « بطليموس أولتيس » ملكا على مصر .

٥٨ : بطليموس ، ملك قبرص ، وعم كليوباترا ، يقتل نفسه بالسم .

والد كليوباترا يطرد من العرش ويذهب الى روما « بيرينيكى » ابنته الكبرى ملكة على مصر .

٥٥ : عودة والد كليوباترا . اعدام بيرنيكى . أنطونيوس ضابط فرسان فى الاسكندرية .

٥٢ : موت بطليموس أوليتيس . كليوباترا ترتقى الى العرش مع أخيها ذى العشر سنين .

ق . م

٤٩	:	اسقاط كليوباترا وطردها . أخوها يحكم بمفرده باعتباره ملكا .
٤٨	:	مجلس السناتو يعترف بأخى كليوباترا . كليوباترا تجمع جيشا . معركة فارساليوس . فرار بومبى الى مصر ، مقتله فيها . قيصر سيد الأمبراطورية الرومانية ، ينزل الى الاسكندرية . حرب . مقتل أخى كليوباترا .
٤٧	:	كليوباترا السابعة ملكة على مصر . أخوها الأصغر يخطب لها . ميلاد ابن كليوباترا من قيصر ، قيصر بطليموس (قيصرون) .
٤٦ــ٤٤	:	كليوباترا مع ابنها وأخيها فى روما فى ضيافة قيصر .
٤٥	:	قيصر فى أسبانيا .
٤٤	:	مصرع قيصر . كليوباترا ترجع الى الاسكندرية .
٤٣	:	تهديد كاسيوس لكليوباترا . الحكومة الثلاثية الثانية من أنطونيوس وأوكتافيوس وليبيديوس .
٤٢	:	موقعة فيليبى . هزيمة قتلة قيصر .
٤١	:	زيارة كليوباترا لأنطونيوس فى طرسوس : أنطونيوس يقضى الشتاء معها فى الاسكندرية .
٤٠	:	أنطونيوس يستدعى الى ايطاليا . موت زوجته فولفيا . زواجه من أوكتافيا . معاهدة برنديزى (بين أعضاء الحكومة الثلاثية) .

ق . م

٣٦	:	اجتماع انطونيوس بكليوباترا . الحملة الفارسية .
٣٥	:	هزيمة أنطونيوس ، لقاء كليوباترا فى أثناء العودة ، ذهابه معها الى الاسكندرية .
٣٤	:	انتصار أنطونيوس فى أرمينيا . موكب النصر فى الاسكندرية . كليوباترا ملكة عظمى فى الشرق . تتويج أولادها الأربعة .
٣٣	:	أنطونيوس يتجهز ضد أوكتافيوس . محالفته للميديين .
٣٢	:	كليوباترا وانطونيوس فى أفسوس وأثينا ، أنطونيوس يطلق من أوكتافيا . روما تعلن الحرب على كليوباترا .
٣١	:	موقعة أكتيوم .
٣٠	:	انتحار كليوباترا وانطونيوس . مصرع قيصرون .

ب . م (بعد ميلاد المسيح)

١٤	:	موت الامبراطور أوغسطس

العدد القادم

جان دارك

تأليف : أليس بوخان

ترجمة : عبد الفتاح عنايت

الايداع بدار الكتب ٦١١٤/١٩٧٠

وزارة الثقافة

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

المركز الرئيسي ١١١٧ شارع كورنيش النيل – القاهرة – ج.ع.م.

تليفون : ٧١٠٥٥ /٧١٠٥٨ تلغرافياً : يانشرو

الادارة العامة للتوزيع : ١٧ شارع قصر النيل – القاهرة – ج.ع.م

تليفون : ٤٥٥٨٩ /٤٧٤٣٦

مكتبات القومية للتوزيع فى ج . ع . م .

القـــــاهرة

٣٦ شارع شريف ت : ٤٠٠١٢ — ١٩ شارع ٢٦ يوليو ت : ٥٥٠٣٢

٥ ميدان عرابى ت : ٤٦٣٨٣ — ٢٢ شارع الجمهورية ت : ٩١٤٢٢٣

١٣ شارع المبتديان ت : ٢١١٨٧ — الباب الأخضر بالحسين ت : ٩١٣٤٤٧

الاسكندرية : ٤٩ شارع سعدزغلول ٢٢٩٢٥ — الجيزة : ١ ميدان الجيزة ت : ٨٩٨٣١١

دمنهور : شارع عبد السلام الشاذلى ٢٦٠٥ — المنيا : شارع ابن خصيب ت : ٤٤٠٤

طنطا : ميدان الساعة ٢٥٩٤ — اسيوط : شارع الجمهورية ت : ٢٠٣٢

المحلة الكبرى : ميدان المحطة ٤٢٧٧ — اسوان : السوق السياحى ت : ٢٩٣٠

المنصورة : أول شارع الثورة ٣٨٦٤

مراكز التوزيع خارج ج . ع . م

لبنان : الشركة القومية للتوزيع – بيروت – شارع سوريا بناية أبناء صمدى وصالحة

العراق : الشركة القومية للتوزيع – بغــداد – ميدان التحرير – عـــمارة فاطمة

توكيلات وعملاء دائمين خارج ج . ع . م

الكويت : وكالة المطبوعات ٢٧ شارع فهد السالم بالكويت

الاردن : مكتبة المحتسب – عمان

ليبيا : محمود عارف الشويهدى – طرابلس

اندونيسيا : عبد الله محمد الحبدروس – جاكرتا

تونس : الشركة التونسية للتوزيع ٥ شارع قرطاج – تونس

الجزائر : ٩٢ شارع ديدوش مراد بالجزائر العاصمة

المغرب : المركز الثقافى العربى للنشر والتوزيع ٤٢ – ٤٤ الشارع الملكى – الاحباس – الدار البيضاء

هولندا : مكتبة بريل – ليدن

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
فى خدمة القارئ العربى

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر